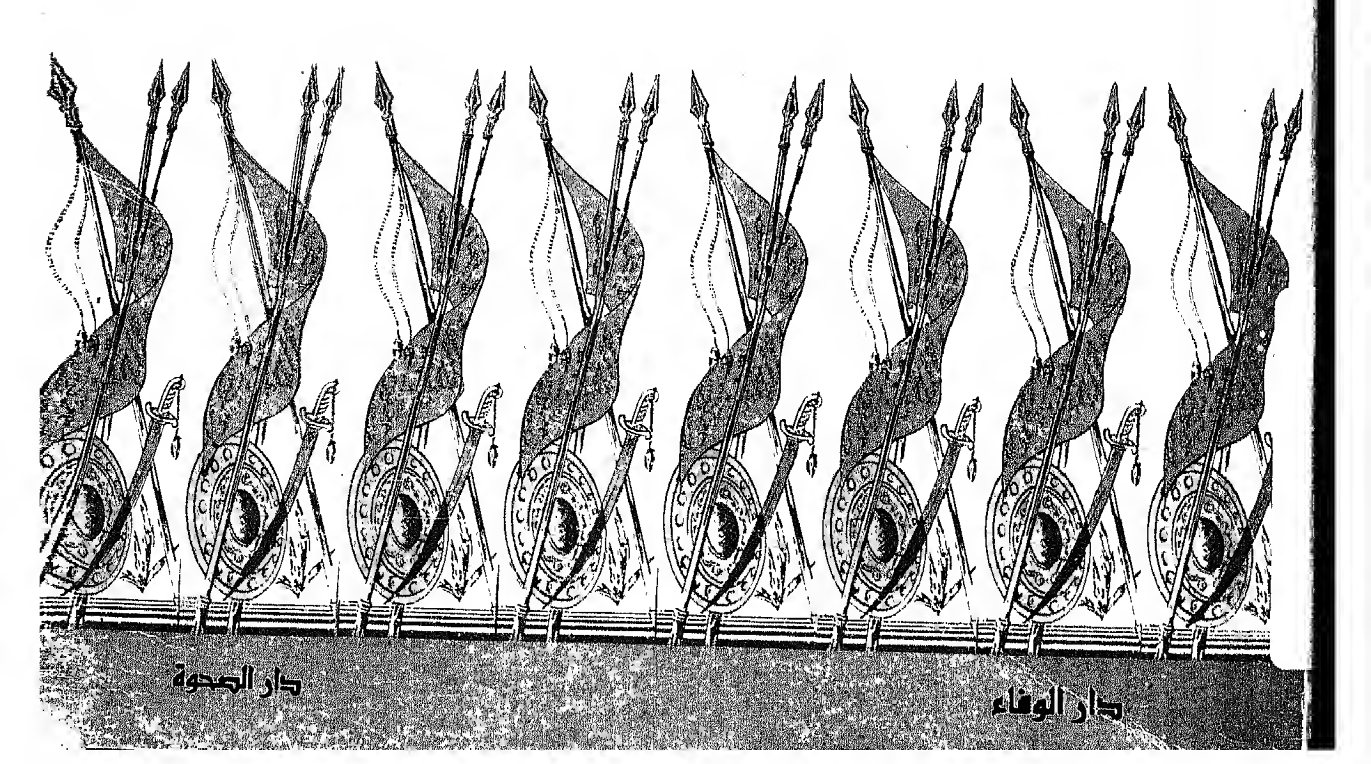
دولة بني حماد

صفحة رائعة من التاريخ الجزائري

الدكتور عبد الحليم عويس



دار الصحوة

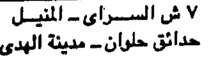
دار الوفاء

دولة بني حماد

صفحة رائعة من التاريخ الجزائري

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
٧ ش السراى - المنيل   ت : ٩٨٧٩٢٤
حدائق حلوان - مدينة الهدى   ت : ٦٨٨٠٧١



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م
الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص . ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

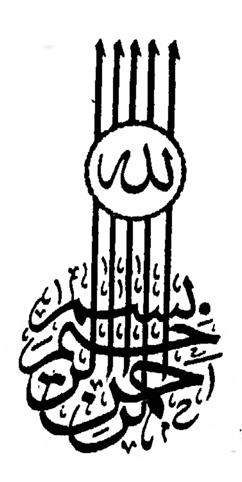
دولة بني حماد

صفحة رائعة من التاريخ الجزائري

الدكتور عبد الحليم عويس

دار الصحوة

دار الوفاء



إهـــداء

إلى الشعب الجزائري الذي دفع ضريبة وجوده ...
فاستحق الوجود ...
وإلى « عبد الحميد بن باديس » الرجل الذي استلهم التاريخ ، فوعى خصائص شعبه ...
« جزائريٌ مسلم يَنْتَسب إلى العروبة » ...
فانطلق يحرك شعبه في اتجاه وجوده الصحيح ...
إليهما معاً ...
الجزائر المسلمة ...
والمسلم الجزائري ....
أقدم هذه الصفحات

د. عبد الحليم عويس

كَلِمَة تقـدير

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الكبير الدكتور أحمد شلبي ، الذي منحني من علمه ورحابة صدره الكثير ...

وأتقدم كذلك بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، وإلى الصديق الدكتور علي عشري زايد ، على ما تفضّلا به من معونة خالصة ، وإيثار كريم .

ولا يفوتني تقديم صادق تقديري للإخوة الذين أمدّوني بفضلهم في الجزائر ومصر والكويت .

جزى الله الجميع خير الجزاء

د. عبد الحليم عويس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لفت نظري ـ وأنا أدرس التاريخ الإسلامي وأعايشه ـ أن الأندلس ـ الفردوس الذي فقدناه ـ والمشرق العربي ، يظفران بأكبر قسط من اهتمام الباحثين في حقل التاريخ الإسلامي بمشرقنا العربي .

وعلى الرغم من أن المغرب العربي قطعة حية من وطننا الإسلامي والعربي ، فإنه لم يظفر إلا بأقل نصيب من اهتمام هؤلاء الدارسين . وتعتبر « الجزائر » من بين بلدان المغرب ـ أقل هذه البلدان ، نصيباً من الدراسات التاريخية الحديثة .

ولئن جاز أن ثمة بوادر اهتمام بالتاريخ الجزائري ، فإن جل هذا الاهتمام ينصب على الجزائر الحديثة ، سواء في فترة صراعها مع الاحتلال الفرنسي ، أو فترة ما بعد الاستقلال .

أما الفترة التي عاشتها الجزائر في ظلال الإسلام خلال قرون طويلة ، تسهم بنصيب في حضارة المسلمين ، وتتعرض لما يتعرض له العالم الإسلامي ـ على نحو ما ـ باعتبارها جزءاً منه .... أما هذه الفترة فإنها لا تكاد تظفر بشيء من اهتمام الباحثين في التاريخ الإسلامي .

* * *

والدولة الحمادية ـ شأنها شأن كثير من فترات العهد الإسلامي في الجزائر ـ لم تدرس ـ فيما أعلم ـ دراسة علمية متكاملة .

وقد وردت بعض أخبار الدولة متفرقة في بعض المراجع القديمة ، ومن بينها كتب الحوليات ، وكتب الرحلات والجغرافية ، والكتب التي تناولت المغرب ككل ، والكتب التي أرخت للدول المعاصرة للدولة ، لا سيما دول المغرب والأندلس ، ولم تفرد المراجع القديمة للدولة بضع صفحات ـ فيما أعلم ـ سوى

ما قام به ابن خلدون ، وابن الخطيب . ولم يكن حظّ الدولة في الدراسات التاريخية الحديثة أفضل كثيراً من حظّها في الدراسات القديمة ، فباستثناء بعض الكتب التي تناولت تاريخ الجزائر العام منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، وأعطت الدولة ـ وسط هذا الحشد من القرون ـ بضع صفحات ، يغلب عليها عدم الدقة ... باستثناء هذه الكتب لا نجد ما يستحق الذكر سوى ما كتبه « جورج مارسيه » ، و «جنرال دوبليه » ، والكاتبان الجزائريان «مبارك الهلالي الميلي» ، و « عبد الرحمن الجيلالي » ، وما كتبه متناثراً « عثمان الكعاك » ، و « ماس لاتري » .

ومع ذلك ، فإن ما كتبه كل من هؤلاء ، لا يعطي الصورة الحقيقية الكاملة للدولة ، فإلى جانب التكرار بين أكثرهم ، مما يجعل الحصاد الأخير لعطائهم محدوداً ، لا يعطي الصورة الحقيقية للدولة ... إلى جانب هذا ، كانت أكثر هذه الكتابات جزئية ، تبحث جانباً معيناً ، لا سيما كتابات « عثمان الكعاك » ، و « جورج مارسيه » ، و « ماس لاتري » . ومع ذلك ، فقد كانت كتابات هؤلاء ـ فضلاً عن كتابات « دوبليه » و « الهلالي الميلي » و « الجيلالي » ـ أكثر الكتابات الحديثة اهتماماً بالدولة الحمادية وإنصافاً لها .

* * *

وتهدف هذه الدراسة إلى دراسة الدولة الحمادية دراسة تاريخية وحضارية على نحو متكامل . وقد واجهت في سبيل تحقيق هذا الهدف مصاعب جمة أهمها :

أولاً : قلة المادة العلمية البارزة حول الموضوع .

ثانياً : عدم توفر كثير من المراجع التي يمكن أن تخدم الموضوع .

ثالثاً : الخلط الكثير حول الدولة ، كتاريخ وحدود جغرافية .

رابعاً : غموض الجانب الحضاري للدولة ، وتفرّقه بين مصادر كثيرة .

خامساً : بالإضافة إلى المصاعب التي يواجهها الباحثون في أمثال هذه الموضوعات المغمورة ، وما يتبع ذلك من كثرة الاجتهادات المتباينة ، وضرورة الرجوع إلى عشرات المصادر والمراجع من أجل الحصُول على عدة أسطر قد تمت إلى الموضوع بصلة .

* * *

لقد تعددت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في دراستي هذه ، وكان القليل منها معاصراً للدولة ، وكان بعضها الآخر ملماً بكثير من المعلومات ، وقد تناول بعضها جوانب معينة برز فيها ، وكان بعضها حديثاً يستفاد منه عند الرأي والترجيح .

ومن أبرز المصادر التي عاصرت الدولة : « سفر نامة » لناصر خسرو (٤٧١ هـ) و « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (جزء من كتاب المسالك والممالك) لأبي عبيد الله البكري (٤٨٧ هـ) و « صفة المغرب » (المقتبس من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي (٥٤٨ هـ) و « الاستبصار في عجائب الأمصار » لمؤلف مراكشي مجهول من كتاب القرن السادس الهجري . وقد أفادتني هذه المصادر في دراسة الجانب الجغرافي والاقتصادي للدولة .

ومن المصادر المعاصرة للدولة أيضاً : « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام (٥٤٢ هـ) و « قلائد العقبان » للفتح بن خاقان (٥٣٥ هـ) و « مذكرات الأمير عبد الله » آخر ملوك بني زيري ـ (كان حياً في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري) و « أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين » لأبي بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيذق (كان حياً في النصف الأول من القرن السادس الهجري) . وقد أفدت من هذه المصادر في دراسة التاريخ السياسي للدولة الحمادية . ومن المصادر التي أفدت منها في تصوير الحياة الفكرية للدولة : « خريدة القصر وجريدة العصر » ـ قسم شعراء المغرب ـ للعماد الأصفهاني (٥٩٧ هـ) و « الصلة » لابن بشكوال (٥٨٧ هـ) و « جذوة المقتبس » لأبي عبد الله الحميدي (٤٨٨ هـ) . والحق أن المصادر المعاصرة للدولة ، والتي تحدثت عن بعض جوانبها ، قليلة جداً ، فضلاً عن أن المادة التي وفرتها هذه المصادر المعاصرة قليلة لا ترسم صورة واضحة للجانب الذي يمكن أن تكون قد تناولته . ولقد كانت مؤلفات المؤرخين الذين ظهروا بعد عصر الدولة على امتداد القرون الثلاثة : السابع والثامن والتاسع للهجرة ، أكثر مادة وأشمل في الإفادة . وكانت هذه المراجع ـ بحق ـ الركيزة الأولى في توفير مادة هذا البحث . ولعل تفسير هذا ـ بالنسبة لنا ـ ضياع كثير من المخطوطات . ومن أبرز هذه المراجع « الكامل » (الأجزاء ٩ ، ١٠ ، ١١ طبعة دار صادر) لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ،

ويشكل ما كتبه ابن الأثير في حوليات كتابه ، مادة من أغزر المواد التي كتبت عن الدولة ، تكوّن في مجموعها تاريخاً قريباً من الكمال ـ إلى حد كبير ـ ، ولم ألحظ عليه شيئاً في تأريخه للدولة الحمادية من ناحية الدقة العلمية ، بيد أن هناك ملحظين آخرين :

أولهما : تجاهله لأميرين من أمراء الدولة البارزين : المنصور بن الناصر بن علناس ، والعزيز بن المنصور .

ثانيهما : اقتصاره على التاريخ السياسيّ للدولة ، دون التعرض لمظاهر الحضارة ، وهي سمة عامة تغلب على تأريخه كله .

وفيما عدا ذلك فالمادة العلمية التي قدمها ابن الأثير تدعو إلى الإعجاب والدهشة ، باعتباره مؤرخاً مشرقياً ، مما يجعلنا نرجح اعتماده على بعض مخطوطات المغاربة والأندلسيين ، كإبراهيم بن الرقيق وغيره . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر المستشرق « فانيان » فجمع كل ما يتصل بأحداث المغرب من كتاب ابن الأثير ، ونشره في مجلد واحد .

ويأتي عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) ـ المجلد السادس الخاص بالبربر من كتابه « العبر » ـ في درجة متوازية مع ابن الأثير ، وإن كانت لكل منهما خصائصه . فابن الأثير يسير في تأريخه « حولياً » ، وابن خلدون يسير « موضوعياً » ، وابن الأثير « مشرقي » ، وابن خلدون « مغربي » مشهور بتخصصه في التاريخ البربري ، فضلاً عن أنه زار بجاية وبسكرة وتاهرت وأقام بقلعة سلامة على بعد ما يقرب من خمسين كيلومتراً من تاهرت ـ والمرجّح أنه كتب معظم كتابه « العبر » ـ فضلاً عن المقدمة ـ في أرض المغرب العربي وعلى رأسها الجزائر . كما أن للفاصل الزمني بين المؤرخين الكبيرين أثره على كتابة كل منهما .

ولم تكن فائدة كتابة ابن خلدون محصورة بالنسبة لبحثي على الصفحات التي كتبها عن الدولة الحمادية . فالحق أن ما كتبه عن البربر بعامة ، وعن دول « بني زيري ، والمرابطين ، والموحدين ، وبني خراسان » ، وهي الدول التي اتصلت حياتها بحياة الحماديين ـ على نحو ما ـ كان أيضاً ذا فائدة كبيرة لبحثي ـ والأمر كذلك بالنسبة لكتاب ابن الأثير .

ولم يختلف أمر ابن خلدون عن سابقه ابن الأثير في سمة التأريخ السياسي كثيراً ، فنحن لا نكاد نلمح في كتابه « العبر » ما ينفع كثيراً في تصوير الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الاقتصادية بالنسبة لدولة بني حمَّاد . وإن كانت « المقدمة » قد أمدتنا ببعض المعلومات المفيدة في هذا الجانب ، وهي كذلك معلومات قليلة وعامة . وجدير بالذكر أن ثمة خلافاً بين بعض طبعات « العبر » ــ وهو خلاف مشوه بصورة كبيرة لحقيقة المادة العلمية ــ فثمة خلاف في السنوات ، وثمة خلاف في بعض الكلمات التي تعطي مدلولاً مغايراً[1] ، ومرجع هذا بالطبع إلى افتقار الكتاب إلى التحقيق ، فضلاً عن التحقيق الجيد اللائق بالمؤرخ العظيم .

ومن المراجع ذات القيمة بالنسبة لهذا البحث « الجزء الثالث من أعمال الأعلام » للسان الدين بن الخطيب (٧٧٦ هـ) ــ معاصر ابن خلدون وصديقه ، والذي توفر له الاتصال المباشر بالمغرب مثله . وقد توفر لهذا الجزء تحقيق جيد قام به الأستاذان : الدكتور أحمد مختار العبادي ، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني . وقد أضافت تعليقاتهما إلى الفائدة التي يحققها الكتاب فوائد أخرى كثيرة . ويلاحظ أن ابن الخطيب قد اعتمد على ابن بسام في حديثه عن بلقين ابن حماد ــ أحد أمراء الدولة ــ كما يلاحظ أنه كان أقصر نفساً وأقل تحليلاً من صديقه ابن خلدون ، وقد أخطأه الصواب في تحديده لبعض التواريخ ، كتحديده لوفاة يحيى ــ آخر أمراء الدولة[2] .

ولا يقل كتاب ابن عذارى المراكشي ــ (كان حيًّا في النصف الأول من القرن السابع الهجري) « البيان المغرب » ــ في فائدته عن كتاب ابن الخطيب وإن جاءت معلوماته متناثرة ، شأن كثير من الكتب .

---

(١) على سبيل المثال : وصفت طبعة بولاق بلقين بن حماد بأنه كان « حمارا » ، ووصفته طبعة دار صادر بيروت ، بأنه كان « جبارا » . وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن « بلقين » – فصل : التاريخ السياسي للدولة .

(٢) أشرنا إلى ذلك في فصل سقوط الدولة ، وانظر أعمال الأعمال ٣/١٠٠ وتعليق المحققين.

وهناك مراجع أخرى كثيرة – في هذه القرون – أفاد بعضها في تصوير الحياة السياسية للدولة ، « كالمعجب في تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي (٦٤٧ هـ) ، و « تاريخ المن بالإمامة » لابن صاحب الصلاة (توفي في نهاية القرن السادس الهجري) ، و « البداية والنهاية » لابن كثير (٧٧٤هـ) ، و « نهاية الأرب في فنون الأدب » (الجزء الثاني والعشرون المخطوط بدار الكتب المصرية) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٣ هـ) . كما أفاد بعض هذه المراجع في تصوير الجانب الحضاري للدولة « كالتكملة » ، و « الحلة السيراء » لابن الأبار (٦٥٨ هـ) ، و « معجم البلدان » ، و « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » ، لياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) ، و « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » للقلقشندي (٨٢١ هـ) ، و « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » للمقريزي (٨٤٥ هـ) ، و « عنوان الدراية » لأبي العباس الغبريني ت (٧١٤ هـ) .

وقد أسهمت بعض الدراسات الحديثة في هذا البحث ، ولبعض الدراسات قيمة لا تقل عن قيمة المصادر القديمة لارتكازها على البحث الأثري في خرائب القلعة عاصمة الدولة الأولى ـ وفي بجاية ـ العاصمة الثانية ـ ومن أبرز هذه الدراسات :

كتاب « جنرال دوبليه » عن قلعة بني حماد ، وكتاب « جورج مارسيه » عن الخزف والصيني في بجاية ، وعن « المغرب الإسلامي في العصر الوسيط » . والكتالوجات التي أشرفت عليها وزارة الأخبار الجزائرية ، والتي جاءت خلاصة لنتائج الجهود الأثرية في بقايا الدولة ، « كتالوج بجاية ، والمساجد في الجزائر ، والفن المعماري في الجزائر » . وقد اعتمدت على بعض الكتابات الحديثة الأخرى ـ كتلك التي ذكرتها في صدر المقدمة ـ بالإضافة إلى بعض الدراسات الأخرى ، كقيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود ، والدولة الموحدية بالمغرب للدكتور عبد الله علام ، وبعض الدوريات الجزائرية كمجلة الأصالة والمجاهد السياسي ، وعلى المواد التي تمت بصلة إلى موضوع البحث في دائرة المعارف الإسلامية .

* * *

لقد حاولت أن أعطي صورة كاملة لدولة بني حماد ـ إحدى فترات التاريخ الجزائري الإسلامي المغمور ـ ولقد بذلت في سبيل ذلك ما أستطيع من جهد ولا أزعم أني بلغت الغاية ، وحسبي أن أكون قد أسهمت بنصيب في إبراز معالم هذه الدولة تاريخياً وحضارياً .

والله أسأل ألا يخيب أعمالنا ، وأن يكتب لنا السداد .

د. عبدالحليم عويس

تمهيد

المغرب الإسلامي إلى قيام الدول البربرية المستقلة

١ - البربر ومواطنهم بالمغرب
٢ - خصائص البربر
٣ - الجزائر الإسلامية
٤ - ظهور الدول البربرية المستقلة

١ – البربر ومواطنهم بالمغرب :

تشبه شجرة النسب البربري – إلى حد بعيد – شجرة النسب التي يتكون منها الشعب العربي .

فهؤلاء البربر ... شعوب كثيرة متعددة القبائل تنتهي – في رأي النسابة – إلى جذمين عظيمين : برنس بن برّ بن مازيغ ، وماذغيس بن برّ بن مازيغ ، ويلقب ماذغيس بالأبتر ، فلذلك يقال لشعوبه « البتر » ، ويقال لشعوب برنس « البرانس » .

وينتهي البرانس والبتر معاً إلى مازيغ بن كنعان من نسل حام بن نوح[1] أي أن البربر كلهم حاميون[2] .

لكن ابن خلدون يذكر أن بعض نسابة البربر قد خالفوا هذا الرأي ، وذهبوا إلى أن البرانس بتر ، وأن البتر من بني برّ بن قيس بن عيلان[3] وهي قبيلة مضرية ، فالبتر إذن ساميون عرب[4] .

ويعتبر الرأي الذي مال إليه ابن حزم وابن خلدون من أن الجذمين معاً

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٩٥ طبعة دار المعارف ١٩٦٢ ، ومسالك الممالك ٤٤ للإصطخري ليدن ١٩٢٧ ، وانظر فتح العرب للمغرب ص ٨ دكتور حسين مؤنس ، وانظر العبر ج ٦ ص ١٧٦ .

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب ٤٩٥ وقد ذكر هذا النسب عبد الرحمن الجيلالي ثم ذكر أنهم – به – ساميون مع أن السلسلة صريحة في أنهم حاميون ، وإن كانوا قد امتزجوا بالساميين (تاريخ الجزائر العام ج ١ ص ٤٩) .

(٣) العبر ج ٦ ص ١٧٦ – ١٧٧ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٢٣ نشر دار الأندلس بيروت ط ١ – ١٩٦٥ ، وانظر نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ١١٨ .

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان الطبعة الأولى ١٩٤٨ .

ينتهيان إلى كنعان بن حام بن نوح ، وأن البربر جميعاً ـ بهذا ـ حاميون[1] أقرب الآراء إلى الصحة ـ في رأيي ـ مع صحة اختلاط العنصر البربري بعناصر طارئة سامية كذلك .

وهناك عديد من الأدلة التي تثبت هذا الاختلاط ، فلقد صحَّ أن هجرات فينيقية سامية قد قدمت من جنوب فلسطين من بلاد الشام عن طريق مصر ، وامتزج البربر فيها بغيرهم قبل الميلاد بعديد من القرون[2].

وإن ما نراه في شواطئ إفريقية العليا من البيض بين الزنوج ليدلنا ـ كذلك ـ على أن البربر نتيجة لاختلاط عديد من الشعوب التي هاجرت إلى شمال إفريقية[3] بالعنصر الأصيل الموجود في الغرب .

ولقد ذكر لنا ابن خلدون ـ في مجال ذكره لسبب إطلاق كلمة بربر ـ أن « إفريقش بن قيس بن صيفي » من ملوك التبابعة هو الذي غزا إفريقية ، وأنها سميت إفريقية نسبة إليه ، فهو ـ بصرف النظر عن التعرض لتعليله هذا ـ قد أقرّ بوجود صلات حضارية بين الساميين وسكان المغرب العربي[4] ، ـ وهذا لا يعني أن إفريقش هذا هو الذي جلب معه كل سكان المغرب كما يفهم من كلام ابن خلدون[5] بل إن الأمر لا يعدو عملية اتصال حضاري بين أقلية وافدة وأكثرية أصيلة .

ولقد أورد ابن خلدون تلك الآراء التي ذهبت إلى أن البربر يمنيون ، ورأي

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب ٤٩٥ ، والعبر جـ٦ ص ١٩١ ، ونهاية الأرب للقلقشندي ص ١١٩ .

(٢) انظر مروج الذهب جـ٢ ص ٩٥ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية جـ٣ ص ٥٠٢ ، وانظر العبر جـ٦ ص ١٨٦ (حول هجرة قبائل يمنية) .

(٣) حضارة العرب لوبون ٣٠٤ ترجمة عادل زعيتر الطبعة الثانية ١٩٤٨ .

(٤) العبر جـ٦ ص ١٧٩ (وما بعدها) ، وانظر فتوح البلدان ص ٢٧٠ ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي جـ٦ ص ٦٢ د أحمد شلبي نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ .

(٥) العبر جـ٦/١٩٠ .

المسعودي[1] الذي ذهب فيه إلى أنهم يمنيون أو غسانيون تفرقوا عندما كان سيل العرم[2]. وقد ذكر ابن حزم أن نسابي البربر يزعمون أن سدراتة ومزاتة ـ وهي من القبائل البربرية الكبيرة ـ من القبط[3]. وذهب ياقوت والإدريسي إلى أن موطن البربر الأصلي أرض الأردن والشام ، وأنهم عُربوا بعد قتل ملكهم طالوت ، وأن أصلهم العماليق من قوم جالوت[4].

ومن الجدير بالذكر أن اتصال البربر الحضاري قد أوجد نوعاً من الاختلاط في الجنس البربري بين فروع سامية وأخرى حامية . وهذا لا يعني أن الجنس البربري كله ـ في رأينا ـ مجموعة عناصر طارئة على هذا الوطن أتت بهم الهجرات البشرية من المشرق نتيجة لظروف سياسية خاصة ، كما خشي من ذلك أحد المعاصرين[5] ، بل يعني أن سكان المغرب العربي ، لم يعدموا على امتداد تاريخهم هجرات سامية وافدة نجح أصحابها في خلق ظروف الالتحام والتعايش ، والاندماج بالوسائل المختلفة مع البربر أبناء البلاد الأصليين لدرجة ذوبان هذه العناصر في البربر[6]. يقوي ذلك طبيعة الإطار الجغرافي الذي لا تقوم فيه حواجز طبيعية كبرى تفصل بين مصر وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ، وهذه البلاد . كما أن النجاح الذي حققته هجرة القبائل العربية التي خرجت من صعيد مصر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يؤكد إمكانية قيام اندماج من هذا النوع ـ فضلاً عن أن الهجرات الفينيقية من ساحل الشام ، تلك التي

---

(١) لم تك عبارة ابن خلدون دقيقة ، فإن المسعودي لم يبد رأياً ، وإنما حكى أن بعض الناس رأوا هذه النسبة (المسعودي / مروج الذهب جـ ١٢٣/٢) .
(٢) العبر ١٨٢/٦ .
(٣) جمهرة أنساب العرب ٤٩٨ .
(٤) المشترك وضعاً والمفترق صقعا لياقوت بن عبد الله الحموي تصوير مكتبة المثنى ، عن طبعة فرديناند ويسنفلد جوتينجان ١٨٤٦ ص ٤١ ، وصفة المغرب للإدريسي (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق) نسخة مصورة عن طبعة ليدن ١٨٩٤ – ص ٥٧ .
(٥) المغرب الإسلامي لقبال موسى ص ١٧ مطبعة البعث بقسنطينة ١٩٦٩ ط ١ .
(٦) انظر المغرب الكبير دبوز ٣١/١ .

أدت إلى إنشاء مستعمرات فينيقية تم فيها الامتزاج بين سكان البلاد الأصليين ، والعناصر الطارئة من الفينيقيين ، تكاد تكون حادثة معترفاً بها لدى كثير من المؤرخين [1].

ولسنا نرى إمكانية وقوع حادثة تاريخية في فترة من فترات التاريخ ، واستحالة وقوع حادثة مماثلة ـ مع عدم وجود ما يبرر هذا التناقض الغريب .

وأياً كان الأمر ، فإن هذين الأصلين اللذين يشبهان إلى حد بعيد تقسيم الجنس العربي إلى عدنان وقحطان ، قد انحدرت عنهما مجموعة قبائل تكون منها الجنس البربري .

فأما شعوب البرانس فعند النسابين أنهم – يجمعهم سبعة أجذام وهي : أزداجة ، ومصمودة ، وأوربة ، وعجيبة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وأوريغة . وقد زاد سابق بن سليم وأصحابه قبائل لمطة وهسكورة وكزولة [2].

وأما البتر فقبائلهم المشهورة أربع : أداسة ونفوسة وضرية[3]وبنولوا الأكبر (بنو لواتة) [4]، وهذه القبائل المشهورة تتفرع إلى فروع كثيرة ، فأما أداسة فبطونهم كلها في هوارة ، وأما لوا الأكبر فنه بطنان عظيمان وهما نغزاوة ولواتة بنولوا الأصغر [5]، ومن فروع ضرية قبيلة لعبت دوراً مهماً في التاريخ المغربي وهي زناتة من زانا بن يحيى بن ضري بن زجيك بن ماذغيس[6] . ومن أشهر قبائل البتر المنحدرة عن هذه القبائل نفزة ومزاتة ومغيلة ومطماطة ومديونة ، وغيرها [7].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٦٥ ، دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٥٠٢ مادة البربر .
(٢) العبر جـ ٦ ص ١٧٧ .
(٣) وردت صنبرة وضرية وضريسة .
(٤) جمهرة أنساب العرب ٤٩٧ والعبر جـ ٦ ص ١٧٨ .
(٥) جمهرة أنساب العرب ٤٩٧ .
(٦) جمهرة أنساب العرب ٤٩٦ .
(٧) انظر جمهرة أنساب العرب ٤٩٦ .

وأما البرانس فأشهر قبائلهم كتامة وصنهاجة وعجيسة ومصمودة وأوربة وأزداجة وأوريغ[١]، ولعل أشهر قبائلهم على الإطلاق هي قبيلة صنهاجة التي قُدر لها أن تحكم المغرب العربي بعد نزوح الفاطميين إلى القاهرة ، وهي التي انحدر منها مؤسسو دولة بني حماد في الجزائر . وتعتبر صنهاجة « من أوفر قبائل البربر » ، وهي أكثر أهل المغرب ، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر[٢]. وقد حاول كثير من المؤرخين أن يجدوا أساساً لهذا التقسيم بين ضلعي البربر (البرانس والبتر) ، وأغلب الظن أن جل التفسيرات التي قدمت لهذا التقسيم قريبة الشبه ـ كما لاحظت ـ بتلك التفسيرات التي قدمت لتعليل انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين ، حيث كانت قحطان عاربة تسكن اليمن وتتمتع بنظام اجتماعي وسياسي وبنوع من الاستقرار ، وحيث كانت عدنان مستعربة تنتشر من مكة إلى ما حولها من بادية الحجاز ، في حياة قبلية بدائية تفتقد النظام والاستقرار. والفروق بين القسمين هي الفروق الثقافية والاجتماعية التي توجد بين سكان الحضر وسكان البادية ، أو بتعبير آخر سكان الوبر (الخيام) وسكان المدر (البيوت) . ولا يمنع من صحة هذا أن يكون بعض الحضريين قد تبدّوا ، أو أن يكون بعض البدو قد تحضروا . وإلى هذا التفسير ذهب ابن خلدون[٣]، وقد ذهب إلى هذا الرأي المستشرق (جوتيه) وغيره من المؤرخين ، مستدلين بما كان عليه البربر في التاريخ القديم من تقسيم إلى نوميديين (جزائريين) وموريطانيين (مراكشيين)[٤].

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٤٩٥ .

(٢) العبر ج ٦ ص ٣٠٩ .

(٣) انظر العبر ١٩٩/٦ ، وتاريخ الجزائر العام الجيلالي ٥٤/١ ، ٥٥ ، وانظر تاريخ المغرب العربي د.سعد زغلول ص ٣٢ (دار المعارف) ، وانظر فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص ٦ ، وانظر قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨ للأستاذ محمود شيت خطاب الطبعة الأولى نشر دار الفتح للطباعة ١٩٦٦ .

(٤) انظر د. سعد زغلول تاريخ المغرب العربي ص ٣٢ ، وانظر فتح العرب للمغرب ص ٦ .

والمشهور بصفة غالبة أن شعوب البرانس قد غلب عليها الاستقرار في القرى الساحلية والتلية والجبلية والزراعية ، فكانت تضرب في النواحي الخصبة المحيطة بجبال أوراس وفي الجهات الجنوبية والوسطى من إقليم الجزائر ، وأوغلوا في مراكش ، ونزلوا بالجزء الشرقي من جبال أطلس ، بل تجاوزوا ذلك إلى ساحل المحيط الأطلسي حتى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر [1].

وأما شعوب البتر. فالغالب عليهم طابع البداوة ، فيظعنون لانتجاع المرعى الخصيب والماء الكثير ، وهم ينزلون بسلسلة الوديان الصحراوية أو الرعوية التي تمتد من طرابلس إلى تازا ، كما ينتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى ، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية ، وتوجد بطون منهم في أقاليم التل قرب طرابلس وبجبل نفوسة وإقليم الجريد ، كما تسكن زناتة منهم إقليم المغرب الأوسط [2] وإقليم الصحراء جنوب تونس وسفوح الأوراس والهضاب العليا ونطاق الاستبس والمراعي [3].

والملاحظ عموماً أن نسبة ازدحام الجماعات البربرية تزيد كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب [4].

ويرى المستشرق « وليم مارسيه » أن تسمية البرانس والبتر إنما جاءت تبعاً لنوع الثياب المعروفة في المغرب ، فالثوب الوطني المشهور في البلاد كان البرنس ذا غطاء الرأس المخروطي الشكل الذي ما زال مستعملاً إلى الآن ... وهؤلاء هم البرانس ، وأما من كانوا يلبسون هذا الرداء قصيراً أو دون غطاء الرأس فأطلقوا عليهم البتر (بمعنى أبتر ناقص) [5].

---

(١) انظر ابن خلدون جـ ٦ ص ١٩٨ وما بعدها ، وانظر المغرب الإسلامي لقبال موسى ص ١٦ ، وقيام دولة المرابطين ص ٣٥ (د. حسن محمود) .

(٢) العبر ٦/٢٠٣ .

(٣) انظر صفة المغرب للإدريسي ص ٨٨ ، والمغرب الإسلامي ص ١٦ ، وقيام دولة المرابطين ص ٣٣ وابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٠ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر جـ ٣ ص ٥٠٨ .

(٥) نقلا عن تاريخ المغرب العربي دكتور سعد زغلول ٣٤ ، وانظر فتح العرب للمغرب ص ٨ دكتور حسين مؤنس .

وعلى الرغم من أن هذا التفسير ليس صحيحاً على إطلاقه ، إذ أن الملثمين ـ وهم من الفرع الصنهاجي الذي يعتبر عمدة البرانس ـ لم يعهد هذا في ملبسهم ... على الرغم من هذا فإن نوعية الثياب تخضع إلى حد كبير للظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وبالتالي فإن التعليل الصحيح هو التعليل الذي يرجع الأمر إلى مجموعة هذه الظروف التي تتولد هي الأخرى عن التقسيم إلى حضر وبادية ، حيث يعتبر هذا التقسيم ـ في عمومه ـ فاصلاً بين بيئتين مختلفتي الثقافة والظروف الاجتماعية ـ فضلاً عن الظروف الاقتصادية ، هذا التفسير يرجع إلى الصفة البارزة في النشأة ، وبالطبع فهو ليس سمة مضطردة ، فقد يتمكن الملثمون سكان الصحراء من تأسيس دولة منظمة قوية ، وقد تدوخ زناتة على يد الزيريين وتلجأ إلى الصحراء ـ كما حدث فعلاً ـ لكن ، مع ذلك ، تبقى السمة البارزة الممتزجة بالمزاج العام غالبة ومسيطرة .

ومع كل هذا ، فإن التفسير الذي لجأ إليه المستشرق « رد » (RODD)الذي أرخ للطوارق في العصر الحاضر ، وأيده فيه الدكتور حسن محمود[1] ، وهو أن الخلاف بين البرانس والبتر خلاف جنسي محض ، وأن هذا الخلاف الجنسي باق إلى اليوم ، وأن القرية المغربية لا زال فيها عنصران متباغضان أبداً .... هذا التفسير .. يحمل شيئاً من المبالغة ، فإن البرانس والبتر قد امتزجوا عبر التاريخ ـ على نحو تمازج القبائل العربية ـ على أنهما فرعان لشجرة واحدة ، كما أن القبائل العربية التي أصبحت حقيقة جنسية من حقائق المجتمع العربي منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، قد خفَّفَتْ كثيراً من حدة هذا الخلاف القبلي الذي لا يعدو أن يكون بحثاً عن زعامة أو سيطرة كانت تُغذيها جماعات المهاجرين من المشرق بحثاً عن الحكم أو السيطرة المذهبية أو الثأر من دولة مشرقية ، وهذه الخصيصة التي تعتبر من خصائص التاريخ المغربي في العصور الوسطى قد جعلت بعض المؤرخين يميل إلى جعل هذين الجذمين « يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ،

---

(١) قيام دولة المرابطين ص ٣٠، ٣١ .

واحدة تمثل أهل البلاد ، والأخرى تمثل الوافدين الجدد»[1] وأن الاختلاف بينهما اختلاف جنسي ولغوي معاً[2].

والذي نميل إليه أن القرية المغربية الآن لم تعد تحمل هذا التباغض إلا بقدر ما يحمل الطابع القروي نزعات التماسك القبلي وحب التفاخر والتمايز ، كما أن البربرية ـ كلغة ـ لا تحمل من فروق بين هاتين الطائفتين إلا ما تحمله الفروق اللهجية بين بيئتين اختلفتا نضجاً ، وتطوراً ، واحتكاكاً خارجياً ، وثقافة . وهي فروق قريبة من ذلك اللون الموجود بين شمال مصر وجنوبها ، فالبربرية كغيرها من سائر لغات البشر ذات لهجات وصيغ مختلفة كثيرة كثرة ما في الفرنسية والأسبانية ، أو بينهما وبين الإيطالية[3] . وهذا مشاهد من أهلها إلى الآن بين سكان القطر الجزائري والمراكشي ، فهناك لهجة خاصة بزواوة ـ بلاد القبائل ـ تختلف في بعض المظاهر عن لغة الشاوية وبني مصاب (مزاب) وبني صالح بجبل البليدة .... ومع ذلك فلا يزال اسم (تمازغت) يطلق على جميعها ، فكلها ترجع إلى جذر واحد يمت بصلة إلى اللغة السامية[4] . فالخلاف اللغوي ليس إلا اختلافاً من قبيل اختلاف اللغة على نفسها إلى لهجات لأسباب كثيرة يقرها علماء اللغة . كما أن الخلاف الجنسي ليس إلا في نفس درجة الخلاف بين القحطانيين والعدنانيين ، بل إن اللغة البربرية قد تعربت كما تعرب البربر أنفسهم ، فتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها سكان منطقة القبائل الكبرى من كلمات عربية ، وهذا قد أحدث ـ بدوره ـ نوعاً من الاتحاد والتقارب بين البربر[5]، لكن طبيعة الظروف المختلفة في شبه الجزيرة عنها في المغرب ، وطبيعة مسيرة الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، كان من شأنهما أن تمزجا ـ على

(١) قيام دولة المرابطين ، دكتور حسن محمود ص ٣١ .
(٢) المكان السابق نفسه .
(٣) حضارة العرب غوستاف لوبون ٣٠٤ .
(٤) انظر تاريخ الجزائر العام عبد الرحمن الجيلالي ج ١ ص ٦١ الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة الحياة ١٩٦٥ .
(٥) حضارة العرب لوبون ٣٠٥ .

نحو أقوى ــ بين فرعي العرب الكبيرين ، بدرجة لم يتيسر لها ــ نتيجة الظروف التاريخية أيضاً ــ أن تتحقق في المغرب العربي .

ومع كل ذلك ، وعلى الرغم من انقسام البربر إلى برانس وبتر ، وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة ــ فإن القرابة قريبة بين الجماعتين ، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما ، فالنسابة يختلط عليهم الأمر لدرجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس ، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختاً لقبيلة أداسة البترية عن طريق الأم ، وكذلك الأمر بالنسبة لقبيلة زواوة[1] التي تعد من البتر ، ويعتبرها بعض النسابة من كتامة البرنسية . وقد لاحظت نفس الشيء بالنسبة لقبائل مصمودة التي يجعلها بعضهم أختاً لصنهاجة[2] ، ويجعلها بعضهم مستقلة ، ولا تمت لصنهاجة بسبب من قرابة أو نسب[3].

٢ - خصائص البربر :

لم يلق المسلمون في كل فتوحاتهم ما لاقوه في فتحهم لبلاد المغرب العربي[4]، فهل نستطيع تلمس أسباب لهذه الحقيقة ؟ لقد بدأت محاولات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنة ٢٢ أو ٢٣ هجرية . ولم تنته على وجه اليقين إلا بعد هزيمة

---

(١) ابن خلدون ١٧٧/٦ - ١٧٩ ، وانظر تاريخ المغرب العربي دكتور سعد زغلول ص ٣١، وانظر قادة فتح المغرب العربي جـ ١ ص ١٧ محمود شيت خطاب .

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب ٤٩٥ ، وانظر العبر ١٧٧/٦ ، وانظر تاريخ المغرب العربي دكتور سعد زغلول ص ٤٠ ، وانظر المجتمع المغربي الدكتور إبراهيم أحمد العدوي ص ١٥ (نشر مكتبة الأنجلو ١٩٧٠) .

(٣) مسالك الممالك ٤٤ للكرخي ، وانظر قيام دولة المرابطين ص ٣٥ .

(٤) انظر التحقيق الكبير لتاريخ الفتح الإسلامي للمغرب في كتاب فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص ٦٩، ٧٠ ــ وقد ذكر ابن عبد الحكم روايتين لفتح عمرو بن العاص لطرابلس إحداهما سنة ٢٢ هـ والثانية ٢٣ هـ لكن عمرو كان قد غزا برقة قبل ذلك التاريخ سنة ٢٣ هـ والمقبول (فتح مصر والمغرب ــ لابن عبد الحكم ٢٢٩ - ٢٣٠)، وانظر البيان المغرب جـ ١ ص ٢ .

الكاهنة على يد حسان سنة ٧٦ هـ ، وبعد تمكن حسان من جعل البلاد تستقيم[١] حوالي سنة ٨٥ هـ[٢] ، أي أنها استمرت أكثر من نصف قرن .

ومن المعروف أن هناك أسباباً كثيرة قد أسهمت في تأخير فتح المسلمين للمغرب على هذا النحو ، لعل من أبرزها ظروف الدولة الإسلامية نفسها ، كالفتن الطويلة التي كانت تحول بين أولي الأمر من العرب ، وبين إرسال الحملات والبعوث إلى إفريقية ، ولبعد المغرب ، واتساعه ، وتعدد ممالكه واستقلال نواحيه وكراهية البربر للأجانب ، وعداوة الروم للعرب ، وجهل العرب بجغرافيته وبيئاته ، ولأن فتح المغرب لم يأخذ هيئة الفتح المنظم ، وللاضطراب الذي يسود تكوين المغرب السياسي والاجتماعي والطبيعي ، ولغير ذلك من الأسباب[٣].

لكن مع وجود كل هذه الأسباب يعتبر فتح المغرب العربي من أكثر الفتوحات الإسلامية مشقة ، ومن أطولها زمناً[٤]. فما الأسباب الكامنة وراء هذه الحقيقة ؟

---

(١) فتح مصر والمغرب ١٧١ لابن عبد الحكم ، تحقيق عبد المنعم عامر لجنة البيان العربي .

(٢) فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص ٢٦٦ .

(٣) فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس صفحات ٢٦٨ - ٦٩ - ٧٠ ، وانظر تاريخ المغرب الكبير لدبوز ١٠٧/٢ وما بعدها ، وقادة فتح المغرب ٢١٥/١ .

(٤) ادعى محرر مادة البربر بدائرة المعارف الإسلامية عدم معرفته التفصيلات الخاصة بدخول البربر في الإسلام ، وذكر أنه يعلم فقط ارتدادهم عن الإسلام اثنتي عشرة مرة (وقد نقل ذلك عن ابن خلدون ـ المقدمة ٤٤٧/٢ ـ والعبر جـ ٦ ص ٢٠٥، ٢٢٠) ثم أفصح أكثر عن رأيه ، فزعم أن البربر لم يضمروا في قلوبهم الاهتمام الحقيقي بعقائد الدين (راجع الدائرة جـ٣ ص ٥١٤ - ٥١٥ مادة بربر) ولقد قام محرر المادة ـ للأسف ـ ببتر النص الذي نقله عن ابن خلدون وفيه : « ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام ابن نصير » فبدا كلام محرري الدائرة وكأنه حكم عام على إسلام البربر إلى اليوم . والحق أن نشر الإسلام في المغرب قد مشى جنباً إلى جنب مع حركة الفتوحات ، فقد أخذ عقبة معه معلمين وفقهاء ، ونشر حسان الإسلام بين البربر ، وخلط البربر بالمسلمين ، كما ترك موسى بن نصير سبعة عشر فقيهاً بالمغرب ، وأرسل عمر بن عبد العزيز بعثة إلى المغرب تضم عشرة من فقهاء التابعين ، ومن الجدير بالذكر أن =

إن من أهم الأسباب المفسرة لذلك هي خصائص البربر التي عرفوا بها في تاريخهم كله ، قديمه وحديثه ، وواجهوا بها كل غزو جديد ، سواء كان هذا الغزو بيزنطياً ، أو إسلامياً ، أو أوربياً حديثاً .

يمتاز البربري بقوة البنية ، واعتدال المزاج ، وهو ـ من الناحية الخلْقية ـ يمتاز بوجه معتدل وعينين غير ناتئتين وأنف غير مفرطح ولا مستطيل . وتغلب عليه السمرة في الجنوب ، والحمرة المشربة بالبياض في الشمال[1] . ويمتاز من الناحية الخُلُقية بحبه للحرية والديمقراطية ، ولعل حبه الشديد للحرية هو الذي جعل البربري يأبى على الدوام الخضوع للعرب[2] الفاتحين والوافدين من البيزنطيين على المغرب قبل العرب ، فلم يكن أهل المغرب يتركون فرصة للاشتباك مع هؤلاء البيزنطيين إلا انتهزوها[3] . ومن الجلي أن البيزنطيين قد دخلوا المغرب على أنقاض الوندال والقوط الذين قاومهم البربر كذلك ، فليس ما حدث بين البربر والعرب بدعة في تاريخ البربر ، بل هو السمة الغالبة المسيطرة عليهم حتى في تاريخهم الحديث والمعاصر .

إننا نستطيع أن نرجع كثيراً من طبائع البربري إلى حبه للحرية ، وإن البربري ليبالغ في حبه هذا حتى ليخيل لكثيرين أن تاريخ البربر هو تاريخ القسوة والدم والخيانة .

= السير توماس أرنولد قد أوضح دخول البربر في الإسلام على نحو يكاد يكون محايداً (الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٩ وما بعدها وص ٤٣٩ وما بعدها ـ الطبعة الثانية نهضة مصر) على أن جهود البربر في فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري دليل قوي على وجود مد إسلامي قوي بينهم ... وليس من طبيعة الأمور أن يعرف تاريخ محدد لاعتناق الإسلام ، إلا إذا كان هذا الإسلام قد فرض إجبارياً ، وهو الشيء الذي يتنافى مع طبيعة الإسلام نفسه . والجدير بالملاحظة أن ابن خلدون مدح تديّن البربر وحرصهم على الشريعة (العبر ٢٠٨/٦) .

(١) انظر تاريخ المغرب الكبير لدبوز جـ ١ ص ٧٦ .

(٢) المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ١١٧ ، وانظر كارل بروكلمان ، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٣) فتح العرب للمغرب ص ٢٠ د. حسين مؤنس .

على أن هناك مظهراً هاماً من مظاهر علاقة العرب الفاتحين بالبربر لا شك في أنه لعب دوراً كبيراً في تحديد العلاقة بينهما على نحو خاص ، وأدى إلى احتكاك بين الجنسين لم يتوفر للفاتحين للمغرب قبل العرب ، فإن الفاتحين العرب لم يكونوا كالرومان يعيشون في المدن ويؤثرون الساحل على الداخل ، بل كان من بين هؤلاء الفاتحين من ترك الساحل ، وفضَّل الآفاق الفسيحة بداخل بلاد البربر ، ومن ثم أخلى كثير من البربر مكانهم للعرب ، واندفعوا للجنوب[1].

ومن المتوقع أن تكون هذه الخاصة التي اتسم بها الفتح العربي قد أحدثت نوعاً من عدم الاستقرار بالنسبة للبربر ، وكانت عاملاً من عوامل قبولهم لحركات الخزوج على الدولة الإسلامية ، لكن من المؤكد أن أساليب العرب في الاندماج مع البربر ، سواء بالاشتراك في الحروب ضد الوثنية الباقية ، أو في فتح الأندلس ، أو عن طريق المصاهرة ، أو في العادات الاجتماعية ، فضلاً عن وسائل الاندماج التي تحتمها طبيعة الفاتحين المسلمين ، حين أحسَّ المسلمون من سكان البلاد الأصليين أن العرب جاءوا من أرض النبي ، وأن لهم ، أو لكثيرين منهم ، صلة نسب برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ومن هنا أسلموهم القيادة في كثير من الأحوال [2] .

وكانت هذه العوامل التي آتت ثمارها بفعل الاحتكاك المباشر والمعايشة على كل المستويات سبباً في أن يكون الفتح العربي للمغرب فتحاً فريداً حاسماً في تاريخ البربر كله « فقد استولت شعوب كثيرة على شمالي إفريقية ، فكانت لها آثار فيها ، ملكها القرطاجنيون ، والرومان ، والوندال ، والقوط والبيزنطيون ، قبل العرب ، ولم يتبدل أهالي شمالي إفريقية ، مع كثرة فتوح الأجانب لها ، بل حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الأقل[3] ، وذلك باستثناء الفتح الإسلامي الذي يعتبر بحق ــ حداً فاصلاً في تاريخهم الطويل »[4].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٦ ص ١٦٨ للدكتور أحمد شلبي .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٣ .
(٣) حضارة العرب : غوستاف لوبون ص ٣٠١ .
(٤) حضارة العرب ٣٠٥ ، وانظر المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ص ١٢٣ .

إن حبَّ البربر للحرية هو التفسير الذي نرجحه لكل ما حدث من ثوراتهم في ظل العرب . فقد كان دائماً في ميسور أيما داعية يتوجه في دعوته إلى مشاعر البربر القومية ويحملهم على مناهضة السلطة القائمة أن يعتمد على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة[1] .

على أن البربر ـ وهذه أخلاقهم ـ كان يمكن حكمهم بأسلوبين على طرفي نقيض .. فإما بالقسوة البالغة والاستبداد .. وهذا هو الأسلوب الذي حكم به البربر أنفسهم ـ في معظم الأحايين ، وقد كان بلكين بن زيري ـ أبو حماد مؤسس الدولة الحمادية ـ يقول : « لا أمان عندي لبربري ركب فرساً ، أو نتج خيلاً أبداً حيثما سلك من البلاد »[2] . كما كان هذا نفسه الأسلوب الغالب على حماد بن بلكين في حكم دولته . وقد ذكر ابن بسام ـ تعليقاً على سياسة « علي بن حمود » تجاه البربر في قرطبة قوله : « إنه قد تبين أن البرابرة أطوع خلق الله لمن أخافهم »[3] .

وأما الأسلوب الثاني فهو التسامح والعدل ... وبهذا ساسهم العرب بعد الفتح ، وفي ظل سنوات الفتح نفسها ، وكان عدل العرب وتسامحهم من عوامل دخول البربر في الإسلام ، فلا شك أن سياسة التسوية بين العرب والبربر في الفيء ، واستمالة البربر ، وإشراكهم في القيادة ، والعمل على نشر الإسلام بين ذويهم ... تلك السياسة التي نشرها أبو المهاجر دينار ، ورعاها حتى آتت ثمارها ، ثم سهر عليها حسان إلى أن انتهت مدة ولايته[4].

لكن العلاقات الطيبة التي صنعتها السياسة العربية على امتداد القرن الأول الهجري لم تدم طويلاً بين العرب والبربر ، فقد شكا البربر مع مطلع القرن الثاني الهجري من أنهم لم يكافئوا على حسن بلائهم ، ومع أنهم دخلوا في الإسلام ـ الذي

---

(١) الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها ص ١٨٢ لكارل بروكلمان .
(٢) قيام دولة المرابطين ٣٢ (نقلا عن مفاخر البربر جـ ٤) .
(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٧٩ .
(٤) المغرب الإسلامي لقبال موسى ص ٨٦ .

هو دين العدل والمساواة ـ إلا أنهم لم يسوَّ بينهم وبين العرب[1].

ويجلي لنا ابن الأثير سبب انتقاض البربر للحكم العربي ، واستقبالهم لكل خارجي حين يذكر أن أهل إفريقية لم يزالوا من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام . حين دب إليهم أهل العراق فاستثاروهم فشقوا العصا ، وفرقوا بينهم إلى اليوم ، وكانوا يقولون : « لا نخالف الأئمة بما تجني العمال » . فقالوا لهم : « إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك » ، فقالوا : « حتى نخبرهم » . فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : « أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا غنمنا نفلهم ويقول هذا أخلص لجهادكم ، وإذا حاصرنا مدينة قدَّمنا وأخرهم ، ويقول : هذا ازدياد في الأجر ، ومثلنا كفى إخوانه ، ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد ، فاحتملنا ذلك ، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ » فطال عليهم المقام ، ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : « إن سأل أمير المؤمنين فأخبروه » . ثم رجعوا إلى إفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك[2].

فمن الواضح أن سياسة العمال السيئة المخالفة تماماً لتعاليم الإسلام التي اعتنقها وآمن بها هؤلاء البربر .... هذه السياسة التي جعلت هؤلاء العمال يفرضون الجزية على البربر ، ويسوونهم بالكفار تماماً ،[3] بل إن يزيد ابن أبي مسلم – وهو الوالي الظلوم الغشوم الذي يحمل كبر تمرد البربر ، والذي يشبه الحجاج في

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البربر ص ٥٠٤ جـ ٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٩٣ ، وانظر (تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٦٧ ، وقد أورد شكوى أهل المغرب من معاملة يزيد بن أبي مسلم وخسفه لهم دون تعرض للتفاصيل)، وانظر الاستقصاء جـ ١ ص ٩١، ٩٢ .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ٦ ص ٣٧٨ مادة (الجزائر) .

سياسته ـ كان قد اختط سياسة مالية مجحفة ، وأثار نزعات عنصرية ، حين أراد تمييز حراسه البتر بكتابة أسمائهم وأوصافهم ـ كحراس ـ على أيديهم [١]، وأخذ مسلمي البربر بالخراج ، ورد مَنْ مَنّ الله عليهم بالإسلام إلى بلادهم ، وسامهم ما لا يرضى به الله والمسلمون [٢]. كما أن استخفاف الخليفة هشام بالأمر ، وعدم مبادرته إلى معالجته ، هو الذي فتح باب الفتنة في المغرب العربي .

على أن هناك سبباً آخر ينضم إلى هذا السبب ، هو أن البربر قد تم إسلامهم في وقت كانت الحياة الإسلامية قد بدأت تمور فيه بالصراعات المذهبية والسياسية ، وكان البربر ـ لحداثة إسلامهم وصدق سريرتهم ـ يصدقون كل ناعق وافد من المشرق . وسرعان ما يستسلمون للمتكلمين والسياسيين الذين بلغوا في هذا العهد حداً كبيراً من التمكن في فنونهم . فلم يكن دور هؤلاء البربر إلا دور التطبيق والأرض الفراغ لكل ما يعج به الشرق الإسلامي من صراعات .

ومن الحق أن يقال إن كثيراً من هذه الثورات كانت تجري في ظلال الإسلام والعروبة ونطاقها [٣]، كما أن كثيراً من العرب كانوا يندمجون مع البربر في ثوراتهم ، مثلما كان البربر يندمجون مع العرب في جميع ما يقومون به من مثل ذلك [٤]. وفي ظل هذا العرض يبدو تطور العلاقة بين البربر والدولة الإسلامية على أنه تطور له ما يبرره ، حتى وإن كانت نتائجه تخطت حدود أسبابه [٥]. وساعدت ظروف كثيرة على أن يتّسم البربر بكثير من الجفاء والقسوة والخبث والغدر [٦]. وإن كنا لن نعدم صوراً من هذه القسوة في كثير من تاريخ معظم الشعوب .

---

(١) انظر الفتوح لابن عبد الحكم : ٢٨٨ والكامل ١٠١/٥ ، وانظر العبر ٦ – ٢٢١ ، والمغرب الإسلامي ص ١٣٨ ، والعرب والعروبة دروزة ٣٢٥/٣ .

(٢) الخراج والنظم المالية د. ضياء الدين الريس ص ٢٤٨ .

(٣) العرب والعروبة جـ٣ ص ٣٢٥ .

(٤) المرجع السابق ٣٢٨/٣ ، ٣٢٩ .

(٥) قصدت بهذا العرض دحض التشويه الذي زخرت به دائرة المعارف الإسلامية بخصوص البربر وعلاقتهم بالإسلام (انظر مادة البربر جـ٣ ص ٥٠٣ وما بعدها) .

(٦) انظر في ذلك الإحاطة في أخبار غرناطة المجلد الأول ص ١٤٦، ٤٤٦ ، وانظر البيان=

ولقد كان للبربر - إلى جانب هذا - فضائل إنسانية نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم ... من عز الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمة والوسائل ، والوفاء بالعهد والصبر على المكاره والثبات في الشدائد وحسن الملكة ، والإغضاء عن العيوب والتجافي عند الانتقام ، ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكلٍّ وكسب المعدوم وقري الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة وإباء الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه[1].

وقد يكون ثمة من الحوادث التاريخية للبربر ما يناقض بعض هذه الخلال . لكن هذه الحوادث لا تبلغ إلا مبلغ الشذوذ الذي لا ينفي وجود القاعدة ، بل يثبتها .

٣ - الجزائر الإسلامية :

لم يبدأ الفتح الإسلامي للمغرب يأخذ صورة الثبات والاستقرار إلا باختطاط عقبة بن نافع لقاعدة القيروان[2] عام ٥٠ هـ[3] (٦٧١ م) . ويعتبر هذا التاريخ بداية التفكير الجدي في فتح المغرب الأوسط ، والدخول بالإسلام إلى مجاهل المغربين الأوسط والأقصى ، بدلاً من التوقف عند شواطئ إفريقية القريبة من مصر ، والتي كانت تعتمد عليها سياسة الفاتحين العرب في مجرد الكرّ والفر والاستطلاع والحصول على المعلومات - نتيجة نكث البربر وارتدادهم - إلى

= المغرب جـ ١/ص٢٢٦ ، وانظر مروج الذهب المسعودي جـ ٢ ص ٣٦ وقد جعلهم المسعودي من الأمم المتوحشة في موضع آخر (٢/٩٤ مروج الذهب) .

(١) العبر جـ ٦ ص ٢٠٧ .

(٢) القيروان معناها : مدينة أو معسكر أو مسلحة (جماعة مسلحون) وهو لفظ فارسي معرب أصله كروان أو كريان بمعنى قافلة وقد استعملها ابن عبد الحكم بمعنى مجتمع العسكر (فتوح البلدان للبلاذري ٢٤٧، ٢٦٤) ومن معانيه معظم العسكر ومحط أثقال الجيش إلخ (قادة فتح المغرب ١٠٣/١) محمود شيت خطاب .

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ٢٦٨ .

ذلك الحين[1]. ولكن ظروفاً سياسية حالت بين عقبة وبين الاستمرار في إفريقية ، فتسلم الأمر بعده أبو المهاجر دينار سنة ٥٥ هـ (٦٧٦ م) وهو مولى « مسلمة بن مخلد » والي مصر[2].

وقد استفاد أبو المهاجر من أسس الاستراتيجية الجديدة التي بدأها عقبة ببناء القيروان ، فأسس بدوره مدينة جديدة أكثر قرباً من البربر ، وسماها تيكروان[3]... وسار بحملاته غرباً إلى المغرب الأوسط أو بلاد الجزائر ، وتمكن من الانتصار على عمالة قسنطينة سنة ٥٩ هـ ، وجعل مركز قيادته العليا مدينة « ميلة » فابتنى بها دار الإمارة ومكث بها سنتين . وقد حظيت الجزائر بذلك بشرف إمارة إفريقية الإسلامية في هذه الفترة . وكان أبو المهاجر دينار بذلك أول أمير مسلم وطئت خيله الجزائر (المغرب الأوسط)[4] فنشر فيه الإسلام ، ووصل البربر بالعرب ، وفتح قلوب البربر للعرب بلينه وكياسته وحسن تأتّيه[5]. وقد تمكن أبو المهاجر من التقدم في الجزائر حتى تلمسان[6].

وما أن عاد عقبة بن نافع للمرة الثانية إلى المغرب على عهد يزيد بن معاوية الذي رد له اعتباره حتى قضى على مقاومة قبائل البرانس في المغرب الأوسط ، واستفتح حصون الفرنجة مثل باغاية ولميس ، ولقيه ملوك البربر بالزاب وتاهرت

---

(١) انظر الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٥ ، وانظر المغرب الإسلامي لقبال موسى ص ٤١ وما بعدها ، وانظر دائرة المعارف جـ ٦ ص ٣٧٧ مادة الجزائر ، وقيام دولة المرابطين ص ٥٩ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ٢٧٠ .

(٣) وردت بأسماء مختلفة ، دكرور ، تكرور ، تاكرونة ، تاكروان ، وانظر المغرب الإسلامي ص ٤٣ .

(٤) تاريخ الجزائر العام جـ ١ ص ١٦٩ ، والمغرب الإسلامي ص ٤٤ ، وقادة فتح المغرب ١٤١/١ .

(٥) المغرب الكبير لدبوز ٣٣/٢ .

(٦) فتح العرب للمغرب ١٦٤ .

ففضَّهم جمعاً بعد جمع[1] ، وتوغل في الجزائر غرباً حتى وصل إلى المغرب الأقصى [2].

ونحن لا نستطيع تفضيل دور أي من عقبة وأبي المهاجر في فتح الجزائر ، ونعتبرهما معاً ناشري لواء الإسلام في هذا البلد العربي الإسلامي ، ولقد غلبت على أولهما نزعة الحماس الصوفي ، وغلبت على ثانيهما نزعة الدهاء السياسي ، وقد استشهدا معاً في موقعة تهوذة [3]من أرض الزاب على يد كسيلة أواخر سنة ٦٣ هـ [4]، وانتهت رحلة حياتهما الخصبة بخاتمة واحدة وإن اختلفت بينهما الوسائل والآراء .

لقد تطلب الأمر من زهير بن قيس البلوي ـ الذي أرسله عبد العزيز بن مروان والي مصر لعبد الملك بن مروان ـ للثأر من يوم تهودة (تهوذة) جهوداً عظيمة نجح بعدها في « قتل كسيلة ومن لا يحصى من البربر »[5] في موقعة ممس (ممسن) جنوب القيروان . وقد أمعن العرب في تعقب البربر المهزومين حتى وادي ملوية بل أوغلوا حتى أقصى « طنجة » وفتحوا « شقنبارية » وقلاعاً أخرى ، فكأنّ زهير بن قيس قد أخضع البرانس وقتل كسيلة وفتح الطريق للإسلام[6] ليتجه بعد ذلك إلى المغربين الأوسط والأقصى .

وكما نجح زهير في القضاء على كسيلة ، فقد نجح خلفه حسان بن النعمان (٧٣-٧٨ هـ) في القضاء على أشهر الثائرين البربر داهية بنت تاينت[7](الكاهنة)

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٢١٧ .

(٢) رياض النفوس ٢٣ ، قيام دولة المرابطين ص ٦٠ .

(٣) تهوذة اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم (معجم البلدان ٤٣٨/٢).

(٤) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٦٩ ، ومعالم الإيمان للدباغ نشر مكتبة الخانجي سنة ٥٤/١/١٩٦٨ ، وإتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف نشر تونس ١٩٦٣ ، وانظر العبر جـ ٦ ص ٢١٧ والمغرب الكبير لدبوز ٤٩/٢ .

(٥) العبر جـ ٦ ص ٢١٧ وانظر الكامل ١٠٩/٤ وانظر قيام دولة المرابطين ص ٦٢ .

(٦) معالم الإيمان للدباغ ٥٨/١ وقيام دولة المرابطين ٦٣ دكتور حسن محمود .

(٧) انظر عن الكاهنة : فتوح مصر والمغرب ابن عبد الحكم ٢٧٠ ، ومعالم الإيمان ٦٤/١ وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذاري ٢٥/١ ، وتاريخ الجزائر العام ١٩٧/١ .

ـ بعد أن هزمته أول الأمر ـ واقتضى تحقيق هذه الغاية منه خمس سنوات[1]. وكان حسان ذكياً يفهم طبائع الأمور ، فلم يقف عند حدود النصر ، وإنما دمج بين البربر والعرب ، وأدخل عدداً كبيراً منهم في الجيش الإسلامي ، وعرَّب الدواوين ووزَّع الأراضي البيزنطية على صغار الفلاحين ، ونظم الخراج على البلاد[2].

وقد سار الولاة الذين جاءوا بعد حسان على نفس طريقه ... هكذا فعل موسى بن نصير الذي كان مصلحاً وسياسياً في الوقت نفسه ، إلى جانب إيغاله في الفتوح حتى وادي درعة وبلاد السوس[3]، من المغرب الأقصى . واستمر الحال على هذا النحو إلى سنة ١٢٣ هـ حين انبعثت الثورات البربرية من جديد ، ليس بسبب ارتدادهم عن الإسلام هذه المرة ، وإنما باسم مبادئ الإسلام نفسه ، في وجه عمال السوء الذين فرقوا ـ في المعاملة والامتيازات ـ بين العرب والبربر ـ وأساءوا السيرة ، وأشعلوا الثورة في القلوب قبل أن تشتعل في حركات عملية .

وقد حاول غير واحد من الولاة والطامحين العرب العودة بالمغرب إلى وحدته تحت الراية العربية ، كحنظلة بن صفوان ، وعبد الرحمن بن حبيب ، ومحمد بن الأشعث ، والأغلب بن سالم ، وعمر بن جفص[4]. لكن كل ذلك لم يؤد إلى عودة الأمور إلى طبيعتها ، فقد «استشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية ، وتولى كبر ذلك صنهاجة »[5]. وتكشفت الوضعية الجديدة في المغرب عن قيام دويلات مستقلة يحكمها عرب خارجيون وعلويون وعباسيون ، وانقسمت الجزائر بحدودها المعروفة اليوم بين دول ثلاث كبرى : دولة الرستميين الإباضية التي نجح

---

(١) ابن خلدون ٢١٨/٦ ، ودائرة المعارف ٣٧٨/٦ مادة الجزائر ، وأعمال الأعلام ٣/٣ حاشية ، وفتوح البلدان للبلاذري ٢٧٠ .

(٢) أعمال الأعلام جـ ٣ ص ٤ (حاشية) ، تاريخ الجزائر العام جـ ١ ص ١٨٣ ، والمغرب الإسلامي ص ٨٥ .

(٣) قيام دولة المرابطين ص ٦٥ .

(٤) أعمال الأعلام جـ ٦/٣، ٧ .

(٥) العبر ٢٢٣/٦ .

عبد الرحمن بن رستم في إقامتها في تاهرت (١٦٠-٢٩٦ هـ)[١]ـ (٧٧٦-٩٠٩ م).
وقد حكمت الجزائر من تلول منداس شمالاً إلى قرب غليزان ، ومن غليزان إلى فرندة ، ثم ينعطف خطها شرقي جبل عمور إلى ميزاب وورجلة وجنوباً إلى الأغواط (باب الصحراء الجزائرية) أي أن هذه الدولة قد استولت على جميع الزاب الجزائري الحاضر ما عدا الزاب شرقاً (قسنطينة) وتلمسان غرباً"[٢].

وأما القطاع الشمالي الشرقي ممثلاً في مدينة وهران ونهر شلف والقطاع الجنوبي ممثلاً في ناحية معسكر إلى جبال مديونة ... أي من أرض الريف غرباً حتى أرض الحضنة من قسنطينة فقد كانا من نصيب الدولة الثانية التي ظهرت على يد إدريس العلوي الشيعي مؤسس دولة الأدارسة (١٧٢-٣١١ هـ) - (٧٨٨-٩٢٣ م)[٣].
وأما القطاع الممتدّ من سكيكدة شرقاً إلى وطن زواوة غرباً ، ومن ميلة وسطيف شمالاً إلى شط الجريد جنوباً .... أي القطاع المكون لعمالة قسنطينة الحالية ـ مع قليل من الاختلاف ـ فقد كان من نصيب الدولة الثالثة ، وهي دولة الأغالبة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب السني العباسي (١٨٤-٢٩٦هـ) - (٨٠٠-٩٠٩م)[٤].

* * *

لكننا نستطيع اعتبار الدولة الرستمية التيهارتية هي الممثلة الأولى للجزائر سياسياً وحضارياً خلال هذه الفترة نظراً لوقوع معظم الجزائر تحت يدها ـ كما ذكرنا .

ولقد عاشت هذه الدولة قرابة قرن ونصف ، استهلتها ـ كشأن فترات قيام الدول ـ بالاضطرابات والصراعات ، ثم بعد فترة وجيزة ، ركدت ريح الخوارج

---

(١) العبر ٦/٢٢٥ .
(٢) تاريخ الجزائر العام جـ ١ ص ٢٢١ ، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث جـ ٢ ص ٥٩ .
(٣) تاريخ الجزائر العام للجيلالي جـ ١ ص ٢٤٧ ، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي جـ ٢ ص ٨٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٦/٣٧٨ .
(٤) تاريخ الجزائر العام للجيلالي جـ ١ ص ٢٨٥ ، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي جـ ٢ ص ١٠٤ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٦/٣٧٨ .

وتداعت بدْعتهم إلى الاضمحلال ، ووادع « الرستميون » سنة ١٧١ هـ ، « صاحب القيروان » روح بن حاتم ، وحافظوا على صلات الود مع خوارج المشرق وجبل نفوسة وسجلماسة ، وانحصرت شوكة البربر ، واستكانوا للغلب ، وأطاعوا للدين [١]. وتمتع المغرب ـ في ظل هذا السلام اليائس بين القوى الحاكمة فيه ـ بفترة هادئة نسبياً من تاريخه الطويل .

* * *

ولقد قدر لهذا السلام الظاهري الذي يطفو فوق سطح المغرب أن تتداعى أركانه ـ جملة ـ على يد الفاطميين الذين تمكن داعيتهم أبو عبد الله الحسين ، وإمامهم أبو محمد عبد الله بن جعفر المهدي من إقامة دولة الفاطميين بعد الإطاحة بحكم الأغالبة وطرد آخر أمرائهم ، والإطاحة بمملكتي تيهرت وسجلماسة واستئصال شأفة الصفرية والنكارية [٢]. وتم مبايعة عبد الله المهدي أول ملوك الشيعة برقادة يوم الجمعة الحادي والعشرين لربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين [٣].

وكان أنصار الدولة العبيدية من المشارقة والكتاميين قد حرصوا من أول الأمر على التقرب إلى صنهاجة ، وتمنيتها بالنصفة من زناتة ، فأيدتهم صنهاجة من أول الأمر [٤]، ولا تكاد تقوم دولة الفاطميين حتى نجد زيري بن مناد الصنهاجي موالياً لملوك الشيعة ، وبتحريضه دوخت جيوش الشيعة المغرب الأقصى إلى بحر السوس ، وكانت لزيري منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد النكار مع

---

(١) العبر جـ٦/٢٢٨ ، والمغرب الإسلامي ص ٢٤١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٣٧٨ .

(٣) أعمال الأعلام جـ٣ ص ٥٠ وقد علق ابن خلدون على هذا الحادث بقوله : فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بإفريقية (العبر ٦/٢٢٩) ولا ندري هل يعتبر ابن خلدون الفاطميين غير عرب ؟

(٤) رياض النفوس ١/١٥،١٦ (مقدمة) .

إسماعيل المنصور ثالث ملوكهم[1] فأبلى وقومه أحسن البلاء[2]. وانعقد بهذا حلف سياسي أدبي بين صنهاجة والفاطميين كان من نتائجه تولية المعز لدين الله رابع ملوكهم لبلكين بن زيري زعيم صنهاجة ـ بعد أبيه ـ أمر المغرب العربي سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م).

٤ ـ ظهور الدول البربرية المستقلة :

لم يقدر للبربر أن يظهروا على مسرح التاريخ المغربي كدول ذات كيانات سياسية مستقلة إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وإن كانت النزعة القومية قد أبرزت وجودها في غير موقف قبل هذا التاريخ ... فإلى جانب الثورات المستمرة التي لم يكفّ البربر عن القيام بها ضد سياسة ـ الولاة ـ العرب الذين جعلوا من أنفسهم أرستقراطية عسكرية[3] ، إلى جانب هذا فقد دعمت النزعة البربرية حركات فكرية يتبناها دعاة بربريون ، بلغ الأمر أن ألّف مدّع للنبوة منهم هو « صالح البرغواطي » الذي ينتمي إلى برغواطة إحدى قبائل مصمودة ، قرآناً بالبربرية دعا إليه الناس[4].

والشيء الجلي أن انتقال الفاطميين إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ[5] ، كان هو

---

(١) ذكر صاحب أعمال الأعلام أنه ثاني ملوك الفاطميين والحق أنه ثالث ملوكهم ولم ينتبه المحققان الكريمان لهذا ، ويبدو أنه سهو .

(٢) أعمال الأعلام ج ٣ ص ٦٤،٦٥ ، وانظر العبر ٣١٣/٦ .

(٣) مقدمة رياض النفوس للمالكي دكتور حسين مؤنس ص ٧ .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب ٥٠٠ ، والاستبصار ص ١٩٧ ، وما بعدها ، وأعمال الأعلام ١٩٧/٣ ، وكتاب البربر للكعاك ص ٨٨ .

(٥) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية (ج ١١ ص ٢١،٢٢ مادة زيري) أن المعز غادر إفريقية سنة ٣٦٣ هـ والصحيح الذي أشارت إليه المصادر التي وقعت في أيدينا أنه غادرها أواخر ذي الحجة سنة ٣٦١ هـ ووصل مصر سنة ٣٦٢ ولم نجد التاريخ الذي ذكرته الدائرة ، غير أن ناصر خسرو ذكر أن جيش المعز عبر النيل سنة ٣٦٣ . لكنه تناقض مع نفسه فذكر عرضا أن دخول المعز كان سنة ٣٦١ هـ ، والصحيح أن جيوش المعز دخلت القاهرة سنة ٣٥٨ ، وأن المعزّ دخلها سنة ٣٦٢ (٤٧٦ سفرنامة) ، وانظر وفيات الأعيان ٣١٤/٤ .

الحدث الذي أدّى إلى انتهاء الحكم العربي في بلدان المغرب ، وحلت محله دول بربرية عربية المنزع[1]، وكان فاتحة هذا العهد البربري بلقين (بلكين) ابن زيري بن مناد - الصنهاجي - كما ذكرنا - حين استخلفه المعز على إفريقيا والمغرب (المغربين الأوسط والأدنى) وجعل خاتمه في يده[2].

ويصور لنا غير واحد من المؤرخين هذا الحدث الضخم بأسلوب يكاد يكون مكروراً ، فابن خلدون ، وابن الخطيب ، وابن الأثير ، وابن العبري ، وابن خلكان ، وابن ظافر ، وغيرهم من المتأخرين والمتقدمين ... يكادون يتفقون على أن زيري وولده بلكين كانت لهما يد كبيرة في تثبيت دعائم الفاطميين ، وفي القضاء على خصومهم كأبي يزيد الخارجي الثائر ، وبني يفرن الزناتيين آل أبي يزيد ، والثائرين في المغرب الأقصى ، وفي مسيلة من الأمويين والخارجيين والبرابرة الموالية لهؤلاء أو أولئك . فلما صرف المعزّ اهتمامه إلى الرحلة للمشرق وإلى من يخلفه وراء ظهره في المغرب ، فاز بلكين بن زيري زعيم صنهاجة باختياره لهذه الخلافة[3]، وكان استخلافه على إفريقية يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٣٦١ هـ[4].

وبعد أن عقد المعز لزيري ، ومنحه أعطيات سخية ، أوصاه بثلاث : « ألا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا السيف عن البربر ، وألا يولي أحداً من إخوانه وبني عمه » . وكان هذا آخر عهد المعز والفاطميين بالمغرب . وسار المعز يريد

---

(١) مراكز الثقافة في المغرب للكعاك ص ٢٥ ، ومقدمة رياض النفوس ص ٧ ، والإسلام هنري ماسيه ٨٢ .

(٢) أعمال الأعلام ٥٩/٣ ، والحلة السيراء ٣٩٣/٢ ، ومقدمة رياض النفوس ص ١٩ ، والجزائر في مرآة التاريخ ، عبد الله شريط ٦٦ ، وانظر كتاب الجزائر أحمد توفيق المدني ص ٢٧ .

(٣) العبر جـ ٦ ص ٣١٧ ، والإحاطة من ٤٣٩ ، وخطط المقريزي ١٦٥/٢ ومقدمة رياض النفوس ص ١٩ ، وأعمال الأعلام ٦٥/٣ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي جـ ١٣٢/٢ ، والجزائر في مرآة التاريخ للأستاذ عبد الله شريط ص ٦٦ وغيرها .

(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٧ .

الديار المصرية فاستوسق ليوسف أبي الفتوح (بلكين) بن زيري ملك كبير . وكان هذا الحدث بداية قيام الدول البربرية المستقلة التي استمرت إلى قيام الدولة الموحدية ـ البربرية ـ الجامعة .

* * *

لقد شهدت الأعوام التالية لسنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ـ أي لتاريخ خروج الفاطميين من المغرب ـ نوعاً من الوحدة يقترب من تلك الوحدة التي تحققت على يد الفاطميين ، ذلك أن صنهاجة التي كان لها أكبر فضل في تحقيق هذه الوحدة في عهد الفاطميين ، هي التي ظلت تمسك بزمام الأمور .

وتكاد تكون فترة حكم بلكين بن زيري (٣٦٢-٣٧٣ هـ) (٩٧٢-٩٨٣ م) ـ التي لم يرفع فيها السيف عن البربر ـ استمراراً لحكم الدولة الفاطمية ، لكن بموت بلكين وتولية ابنه المنصور أبي الفتوح بدأ الصراع الداخلي بين البربر يدخل طور البروز .

لقد كان بلكين قد نجح في القضاء على محاولة زناتة ـ بالمغرب الأقصى ـ بقيادة زيري بن عطية المغراوي الزناتي تكوين دولة في فارس وما حولها تابعة للأمويين بالأندلس ، كما أنه قد تمكن من الاستيلاء على فاس وسجلماسة ، وما جاورهما وطرد عمال بني أمية[1] ، كما أن بلكين هذا قد نجح سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) في طرد أمراء مغراوة كمحمد بن الخير ، ومقاتل وزيري ابني عطية وخزرون بن فلفول من المغرب الأوسط كذلك[2]. وقد اضطر هؤلاء الزناتيون المطاردون إلى أن يعملوا كتابعين للمنصور بن أبي عامر والي الأندلس القوي ، ويستمدوا من قوته قوة . وكان نصيبهم أن عقد المنصور العامريّ سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) لزيري المغراوي على فاس وعلى جميع بلاد المغرب[3] ، التي تحت يده ، ولئن كانت العلاقة قد ساءت بين العامريين في الأندلس وبين زيري

---

(١) المؤنس ص ٧٦ لابن أبي دينار .

(٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٥ .

(٣) أعمال الأعلام ١٥٧/٣ ، وانظر صبح الأعش[illegible] ص ١٨٦ .

المغراوي سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م)[١]، وانتهت بهزيمة زيري المغراوي سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) أمام جيوش العامريين ، فإن زيري المغراوي قد استطاع تعويض الأرض التي فقدها عن طريق التوغل في أرض صنهاجة في المغرب الأوسط فدخل تاهرت[٢]، وتنس وتلمسان وشلف ، وعندما مات سنة ٣٩١ (١٠٠١ م) نجح ولده وخليفته المعز في أن يعيد علاقة مغراوة الحسنة بالأمويين ، فولاه المظفر ابن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٧ (١٠٠٦ م) على فاس[٣]ـ إلى جانب ما كان تحت يده من أرض المغرب الأوسط ـ فكان هذا هو التمكين الحقيقي لدولة مغراوة الزناتية[٤]التي استمرت قرناً من الزمان ، ولم تنته إلا على يد المرابطين سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) .

وبقيام هذه الدولة ، والدول الأخرى الزناتية الصغيرة المجاورة لها ، كدولة بني يفرن في سلا ، التي يفصلها عن مدينة الرباط وادي أبي الرقراق[٥]ودولة بني تجين الذين ملكوا وانشرين وشرشال وشلف إلى تلمسان[٦]ودولة بني توالي في فازار ومعدن عوام وقلعة المهدي بن توالي[٧]... بقيام هذه الدويلات تكون حاجز زناتي يفصل بين صنهاجة التي تظهر الولاء للفاطميين في المغربين الأوسط والأدنى ، وبين الأمويين في الأندلس ، ومثلت هذه الدول الزناتية البترية مظهراً من مظاهر بروز الدور البربري على مسرح التاريخ المغربي .

والحق أن النجاح الذي حققته زناتة البتر ، لم يكن ليتم على هذا النحو ، لولا الصراع الداخلي الذي دب بين أبناء بلكين بن زيري الصنهاجي خليفة

---

(١) المرجع السابق ١٥٨ ، وانظر في التاريخ العباسي والأندلسي (د . أحمد مختار العبادي ص ٤٤٦ ، ٤٤٧) .

(٢) تمكن حماد من طرده منها حتى تلمسان بعد سنوات قليلة في عهد باديس .

(٣) انظر صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٦ ، وانظر في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٥٠ .

(٤) البيان المغرب ٣٦٣/١ ، وأعمال الأعلام ١٦٢/٣ ، وانظر قيام دولة المرابطين ٨٣ .

(٥) أعمال الأعلام ٣/ص١٦٤ .

(٦) أعمال الأعلام ٣/ص ١٦٧ .

(٧) أعمال الأعلام ١٦٨/٣ .

الفاطميين في المغرب ... لقد ولي الأمر بعد بلكين ابنه « المنصور » ... سلم له فيه إخوته حماد وأبو البهار ويطوفت . وبويع بالإمارة في مسجد القيروان ، وكانت بينه وبين زناتة حروب عظيمة ، وكان أخواه حماد ويطوفت يتداولان عمل أشير ، وعمه أبو البهار بتاهرت . لكن في عهد المنصور هذا ظهرت جلية بوادر الانشقاق الداخلي لدولة بني زيري ـ فقد خالف أبو البهار بن زيري والي تاهرت أخاه المنصور سنة ٣٧٩ هـ (٩٩٩ م)[١]. ولئن كان المنصور قد نجح في القضاء على حركة أخيه ونجح في احتوائه بإحسانه ومعروفه[٢] ، فإن زناتة كانت لا تزال ترقب الأحداث منتظرة أية فرصة مواتية ، وقد اضطر المنصور إلى الدخول معها في صراع طويل استعان فيه بأخيه ذي الخبرة والشجاعة والجرأة على سفك الدماء « حماد بن بلكين بن زيري » .

ومن خلال الحروب مع زناتة استطاع حماد أن يبرز نفسه كقائد لا تستغني عنه دولة صنهاجة الزيرية التي نجحت في عهد المنصور في أن تستولي على فاس وسجلماسة عام ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) من زناتة[٣] ، ولذا كان حماد أبرز الأسماء التي وجدها أمامه باديس الذي تولى الأمر بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ليستعين بها في حروبه التي أصبحت ـ وكأنها ميراث تقليدي ـ مع زناتة البتر الموالين لبني أمية في الأندلس . على أن باديس بن المنصور قد واجه أيضاً ـ خروج أعمام أبيه عليه زاوي وجلالة وماكسن[٤] ، وتكدست الأطماع فيه لصغر سنه فذهب بعض أعمامه وأعمام أبيه إلى استضعافه ـ كما ذكرنا ـ .

وقد كان حماد داهية فاستثمر كل هذه الظروف لحسابه ، وعندما أراد

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٣٢١ .
(٢) نفس المكان السابق .
(٣) دائرة المعارف ١١٤/٤ مادة بلكين .
(٤) العبر ٣٢٢/٦ والإحاطة ٤٣٩ وقد ذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام ٧٨/٣ أن هؤلاء أعمام المنصور وأنهم خالفوا عليه ، والحق أنهم ـ كما ذكر ابن الخطيب نفسه في الإحاطة أنهم إخوة للمنصور ولحماد ، وأنهم إنما خرجوا على باديس بن المنصور .

باديس ـ إنهاضه لحرب زناتة « اشترط عليه شروطاً كثيرة تشطط فيها حماد »[1].

وبهذا العقد السياسي بين باديس وعمه حماد .... تم التوصل إلى البناء القانوني النظري ـ للدولة الحمادية (٣٩٥-٥٤٧ هـ) (١٠٠٤-١١٥٢ م) ، وتغيرت الوضعية السياسية للمغرب العربي ـ في هذه الفترة من تاريخه ـ على هذا النحو المذكور .

(١) أعمال الأعلام جـ٣ ص ٦٩ – ٧٠ ، وانظر العبر جـ٦ ص ٣٤٩ .

البَابُ الأول

قيَامُ الدّولَــة الحَــمَّاديّة

الفصل الأول : حماد وجهوده في تأسيس الدولة
الفصل الثاني : حدود الدولة الحمادية وتطورها

الفَصْــل الأول

حمّاد وَجهُوده في تأسيس الدّولة

١ – مدخل
٢ – نسب حماد
٣ – شخصية حماد
٤ – دور التبعية في حياة حماد
٥ – العقد السياسي بين حماد وباديس
٦ – الدور العملي في بناء الدولة
٧ – الصلح وإعلان قيام الدولة
٨ – تقييم هذا الدور الحمادي

١ – مدخل :

يعتبر التاريخ الرسمي والعملي لقيام الدولة الحمادية هو عام ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م).
لكن الفترة الممتدة من سنة ٣٩٥ إلى ٤٠٨ هـ (١٠٠٤–١٠١٨ م) كانت الفترة الحاسمة التي تمخض عنها قيام الدولة .

ولقداستطاع حماد بوسائل متعددة في هذه الفترة أن يبرز نفسه ـ من خلال الأحداث ـ كرجل جدير بقيادة دولة ينفرد بها وحده ، وتكون لأبنائه من بعده .

ولقد فرضت شخصيته على دولة الزيريين (المنصور وأبنائه من بعده) أن يستعينوا به في القضاء على مشاكلهم الداخلية والخارجية .

وعندما حانت الفرصة ، وكان ذلك سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) ، وبتأثير التحديات التي كان يقابلها الزيريون ، استطاع أن يفرض شروط معاهدة تقضي بتأسيس دولة له ولبنيه .

ولما حاول الزيريون الإخلال بشروط هذه المعاهدة وإخضاعه لهم ، وسحب هذا الحق منه ... قامت معارك شديدة بينه وبينهم ... وانتهى الأمر ـ كما سنعرض ـ بإقرار المعاهدة ... وقيام الدولة الحمادية .

* * *

وفي هذا الفصل ـ من الباب الأول ـ سنتناول هذه الفترة التي انتهت بإعلان قيام الدولة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ونمهد لذلك بتناول شخصية مؤسس الدولة ، بكل ما تمثله هذه الشخصية من خصائص الإنسان البربري الباحث عن السلطة ... وسنقسم هذه الفترة وفقاً للتقسيم التاريخي الذي فرض نفسه ... منذ برز على مسرح الأحداث حماد ، إلى أن فرض نفسه كشخصية كبرى من شخصيات الدولة الزيرية ... وإلى أن نجح في الحصول على المعاهدة التي تقضي بإنشاء دولته ... ثم ننتهي ـ في هذا الفصل ـ بتناول فترة الصراع بينه وبين الزيريين من أجل

فرض شروط المعاهدة إلى أن تم الصلح ، وأعلن قيام الدولة الحمادية كدولة متميزة ، لها حدودها المادية وشخصيتها المعنوية .

إن هذه الفترة ـ على الرغم من أنها لا تدخل مباشرة في تاريخ الدولة الحمادية .. كانت في تصورنا أهم فترة في تاريخ الدولة ، وبدونها ، وبدون أدوار الصراع التي حملتها سنواتها ، والجهود التي بذلها حماد خلالها .

بدون هذا كله كان في الإمكان ألا تقوم في التاريخ دولة تحمل اسم الدولة الحمادية .

٢ - نسب حماد :

يرجع نسب حماد بن بلكين ـ مؤسس الدولة الحمادية ـ إلى زيري بن مناد ابن منقوش بن (صنهاج) الأصغر بن صنهاج الأكبر .

وقبيلة صنهاجة[١] نسبة إلى صنهاج ، وهو أحد أبناء برنس بن برّ بن مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح[٢] . وقد نشأ خلاف كبير بين المؤرخين والنسابة حول أصل صنهاجة ، وهل هي عربية من حمير كما يرى ابن الكلبي والطبري[٣] ، وابن خلكان[٤] ، وابن الأثير[٥] ، وابن تغزي بردى[٦] وغيرهم من المتأخرين[٧] .... وعند هؤلاء أن صنهاجة ـ بهذا ـ ترجع إلى صنهاج ابن المثنى بن المنصور بن مصباح بن عيصاب بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر ، من سبأ[٨] . ويرى

---

(١) تنطق بضم الصاد ، وكسرها وسكون النون وفتح الهاء وبعد الألف جيم نسبة إلى صنهاج ، وقال ابن دريد هي بضم الصاد (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٤١ - وقد أخذ ذلك عن صاحب شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٧٩) .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٤٩٨ ، العبر جـ ٦ ص ١٠٩ .

(٣) انظر العبر ٣٠٩/٦ .

(٤) وفيات الأعيان جـ ٢٤٠/١ ، ٢٧١ .

(٥) الكامل ٦٢٣/٨ (حيث ذكر أن بلكين بن زيري حميري) .

(٦) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٥٤ ، فقد جعل المعز بن باديس حميريا .

(٧) دكتور حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي جـ ٤ ص ١١٥ ، ٢٩ .

(٨) العبر ٣١٠/٦ .

بعضهم أنها قبيلة عربية لكنها ترجع إلى قيس عيلان[1] ... ويرى فريق آخر كابن حزم[2] وابن خلدون[3] وغيرهما من المتأخرين[4] أنها قبيلة بربرية وليست عربية .... وابن حزم يعلل رفضه لنسبتها العربية بأن النسابين لم يعلموا لقيس عيلان ابناً اسمه برّ أصلاً ، وبأنه لم يكن لحمير طريق إلى بلاد البربر[5].

وأكاد أميل إلى الرأي الأخير على الرغم من وجود هجرات فينيقية سامية دخلت بلاد البربر قبل الإسلام ... لكن الشيء الذي لم يمكن إثباته بعد ، هو : لماذا نفترض أن صنهاجة وكتامة هما اللذان وفدا إلى المغرب ؟ ولماذا لا تكون هذه الهجرات جماعات سامية متناثرة اختلطت بالدم البربري كله ، ولم تحتفظ لنفسها باستقلال جنسي معين ـ وهو الشيء الذي نراه ـ . ويرى الدكتور حسن محمود بحق ـ في هذه النسبة العربية التي كانت صنهاجة تشيعها حول نفسها ، رغبة من صنهاجة في أن تقف على قدم المساواة مع القبائل العربية حتى تستطيع

---

(١) حكى هذا ابن حزم في الجمهرة ص ٤٩٥ ، وابن خلدون في العبر ٣١٠/٦ ، وانظر المؤنس ص ٧٣ .

(٢) الجمهرة ٤٩٥ .

(٣) العبر ١٩٢/٦ ، ٣١٠ ومن الغريب أن ينسب الدكتور حسن إبراهيم إلى ابن خلدون أنه أيّد حميرية صنهاجة مع أن ابن خلدون يقول صراحة بعد أن يتحدث عن الخلاف في نسب صنهاجة وكتامة : (وعندي أنهم من إخوانهم أي من البربر) انظر العبر ١٩٢/٦ وكتعليقه على الذين نسبوا صنهاجة إلى حمير بقوله : (وليس كما ذكر) انظر العبر ٣١٠/٦ وقد اضطربت عبارة الدكتور سعد زغلول (تاريخ المغرب العربي ٣١) فرأى أولاً أن ابن خلدون يكاد يميل إلى اعتبار صنهاجة من اليمن ، ثم عاد ثانية فرأى أنه يتمسك بكونها من البربر ، وقد استعمل الدكتوران حسن إبراهيم وسعد زغلول عبارة (يكاد النسابة يتفقون على أنها من حمير) والحق أن أكثر النسابة يرون أنها من البربر .

(٤) السلاوي : الاستقصا ٣/٢ ، ولقبال موسى : المغرب الإسلامي ١٧ ، والدكتور حسن أحمد محمود قيام دولة المرابطين ٣٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٣٥٩/١٤ .

(٥) الجمهرة ٤٩٥ ، وقد ذهب إلى مثل هذا البلاذري في فتوح البلدان ٢٦٥ .

المشاركة في الحياة السياسية الجديدة ، التي أظلت المغرب بمجيء العرب[1]. ويؤكد الدكتور قوله بما ذهب إليه « جوتيه وفورنل » من أن هذه النسبة لا تحمل إلا ظلالاً من تأثيرات فينيقية سامية خضعت لها صنهاجة قبل الإسلام ، وتهيأت بها لتلعب دورها الزاهر الذي اضطلعت به في تاريخ البلاد[2].

فصنهاجة ـ في حقيقتها ـ قبيلة بربرية ، ترجع إلى صنهاج بن برنس بن بر ... وابن حزم يروي أن « صنهاج » هذا ابن امرأة يقال لها (تزكى) لا يعرف لها أب[3].

فمن صنهاجة هذه ... انحدرت الدولة الزيرية التي كانت الأسرة الحمادية أحد ضلعي الحكم فيها . وقد أطلق على صنهاجة الزيرية صنهاجة الشرقية أو صنهاجة الشمال ويسميها ابن خلدون بالطبقة الأولى أو الجنس الأول[4].

وكان حماد بن بلقين (بلكين) واحداً من أحفاد زيري أشهر أمراء صنهاجة ... وكان له ـ فيما وصلنا من أسماء ـ ثلاثة إخـوة هـم : يطوفت وإبراهيم[5] والمنصور (الذي ولي حكم بني زيري بعد أبيه بلكين) ، وكان له من عمومته ثمانية : حران وقادر وعزم وكباب وزاوي وجلالة وماكسن وأبو البهار[6].

وقد كان حماد سبباً في قتل عمه ماكسن ، وفي إرغام عميه زاوي وجلالة

---

(١) قيام دولة المرابطين ص ٣٧ .

(٢) نقلا عن قيام دولة المرابطين ص ٣٨ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٤٩٨ .

(٤) العبر ٣١٢/٦ .

(٥) لم يرد ذكر إبراهيم في معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (ص ١١١) زامباور .

(٦) هذا خلاصة رأينا فيما أورده كثير من المؤرخين ، وهو موافق لما ذهب إليه ابن الأثير (الكامل ١٥٤/٩) (وابن خلدون ٣٢٢/٦) وابن عذارى) (البيان والمغرب ٣٤٠/١ وما بعدها) وابن الخطيب في أعمال الأعلام ج ٣ ص ٦٨ وفي الإحاطة ٤٣٩ وأخبار الدول المنقطعة ورقة ٩٦ ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة ١١١ ـ لكن ابن الأثير في موضع آخر من كتابه الكامل (٣٥٩/٩) جعل زاوي عم أبي المعز أي باديس والحق أنه عم المنصور كما أنه جعل حماداً أخاً لبلكين وزاوي ... الخ (٣٢/٩) والحق أنهم أعمامه .

وأولادهما على الرحيل إلى الأندلس ... حيث قامت لهم هناك أيام الفتنة الطائفية إمارات في غرناطة وقرطبة وغيرهما[1]. وكانت إمارة باديس بن حبوس (الزيري) الصنهاجي بغرناطة تحمي الجناح الشمالي الغربي للممالك البربرية التي كانت تسيطر زهاء ثلث قرن على الثلث الجنوبي في شبه الجزيرة الإسبانية[2].

وأما في المغربين الأوسط والأدنى فكانت لصنهاجة (الزيرية) اليد العليا تحت إمرة أبناء بلكين بن زيري ... المنصور ، فابنه باديس ، فحفيده المعز ... وهو الذي نجح حماد على عهده في أن يقسم دولة الزيريين إلى قسمين : غربي وشرقي ، ثم ينفرد هو وأبناؤه من بعده بالقسم الغربي منهما .

٣ - شخصيَّة حماد :

امتاز حماد ـ مؤسس الدولة الحمادية ـ بمجموعة من الصفات التي يرجع بعضها إلى العامل البيئي ، وبعضها إلى العامل الوراثي ، وبعضها لا يمكن القول فيه إلا أنه اضطرته إليه ظروفه كمؤسس دولة .

وحماد من خلال هذه الصفات يكوّن شخصية طموحة عنيفة ، لا يصدها عن غايتها عاطفة أو قانون أخلاقي أو ديني ، فهو لا يعرف ـ فيها ـ رحمة . وفي الحق فإن هذه الخلّة من خلال حماد ، كانت سمة كثير من ملوك صنهاجة الزيريين ، فهكذا كان عمه زاوي بن زيري[3] ، وهكذا كان حبوس بن ماكس بن زيري ، وباديس بن حبوس[4] .

ولعل جو الانقسام والصراع على السلطة والحروب المستمرة والعصبية كان أحد العوامل التي شكلت نفسية كثير من زعماء هذه القبيلة .

---

(١) انظر في تفصيل ذلك الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ٦١ ، والإحاطة ١٤٦، ٤٤٣ ، واللمحة البدرية لابن الخطيب ورقة ٦ مخطوط دار الكتب المصرية ، والمغرب في حلى المغرب ١٠٦/٢ ، ونفح الطيب ٤٠٤/١ وغيرها .

(٢) دول الطوائف عنان ص ١٤ .

(٣) انظر الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول المجلد الثاني ٩٩ ، وانظر الإحاطة ٤٤٤ ، والمغرب في حلى المغرب ١٠٦/٢ .

(٤) انظر المغرب في حلى المغرب ١٠٧/٢ .

ونحن لم نعرف من تفصيلات حياة حماد قبل ظهوره على مسرح التاريخ ما يعيننا على تفسير أخلاقياته تفسيراً كاملاً ودقيقاً ، وكل ما وصلنا عن هذه الحياة هو أنه « قرأ الفقه في القيروان ونظر في كتب الجدل »[1]، ونحن لم نعرف كذلك متى ولد ، لكنا نعرف على وجه الترجيح أنه توفي في شهر رجب سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م)[2].

ولقد بدأ حماد يظهر على مسرح الأحداث منذ ولاية أخيه المنصور سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) ، أي أننا نستطيع تتبع حياة حماد على امتداد قرابة نصف قرن ، فإذا أضفنا إلى هذا أن حماداً لم يظهر على مسرح الأحداث إلا كقائد من قواد صنهاجة يحمي أخاه المنصور وأبناءه ، من زناتة وغيرها . إذا نظرنا إلى هذا كله ، أمكننا أن نرجح أنه ظهر في التاريخ وهو في العقد الثالث ـ على الأقل ـ من عمره . وأنه مات ـ تقريباً ـ عن عمر يناهز الثمانين .

لكن إذا كنا قد اعتمدنا على الترجيح والاستنتاج في معرفة العمر الزمني لحماد ـ فإننا نجد أنفسنا في غنى عن هذا كله ، حين نريد أن نرسم لأخلاقه وصفاته صورة حقيقية .

لقد تواترت المصادر التي تحدثت عن أخلاقه ، فقد وصفه ابن الخطيب « بأنه كان نسيج وحده وفريد دهره ، وفحل قومه ، ملكاً كبيراً وشجاعاً ثبتاً وداهية حصيفاً »[3]، ووصفه صاحب الاستبصار بأنه « كان ذا دهاء وفطنة وتجربة في الحروب ، وكانت له فراسة وذكاء »[4]... وأكدت المصادر التي

---

(١) أعمال الأعلام جـ٣ ص ٧١ — ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ٨٦/٣ ، والعبر ٣٥٢/٦ ، والمغرب العربي رابح بونار ٢٠٨ ، وقد ذكر ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة ٤١٧ أن فيها توفي حماد ، كما ذكر الجيلالي في تاريخ الجزائر العام جـ ١ / ٣٦٤ — أن حماداً حوصر من المعز سنة ٤٣٢ هـ وإن كان في مكان آخر من كتابه ذكر أنه مات سنة ٤١٩ (٣٦٦) . وانظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ص ١١٠ .

(٣) أعمال الأعلام ٨٥/٣ .

(٤) الاستبصار ص ١٦٨ ، نشر وتعليق د . سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ .

تحدثت عن أخلاقه الحربية ، وعن فراسته وذكائه ، رأيها فيه بحكايات تكاد تكون مكرورة في كل ما بين أيدينا من مصادر ... فمن المحفوظ عن ذكائه أن رجلاً شيخاً خرج مع امرأته من بعض البلاد يريد القلعة ، وفي الطريق تواطأت المرأة مع شاب على الزعم بأنها زوج الشاب ـ حين تصل القلعة ـ وبأنها لا علاقة لها بالشيخ ، وقد استطاع حماد كشف الحقيقة حين رفع إليه الأمر بواسطة الكلب الذي يصحبهم ، اعتماداً على إلفة الكلب للشيخ دون الشاب . وكان حماد يزهو ويعتد بنفسه ويقول بأن أحداً لم يتداه عليه إلا امرأة من البربر كانت بنت صاحب له من أهل « باغادية » وقد حكى قصتها البكري[1] .

ومن الأخبار المؤكدة لقسوته الحربية التي لا يحدها قانون ولا خلق ، ما فعله بأهل مدينة « ذكمة » ، حين دخلها فوضع السيف في أهلها فقتل منهم ثلاثمائة ، فخرج إليه أحمد بن أبي توبة ـ فقيه المدينة ـ فخوفه بالله ووعظه ، فأمر بضرب عنقه ، وخرج إليه شيخ صالح منها فقال له : « اتق الله فإني حججت حجتين » ، فقال له : « وأنا أزيدك عليها الشهادة » ، وأمر بضرب عنقه ، ووقف إليه جماعة من التجار المسافرين فقالوا له : « نحن قوم غرباء لا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك ... » ، فقال لهم : « اجتمعوا وأنا أعرفكم » ، ودخل معهم غيرهم ممن طمع في الخلاص معهم ، فلما وصلوا إليه أمر بهم فضربت رقابهم جميعاً .... ثم أخذ جميع ما كان بتلك المدينة من طعام وملح ، وعاد به إلى قلعته[2] .

لقد ذكر ابن الخطيب أن حماداً كان شجاعاً جواداً[3] ، وأورد ما ذكره حماد نفسه عن مبالغته في إكرام جنوده والإحسان إليهم[4] ، بينما ذكر ابن الأثير أن أكثر عسكر حماد كانوا يكرهونه لقلة عطائه[5] . ونحن نرجح ما ذكره

---

(١) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ١٨٧ ، والاستبصار ص ١٦٨ .

(٢) انظر البيان والمغرب ٣٨١/١ ، وانظر الكامل ج ٩ / ٨٧ .

(٣) أعمال الأعلام ٧١/٣ .

(٤) المرجع السابق ٧٣/٣ ، والبيان المغرب ٣٨٦/١ ، ٣٨٧ .

(٥) الكامل ١٥٢/٩ .

ابن الخطيب ، ونرى أن كراهية جنود حماد له كان مبعثها القسوة الشديدة التي عُرف بها ، والتي لم تكن تسمح بحبه والاطمئنان إليه .

لكن كيف يمكن تعليل ظاهرة القسوة في حماد هذه ؟

إن من الملاحظ أن حماداً ليس إلا تكراراً لأنماط كثيرة كانت آية في القسوة والطغيان في سبيل الحكم . ويخيل إلي أن ظاهرة القسوة هذه خصيصة من خصائص بني زيري ، تكررت في غير واحد منهم ، هكذا كان زيري بن مناد وبلكين ابن زيري وأخوات بلكين ، ثم كان حماد وكان محسن بن القائد وبلكين بن محمد ابن حماد وباديس بن المنصور بن الناصر ، كان هؤلاء تكراراً للنمط القاسي الشديد السطوة ، الذي تختلط في شخصه القسوة والطغيان .

وليس من شك في أن رقة الدّين كانت سبباً من هذه الأسباب التي جعلت حماداً يقدم على مثل هذه الأعمال الوحشية ، هذا بالإضافة إلى الحروب الكثيرة التي خاضها حماد ، وأثّرت في أخلاقه ، ولا سيما وبعض من هذه الحروب كانت ضد صنهاجة ، كحربه ضد عمومته من صنهاجة الطامعين في ملك بني زيري ، ولا ينتظر من حماد الذي خاض هذه المعارك ضد أقاربه أن يشعر بالرحمة تجاه عناصر لا تمت إليه بصلة قرابة .

لقد أصبح العنف سمة من سمات وأخلاق حماد ظهرت في سلوكه العام وبخاصة في طريقه إلى تكوين دولة .

إننا نستطيع أن نرى في شخصية حماد نموذجاً من هذه النماذج التاريخية الكثيرة التي تتوسل إلى الحكم بكل الطرق ، ولا نعرف في سبيل غايتها أية منازع إنسانية ، ونحن نستطيع ـ باطمئنان ـ أن ندير حول هذه الغاية كل ما تقوم به من أعمال ، وما تتسم به من أخلاق .

٤ – دور التبعية في حياة حماد :

لم يبدأ حماد في الظهور إلا بموت والده بلكين وتسلم أخيه المنصور البلاد بعده سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٤ م)[1] ، إذ كان بلكين شخصية ظاهرة طاغية ، نجح في

---

(١) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ١١٠ ، وانظر الدر المكنون في مآثر الماضين=

ضبط البلاد وقبض عليها بيدين من حديد ، وعين على أعمالها المختلفة رجالاً موالين له ، وجعل « المنصورية » قاعدة حكم ، ولم يفته أن يتردد على المهدية [1].

ولكن بموت هذه الشخصية القوية حدث نوع من الطمع في صفوف القبائل المتربصة بصنهاجة . وقد أسرع مولى بلكين « أبو زغبل » فأرسل بخبر وفاة بلكين إلى المنصور الذي كان والياً على أشير ، والذي كان صاحب العهد بعده [2].

وما هي إلا فترة وجيزة حتى كان المنصور مضطراً إلى الحرب في ميدانين : - ميدان القبائل الحاقدة ، وميدان الصراع بينه وبين الحاقدين عليه من أسرته كعمه أبي البهار [3]. فلم يجد بداً من أن يستعين بأخيه حماد ، الذي ظل وفياً له مدة ولايته ، ولم تبدر منه أية بوادر تنم عن رغبته في الاستقلال ، بل لقد أبرز هذا الدور حماداً على أنه أكثر الزيريين حماية للبيت الحاكم [4]، ولا نجد تفسيراً لهذا سوى أن حماداً كان يرى أن خطّ الحكم لا زال طبيعياً ، فولاية المنصور أخيه كانت عملاً مشروعاً ، لا يجرح كبرياءه في شيء ، وذلك على العكس من عمهما أبي البهار الذي شعر بانتقاص لقدره ، وربما من الأسباب كذلك أن الدولة على عهد المنصور كانت لا تزال قوية مهيبة بسبب من سياسة المنصور

= من القرون ، مخطوط بالمكتبة المركزية بالكويت ص ١٣١ لياسين العمري وقد ذكر صاحب أعمال الأعلام أن بلكين مات سنة ٣٧٢ .

(١) المعز لدين الله د. حسن إبراهيم ١٥٦ .

(٢) العبر ٣٢٠/٦ .

(٣) البيان المغرب ، ابن عذاري ٣٤٩/١ ، والعبر ٣٢١/٦ .

(٤) ذكر بعض المتأخرين أن حماداً قد ظهرت رغبة الاستقلال عنده في هذا الدور ، أي في عهد المنصور ، ولم يذكروا لنا على أي أساس اعتمدوا في رأيهم هذا ، وعلى الرغم من أننا نرى أن حماداً ربما أخفى أملاً بتكوين دولة فإننا لم نجد عملياً ما يثبت هذه الرغبة على عهد المنصور أخيه « المغرب الكبير ج ٢ - د. عبد العزيز سالم ص٦٥١ ، وقد اعتمد على رأي لجورج مارسيه ورد في كتاب أرض المغرب الإسلامي والمشرق في العصر الوسيط » .

الذي كان ـ على عكس الأسلوب السائد لدى ملوك صنهاجة في الحكم ـ يتخذ اللين والتسامح أسلوباً له[1].

ومن هنا فقد أسهم حماد ـ في هذا الدور ـ بنصيب برزت فيه شخصيته « فقد أغزاه المنصور بما يجاوره من بلاد أعدائه فرزق نصراً لا كفاء له »[2]. وقد قدر على المنصور أن يقاتل قبيلة كتامة ـ إلى جانب زناتة ـ وقد استعان في هذا بحماد ، ونجح المنصور في القضاء على ثورات كتامة التي كان الخلفاء الفاطميون في القاهرة يغزونها ـ سراً ـ لكيلا تنفرد صنهاجة بالسطوة في المغرب العربي[3].

وفي هذا الدور كذلك برز دور حماد في حرب زناتة ، إذ اضطر المنصور أمام توثب زناتة الدائم إلى أن يتخذ له عاصمة ثانية قريبة منها وهي أشير ، واضطر إلى أن يولي على هذه العاصمة حماداً ـ الذي كان يتداول حكمها مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار ـ بالإضافة إلى المسيلة[4]ـ مستكفياً به أمر زناتة الأموية ومن ينازعه من آله ، فلم يزل حماد مخلصاً له[5]. وقد تمهد له بذلك السبيل ليرقى مسرح الأحداث ببلاد الجزائر ، وينطلق نحو تأسيس دولة لبنيه[6].

٥ – العقد السياسيّ بين حماد وباديس :

وبولاية باديس ، بعد موت أبيه المنصور في اليوم الثالث من ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ[7](٩٩٦ م) تغير ذلك الهدوء النسبي الذي ساد إلى عهد المنصور في

---

(١) تاريخ الجزائر في القديم والحديث للهلالي الميلي ١٣٥/٢ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٢٧/١ ، والمجتمع المغربي ص ٢٧٠ – للدكتور إبراهيم العدوي .

(٢) أعمال الأعلام ٦٨/٣ .

(٣) تاريخ الجزائر العام جـ ٣٢٨/١ .

(٤) العبر لابن خلدون ٣٢١/٦ ، وانظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٢٩/١ .

(٥) تاريخ الجزائر في القديم والحديث جـ ١٨٩/٢ .

(٦) المجتمع المغربي ص ٢٧٠ .

(٧) البيان المغرب ٣٥٤/١ ، الكامل ١٢٧/٩ ، وفيات الأعيان ٢٤٠/١ ، والدر المكنون ، مخطوط ص ١٣٧ – وقد ذكر ابن الخطيب أنه مات سنة ٣٩٥ (أعمال الأعلام ٦٨/٣) والصحيح ما ذكرناه .

الأسرة الحاكمة ، فثار عليه من عمومة أبيه ماكس وزاوي وجلال[١]، ومعتز وعزم[٢] ، كما بدت زناتة تغزو بلاد المغرب الأوسط بشراسة وعنف ، بقيادة زيري بن عطية الملقب بالقرطاس[٣] ، وفلفل بن سعيد ، الذي تولى باديس حربه بنفسه[٤] .

ونحن نستطيع أن نقول : إن العقدين اللذين قضاهما باديس في الحكم كانا مشحونين دائماً بالصراع في أكثر من ميدان ، ومنذ سنة ٣٨٦ هـ (٩٦٦ م) وهي السنة التي ولي فيها باديس الحكم ــ وحماد يتمتع بالثقة المطلقة التي جعلت منه الرجل الثاني طيلة عهد « باديس » . في هذا العام نفسه ، استعمل باديس عمه حماداً بن يوسف بلكين على أشير ، وأقطعه إياها ــ أي أفرده بها بعد أن كانت بالتداول بينه وبين يطوفت ، وأبي البهار ، وأعطاه من الخيل والسلاح والعدد شيئاً كثيراً[٥]. وفي الحق فإن حماداً كان يحمي ولاية الجزائر الشرقية كلها ، وهي التي تقابل زناتة . وقد ذكر صاحب المؤنس أنه كان والياً على أشير والمغرب[٦]، بينما كان يطوفت أخوه في تاهرت ، وكان كل منهما يحمل لقب « نائب باديس »[٧].

---

(١) يبدو أن كلمة عمومة قد استعملت بتجوز ، فقيل عن هؤلاء إنهم أعمام باديس (العبر ٣٢٢/٦) لكن الثابت أنهم أعمام والد باديس وأعمام حماد (الكامل ١٥٤/٩) فقد قال عن ماكسن إنه عم أبي باديس وذكر ابن الأثير صراحة أنهم إخوة بلكين (الكامل ٣٢/٩) وأنهم أعمـــام والد باديس (الكامل ١٢٧/٩) (وص ١٥٤) وغيره من المراجع التي ذكرناها سابقاً . وقد ذكر ابن الخطيب أنهم أعمام المنصور ــ وهذا صحيح ــ لكن ذكر أنهم ثاروا على المنصور ، والصحيح أنهم ثاروا على ابنه باديس (أعمال الأعلام – ٦٧/٣، ٦٨) . ومن الغريب أن ابن الخطيب في الإحاطة ــ قد ذكر أن الحرب وقعت بين باديس وأعمام أبيه ماكسن (٤٢٩) .

(٢) العبر ٣٥٠/٦ .

(٣) الكامل ١٥٢/٩ .

(٤) المغرب الكبير جـ ٦٤٧/٢ د. السيد عبد العزيز سالم .

(٥) الكامل ٣٨٦/٩ .

(٦) المؤنس ص ٨٠ .

(٧) انظر تاريخ الجزائر العام جـ ٣٣٢/١ .

ويذهب بعض المؤرخين[1] إلى أن حماداً منذ توليه أمر أشير سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وهو يفكر في إقامة دولة لبنيه ، ذلك أن ولاية حماد قد اتسعت بدرجة كبيرة ، كما أنه جمع حوله العساكر والأموال[2] ، وقد عظم شأنه ، وشعر بحاجة باديس الماسة إليه ، ومما لا شك فيه أن آمالاً من هذا النوع كانت تقبع في نفس حماد ، إلا أنه كان ينتظر الفرصة المواتية لتجسيدها .

لقد حدث في السنوات الأولى لعهد باديس ـ التحام بين الناقمين عليه من أسرته كزاوي وماكسن وجلال ، وبين قواد زناتة ، فهاجم الأولون تاهرت ، واستباحوا عسكر يطوفت[3]، بينما هاجم الآخرون تونس حتى وصلوا إلى القيروان ، ويبدو أن « باديس » قد اتفق مع حماد على أن يتولى هو محاربة فلفل بن سعيد المغراوي ، بينما يتولى حماد محاربة أعمامه من بني زيري [4]، وقد قام باديس بتسريح حماد سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) إلى بني زيري فهزمهم وتقبض على ماكسن منهم بأطمة الكلاب وقتله ، وتجافلهم إلى جبل « شنوة » فنازلهم أياماً ، وانحصر زاوي بهذا الجبل ناحية شرشال وطلب السلم ، فعقده حماد له ، على أن يرحل إلى الأندلس فلحق ومن معه من إخوته وأبنائهم وتابعيهم بها سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م)[5].

وفي الميدان الآخر ـ مع زناتة ـ كانت جيوش الزيريين قد التأمت تحت إمرة محمد بن أبي العرب ـ أحد كتاب باديس ـ واتجهت نحو زناتة بعد أن استغاث يطوفت والي تاهرت بباديس وقد انضم إلى هذه الجيوش حماد ، بالإضافة

---

(١) الدر المكنون مخطوط ١٣٧ .
(٢) المكان السابق نفسه .
(٣) العبر ٣٢٢/٦ .
(٤) انظر العبر ٣٢٢/٦ ، والمغرب الكبير جـ ٦٤٧/٢ د. عبد العزيز سالم .
(٥) البيان المغرب ٣٦١/١ ، والعبر ٣٢٣/٦ ، وأعمال الأعلام ٦٨/٣ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ٦٢/٦١ ، والجيلالي تاريخ الجزائر العام ٣٣٣/١ ، وقد ذكر ابن الأثير ذلك في حوادث سنة ٣٧٣ ، وذكر أنه في عهد باديس مع أنه ذكر أن باديس ولي الأمر سنة ٣٨٦ (الكامل ١٢٧/٩) وهو تناقض واضح .

إلى يطوفت الذي استقبل الجيش وانضم إليه في تاهرت ، وكان بينهم وبين زعيم زناتة « زيري بن عطية المغراوي » مرحلتان[1] ، إذ كان معسكراً عند موضع يسمى آمساد ـ بوادي منياس ـ على مرحلتين من تاهرت ، فزحفوا إليه في أوائل جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٨ م) ، وكانت بينهم معركة عنيفة انتهت بهزيمة عسكر باديس هزيمة مخزية[2]، إذ تركت صنهاجة وراءها جميع معداتها الحربية وأموالها نهباً لزناتة ، واحتلت زناتة معظم العواصم الجزائرية كتيهارت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة وجملة من بلاد الزاب ، بل حاصرت أشيراً أيضاً[3]. ويرجع كثير من المؤرخين هزيمة صنهاجة إلى كراهية الجيش لحماد[4]، ولئن صح أن هذا أحد عوامل الهزيمة ـ فمما يجب ملاحظته أن حماداً لم يكن قائداً للجيش في هذه المعركة ، بل كان أحد المساعدين فقط ، وأن الجيش كان به قائدان آخران هما ابن أبي العرب ـ القائد العام ـ ويطوفت ، فليس هذا هو السبب الوحيد ـ مع جواز أن يكون أحد أسباب هذه الهزيمة .

وقد تمكن باديس ـ بعد علمه بالهزيمة ـ من تتبع زيري بن عطية الذي تمكن من الفرار[5]. فتتبع باديس زناتة إلى باغاية وطبنة ودحرها في وقائع وحروب طاحنة[6]، لكن عمالة تلمسان بقيت تحت يد زناتة ، لا سيما بعد أن نجح « المعز بن زيري بن عطية المغراوي » في إقامة علاقات ودية مع المنصور بن أبي عامر ـ الحاكم باسم الأمويين بالأندلس ـ . وقد ظلت هذه الولاية تحت زناتة إلى عهد المرابطين ، ونرجح أن الخلافات الداخلية بين الأسرة الزيرية كانت أهم العوامل التي جعلت زناتة تنجح في اقتطاع هذه الأرض الجزائرية من باديس .

---

(١) الكامل ١٥٢/٩ .
(٢) البيان المغرب ٣٥٩/١ ، الكامل ١٥٢/٩ ، المؤنس ٨٠ ، المغرب الكبير ، دكتور عبد العزيز سالم ج ٦٤٦/٢ .
(٣) البيان المغرب ٣٥٧/١ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، تاريخ الجزائر العام ج ٣٣٣/١ .
(٤) الكامل ١٥٢/٩ ، العبر ٣٢٠/٦ ، وانظر الجيلالي تاريخ الجزائر العام ج ٣٣٣/١
(٥) المؤنس ٨٠ .
(٦) الكامل ١٥٣/٩ ، وتاريخ الجزائر العام ج ٣٣٣/١ .

وقد استقرّ الأمر إلى شبه هدنة مؤقتة بين زناتة والزيريين حتى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) .

ونحن لا نعلم على وجه التحديد تفاصيل حياة حماد في هذه السنوات الممتدة من (٣٩٠- إلى ٣٩٥ هـ) (٩٩٩-١٠٠٤ م) - ، وكل ما وصلنا أنه في أثنائها قد استدعي من باديس ليكون إلى جواره ، بالقيروان ، وأن هذا أحد أسباب قلاقل زناتة المتكررة خلال هذه الفترة [1]، ويبدو أن حماداً كان على صلة بأشير كذلك ، وأنه كان - فقط - يستدعى من باديس بين الفينة والفينة ، ويستقدم متى شاء باديس إلى صبرة (المنصورية) ويخرج لإطفاء الثورات [2].

والأمر المستنبط من تتبع الأحداث أن حماداً قد أثبت جدارة كبيرة في هذه المرحلة التي بدأت بولاية باديس على وجه الخصوص ، ولعل الخصائص التي ينفرد بها حماد ، وهذا الدور الذي أثبت وجوده في القيام بأعبائه ، كانا هما أبرز المرشحات له لكي يفوز من باديس بهذا العقد السياسي الذي تمكن من الوصول إليه سنة ٣٩٥ .

وتكاد تجمع ما بين أيدينا من مراجع [3]على أن هذه السنة الآنفة الذكر هي التاريخ الصحيح لميلاد دولة بني حماد . أما تلك المراجع التي جعلت من سنة ٣٩٨ هـ هو تاريخ شرعية وجود الدولة الحمادية ، هذه المصادر ترى أن تاريخ اختطاط حماد للقلعة بجبل كتامة التاريخ الأقرب لإعلان قيام الدولة [4]... ومن

---

(١) أعمال الأعلام جـ ٦٩/٣ ، والعبر ٣٢٣/٦ .

(٢) تاريخ الجزائر / الميلي جـ ١٨٩/٢ .

(٣) العبر ٣٢٣/٦ ، وأعمال الأعلام ٦٩/٣ ، وتاريخ الجزائر للميلي ١٨٩/٢ ، وتاريخ الجزائر العام ٣٣٤/١ ، والمجتمع المغربي ٢٧١ ، وقادة فتح العرب للمغرب ٢٣٠/٢ ، لكن الأستاذ سعيد العريان - رحمه الله - قد ذهب إلى أن نوايا حماد في الاستقلال ظهرت سنة ٣٩٠ ، وذهب إلى أن حماداً قد أنشأ القلعة سنة ٣٨٦ ... والتاريخان معاً غير صحيحين ، والتناقض ظاهر فيهما . انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب (هامش) ٢٧٤/٢٧٣ . طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤) العبر ٣٥٠/٦ ، المغرب الكبير جـ ٦٤٩/٢ ويلاحظ أن ابن خلدون قد ذكر الأمرين معاً : الاتفاق مع باديس واختطاط القلعة فهما في الحقيقة مكملان لبعضهما .

البديهي أنه ليس ثمة خلاف بين هذين الرأيين ، على أن القيام الحقيقي للدولة لم يتم إلا سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٦ م) ـ كما سنرى .

لقد اضطرب حبل النظام بالمغرب[1] على مشارف سنة ٣٩٥ هـ بدرجة أصابت باديس باليأس الكامل في إمكان حكم كل البلاد التي تحت يديه حكماً مباشراً فلم ير بدأ من التنازل الجزئي ـ في إطار صنهاجة لأبرز شخصياتها ـ بعده ـ حماد بن بلقين . ولم يترك حماد الفرصة ، فاشترط على ابن أخيه شروطاً تشطط فيها ، وهذه الشروط أجملت في هذه النقاط :

- تملك ولاية أشير والمغرب الأوسط .
- تملك كل ما يفتحه . (من بلاد زناتة) وغيرها ، خارج نطاق الدولة الزيرية .
- إعفاء حماد من الوصول إلى إفريقية بعد ـ أي ألا يستقدمه ولا يستدعيه إليه ـ .
- أن له اختيار مكان إقامته (عاصمته) كما يشاء[2] .

ويبدو أن هناك شروطاً أخرى ، لأن ابن الخطيب يقول بأن ثمة شروطاً كثيرة تشطط فيها حماد[3] ، وربما يكون من بين الشروط الأخرى :

- إمداد حماد بالعتاد والمال والرجال ، كما وقع فعلاً .
- ضرورة نجاح حماد في إخماد زناتة وحماية الدولة من الجبهة الغربية .

كما أننا نتوقع أن تكون ثمة شروط تحدد العلاقة بين حماد وباديس على أساس الوضع الجديد لحماد ، وتحدد أسلوب الارتباط بين ولايات حماد ، وبين الدولة الزيرية ، يدل على هذا إقدام باديس فيما بعد على أن يطلب من حماد التخلي عن ما استحوذ عليه من أرض ، كما أن ما نعرفه عن الخصائص القبلية البربرية ، يجعلنا نستبعد أن يمنح باديس عمه حماداً هذه الجيوش الكثيرة التي جعلت ابن الخطيب يقول بأن « عددها لا يحصيه إلا الله ، وبأن حماداً كان يجر الدنيا وراءه »[4] ، دون أن يكون هناك ارتباط من نوع ما ، أو لمجرد كف أذى زناتة .

---

(١) العبر ٦/٣٥٠ .

(٢) العبر ٦/٣٤٩ ، وأعمال الأعلام ٣/٨٥ .

(٣) La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P : 5.

(٤) أعمال الأعلام ٣/٧٠ .

والذي نميل إليه أن تملك حماد لكل ما يفتحه ، إنما كان يقصد به الانفراد بالحكم في إطار الدولة الزيرية ، وليس استقلالاً كاملاً . وهناك دليل آخر يؤكد هذا ، هو أننا لا نلمح في هذه الفترة ما يشير إلى وجود أية علاقات بين الحماديين والدولة الفاطمية ، الزعيمة الروحية والرسمية للمغرب العربي ، فلقد بقيت الدولة الزيرية هي الممثل الوحيد الشرعي المعترف به للمغربين الأوسط والأدنى .

ومع كل هذا ، فلقد اعتبر هذا العقد السياسي ... الوثيقة الشرعية الدستورية لنشوء الدولة الحمادية كدولة مستقلة ـ من نوع ما ـ في الجزائر ، وقد نجح حماد في استئصال شأفة زناتة ، وتكررت انتصاراته عليهم وطار صيته ، وعظمت هيبته ، وتوغل في الشرق الجزائري فأتى « تيجس » من أحواز قسنطينة ، وتحرك فنزل بقلعة أبي طويل[1] التي على مقربة منها تمكن ـ كما سوغ له العقد ـ من بناء قاعدته الجديدة « القلعة » سنة ٣٩٨ هـ.، وقرر بها العمران وشيد القصور وخلد الآثار ، واستكثر فيها من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمران واتسعت في التمدن[2] .

ويهمنا هنا أن بناء القلعة ـ على هذا النحو ـ كعاصمة مستقلة ذات ارتباط تاريخي بحماد ، يعني بداية الميلاد العملي والتاريخي للدولة[3] كما أن ـ العقد السياسي كان هو الميلاد النظري لها ، وبهما معاً بدأت تظهر الدولة الحمادية .

٦ - الدور العملي في بناء الدولة :

لقد أمضى حماد عشر سنوات كاملة (٣٩٥-٤٠٥ هـ) (١٠٠٤-١٠١٤ م) ـ وهو يعمل على تحقيق شخصية دولته . وإذا كان حماد قد نجح في زحزحة زناتة وفي بعثرتها ، بحيث لم تقم لها قائمة في المغرب الأوسط ، باستثناء ناحيتي ما بعد تاهرت والمسيلة شرقاً ، فإن هذا كان تحقيقاً ـ من جانبه ـ للأساس المهم

---

(١) المرجع السابق ٧١/٣ ، وانظر تاريخ الجزائر للميلي ١٩٠/٢ .
(٢) أعمال الأعلام جـ٧١/٣ ، والعبر ٣٥٠/٦ .
(٣) على نحو ما فعل المنصور ببغداد والمعز بالقاهرة وأبو عبيد الله بالمهدية وغيرهم .

الذي قام عليه العقد السياسي بينه وبين باديس ، وبالتالي فقد بدأ حماد يشعر بأن من حقه أن يبدأ في تدعيم شخصية دولة مستقلة ـ في إطار الزيريين ـ له ولأبنائه . وكانت أولى خطواته في هذا المجال بناءه القلعة وتمصيرها – كما ذكرنا ، وكان حماد يتردد بين أشير والقلعة ، وقد نجح خلال هذه الفترة في أن يكون أقوى شخصية في الزاب والمغرب الأوسط كله إلى الحد الذي جعل باديس يتخوف على مستقبل الدولة الزيرية .

ولم يكن النجاح الذي حققه الوشاة من الأعجام والقرابة الذين نفسوا على حماد رتبته ، وسعوا في مكانه من باديس ، إلى أن فسد ذات بينهما [1]. لم يكن هذا النجاح إلا صدى للمكانة التي احتلها حماد في هذه الفترة ، ونحن نعتمد هذا التعليل ، أكثر من اعتمادنا ما ورد من أن باديس قد أبلغ عن عمه حماد قوارص أنكرها فأغضى عليها ، حتى كثر ذلك عليه [2]، وكذلك نعتبر ما قيل عن تولية الحاكم بأمر الله الفاطمي في سنة ٤٠٣ هـ لابنه المنصور بن باديس (عزيز الدولة) كولي للعهد [3]، ورغبة الأخير في أن يحتل ابنه المكانة التي ترشحه للولاية ، وطلبه من حماد أن يتنازل عن « تيجس وقصر الإفريقي وقسنطينة »

---

(١) العبر ٣٥٠/٦ ، وانظر أعمال الأعلام ٨٦/٣ ، La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P : 7.

(٢) الكامل ٢٥٣/٩ .

(٣) الكامل ٢٥٣/٩ ، البيان المغرب ٣٧٦/١ وما بعدها وقد حكى ابن عذاري قصة وفاة هذا الابن أثناء الحرب مع حماد سنة ٤٠٦ (البيان المغرب ٣٧٩/١) ، والمغرب الكبير ، الدكتور عبد العزيز سالم ج ٦٤٩/٢ ، والمجتمع المغربي ٢٧١ ـ لكن ابن خلدون يذكر أن ولي العهد هو المعز ـ في هذه الفترة ـ العبر ٣٥٠/٦ ونحن نرجح أنه مجرد سهو نتيجة موت المنصور قبل توليه الأمور ، وقد سار على نهج ابن خلدون « الميلي » وذكر أن ولاية العهد جاءت سنة ٤٠٣ أي والمعز في السنة الخامسة من عمره (تاريخ الجزائر للهلالي والميلي ١٨٩/٢) و« الجيلالي » وقد ذكر أنها سنة ٤٠٧ هـ (تاريخ الجزائر العام ٣٣٦/١) . والتاريخ الأخير هو تاريخ تولية المعز فعلاً كأمير لا كولي للعهد . وأما التاريخ الأول فهو تاريخ تولية المنصور بن باديس الذي توفي سنة ٤٠٦ دون أن يتولى الإمارة .

لتكون تحت تصرف ابنه[١].... نعتبر هذا مجرد وسيلة عادية لجأ إليها باديس ، وليست هي السبب الرئيسي .

ولكي يتحقق لباديس غرضه دون إثارة حماد ، فقد لجأ إلى وساطة إبراهيم أخي حماد سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) كي يرفع حماد يده عما في حوزته[٢]، لكن إبراهيم ما إن وصل إلى أخيه حتى انضم إليه[٣]، واجتمعت كلمتهما على الخلاف وخلع طاعة باديس ، وكان هذا بداية حروب طويلة بين القوتين .

ولقد خطا حماد خطوات تالية أكدت روح الانفصال عن كل ما يمت لدولة ابن أخيه باديس بصلة ، إذ أنه لم يكتف بإعداد جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل[٤]. وإنما قتل الرافضة وأظهر السنَّة ورضي عن الشيخين (أبي بكر وعمر) ونبذَ طاعة العبيديين جملة ، وراجع دعوة آل العباس[٥]وذلك كله ـ سنة ٤٠٥ هـ . وتعتبر هذه الخطوات أول خروج صنهاجي عن الدولة الفاطمية منذ مشى « زيري ابن مناد الصنهاجي » في ركابها . وبهذه الخطوات تحقق للدولة الحمادية ـ الاستقلال المعنوي ـ إلى جانب الاستقلال في الأرض ، ولم يعد بدٌّ من أن يلتقي الفرعان الصنهاجيان لقاء حاسماً .

ولم يتوان حماد عن انتهاز أقرب فرصة إليه ، وكانت تتمثل في وجود « هاشم ابن جعفر » أكبر قواد باديس بقلعة « شقنبادية » بمدينة الكاف قريباً من باجة فأسرع حماد إليه ، وكان بينهم حرب انهزم فيها هاشم والعسكر الذين معه ، ولجأ إلى « باجة » فتقدم منها حماد ، ودخلها بالسيف وأثار أهل تونس على الرافضة ، وغنم مال هاشم وعُدده[٦]وذلك سنة ٤٠٥ هـ .

---

(١) الكامل ٢٥٣/٩ ، والعبر ٣٥٠/٦ .

(٢) البيان المغرب ٣٧٦/١ ، وأعمال الأعلام ٧١/٣ ، والدر المكنون ، مخطوط ص ١٤٤ .

(٣) البيان المغرب ٣٧٧/١ .

(٤) الكامل ٢٥٣/٩ .

(٥) العبر ٣٥٠/٦ . La Kalaa Des Beni Hammad — De Beylie P: 7 and Relation et commerce de L'Afrique septentrionale ou Magreb avec les nations chretiennes âge P: 33

(٦) الكامل ٢٥٣/٩ ، وتاريخ الجزائر للميلي ١٩٠/٢ ، وتاريخ الجزائر العام ٣٣٧/١ للجيلالي .

وعلم باديس بالأمر فقرر أن يقود الجيوش بنفسه ، ورحل عن القيروان لحرب حماد ثاني أيام عيد الأضحى من العام السابق ، وقد اجتمعت عدة ظروف ، كان معظمها بسبب سياسة حماد ، رجحت كفة باديس عليه ، في سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) في صدر المحرم ، وصل « عزم » وفلفل ابنا حسون بن سنون وماكسن ابن بلقين ، وعدنان بن معصم ، في عدة من الفرسان من عسكر حماد هاربين إلى باديس فخلع عليهم وأحسن إليهم[١] .

وقد حاول حماد وأخوه إبراهيم خداع باديس فكتبا إليه بأنهما ما خلعا الطاعة ولا فارقا الجماعة ، لكن كذبهما باديس بما ظهر من أفعالهما من سفك الدماء وقتل الأطفال وإحراق الزروع والمساكن وسبي النساء[٢] .

وعندما وصل حماد إلى « باجة » ـ وهو في طريقه للقاء باديس ـ طلب أهلها منه الأمان فأمنهم ، واطمأنوا إلى عهده ، فلما دخلها صار يقتل وينهب ويحرق ويأخذ الأموال[٣] . فكان هذا درساً لكل المدن ، شكل عقبة كبيرة وضعها حماد بسياسته أمام نفسه ، بينما كان باديس على العكس من ذلك وفياً مع كل الذين يأمنون جانبه ويعاهدونه[٤] ، ولذا فقد نزع عن حماد كثير من أصحابه كبني أبي واليل ، وبني حسن من صنهاجة ، وبني يطوفت وبني عمرة من زناتة ، وتخلى عنه ، بل قاتله عطية بن واقلتن من بني توجين وبدر بن لقمان من بني توجين أيضاً[٥]. ولما وصل حماد إلى مدينة أشير ـ التابعة له ـ والتي فيها نائبه خلف الحميري ، منعه « خلف » من دخولها وأعلن طاعته لباديس ، بسبب ما ذكرناه من سياسة كليهما ، فأسقط في يد حماد[٦].

وكانت كل هذه الظروف التي التقى فيها القائدان ـ باديس وحماد ـ ممهدة

---

(١) البيان المغرب ٢٦٢/١ .
(٢) الكامل ٢٥٤/٩ .
(٣) المرجع السابق المكان نفسه .
(٤) نفس المكان السابق ، وانظر البيان المغرب ٢٦٣/١ .
(٥) العبر ٣٥١/٦ .
(٦) الكامل ٢٥٤/٩ .

لنوع النتيجة التي انتهت إليها المعركة ، ولذا فعندما عبر باديس وادي شلف[1]، مستهل جمادى الأولى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) ، والتقى بحماد ، وطَّن أصحاب باديس أنفسهم على الصبر أو الموت لما كان حماد يفعله بمن يظفر به[2]، فهُزم حماد هزيمة مستأصلة[3]. وانتُهب عسكره ، ولولا اشتغال عساكر باديس برفع الغنائم والأموال والأثقال لما نجا حماد نفسه ، وقد أخذ الناس من الغنائم والأموال ما لا يحصى عدداً وكثرة[4].

وقد انثنى حماد راجعاً إلى قلعته ، مخرباً ما يقابله في الطريق من مدن ، حتى وصل إلى القلعة تاسع جمادى الأولى ، وسار باديس خلفه فانحجز حماد في القلعة ، فحاصره باديس ، وعزم على المقام بناحيته ، وأمر بالبناء ، وبذل الأموال لرجاله ، فاشتد ذلك على حماد ، وضعفت نفسه ، وتفرق عنه أصحابه ، وكان حماد يطمع في أن تختلف زناتة على باديس في ذلك الوقت ، فيضطر إلى فك الحصار ، لكن ذلك لم يحدث[5]، وخلال الأشهر التالية[6] بدا وكأن آمال حماد قد انتهت ، فقد كان الظهور قد لاح لباديس ، وكاد يستأصل حماداً من الغد ، لكن في أثناء ذلك طرق باديس الموت فجأة لعشر بقين من ذي القعدة سنة ست وأربعمائة[7].

---

(١) العبر ٣٥١/٦ .

(٢) الكامل ٢٥٤/٩ .

(٣) البيان المغرب جـ ١ / ٣٧٩ ، أعمال الأعلام ٧٢/٣ ، والعبر ٣٥١/٦ ، والدرّ المكنون ص ١٤٥ .

(٤) البيان المغرب ٣٧٩/١ وقد حكى صاحب البيان مظاهر لكثرة الغنائم كما أورد شعراً لمن حضروا هذا اليوم (يوم شلف) المكان السابق نفسه ، وانظر مجمل تاريخ الأدب التونسي حسن حسني عبد الوهاب ١٢٣ ، وانظر الكامل ٢٥٥/٩ .

(٥) الكامل ٢٥٥/٩ .

(٦) في هذه الشهور مات المنصور بن باديس وقد ظن حماد أن هذا يؤثر على باديس لكن لكن خاب ظنه (البيان المغرب ٢٦٢/١) .

(٧) أعمال الأعلام ٧٢/٣ ، وانظر العبر ٣٥١/٦ ، والمغرب الكبير ٤٦٩/٢ ، دكتور عبد العزيز سالم ، والمغرب العربي ، رابح بونار ١٩١ . وقد حدد ابن خلكان وفاة باديس =

وتتضارب الآراء حول سبب وفاة باديس ، لكن لا يوجد رأي واحد يزعم أن حماداً كانت له يد في ذلك ، بل على العكس من ذلك نجد شبه اتفاق على أن باديس كان في عنفوان شبابه ، وأنه كان في ذلك اليوم الذي توفي فيه قد استعرض جيشه ورأى ما يسره ، وانصرف إلى قصره ، ثم ركب عشية ذلك النهار في أجمل مركوب ، ولعب الجيش بين يديه ، ثم رجع إلى قصره شديد السرور بما رآه من كمال حاله [1].

ولو أن حماداً لم يكن في أسوأ ظروف لكان في إمكانه استغلال هذا الحادث على نحو يخدم أغراضه ، لكنه كان في وضع شبه منهار تماماً ، يدل على هذا قوله نفسه ، في تحسر شديد ، حين رأى احترام وإخلاص جيش باديس له بعد موته ، قال لمن حوله : « مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك وتبذل فيهم النعم ، وصلت إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس ، ليس منهم إلا من بالغت لهم في الإحسان والإنعام ، وعدت إلى القلعة وليس معي منهم إلا أقل من ستمائة وأنا بينهم حي أرجى وأخشى ، وهؤلاء أطاعوا باديس ميتاً كطاعتهم له حياً »[2].

ومن الراجح أن حماداً كان قد قرر الصلح في نفسه ، حين بدا له بعد هذه الموقعة أنه فقد كل شيء [3]، لكنه كان يخشى ألا يستجيب له باديس ،

= يوم الثلاثاء ٢٩ من ذي القعدة ٤٠٦ (وفيات الأعيان ٢٤٠/١) كما جعله ابن الأثير سلخ ذي القعدة ٤٠٦ (الكامل ٢٥٦/٩) ولا يوجد خلاف كبير بين هذه الآراء .

(١) وفيات الأعيان ٢٤٠/١ (ترجمة باديس) ، والبيان المغرب ٣٨٤/١ ، والكامل ٢٥٦/٩ ، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ١٧٩/٣ ، وقد حكى ابن الأثير أن سبب وفاته دعوة أحد الصالحين (محرز) عندما ظلم أهل طرابلس (البداية والنهاية ٤/١٢) . وقد نقل هذا أيضاً الكامل في المكان السابق عن صاحب « الدول المنقطعة » ، ولا مجال في التاريخ لهذه التفسيرات التي لا يمكن الوقوف عندها ، كما ذكره واطمأن إليه ابن أبي الضياف « إتحاف أهل الزمان » ١٣٤/١ ، وقد زعم ابن أبي الضياف في المكان السابق أن موت باديس كان أثناء خروجه للحرب مع زناتة وهو خطأ واضح .

(٢) أعمال الأعلام ٧٣/٣ .

(٣) La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P: 7.

فلما مات باديس فجأة وبمحض الصدفة[1] ـ كما ذكرنا ـ وولي ابنه المعز وهو صغير السن قوي الأمل في نفس حماد .

وكان موت باديس فرصة لحماد قلما تتاح لكثيرين من بناة الدول ، فقد فك جيش باديس حصاره للقلعة ، وانسحب العساكر راحلين إلى مدينة المحمدية ، ثم رحلوا من المحمدية إلى المهدية ، التي كان المعز بها ، وقد جعلوا باديس في تابوت[2] وحملوه على أعناقهم تتقدمه الجنود ، وتحفّ به البنود ، وتهتز من خلفه الطبول حتى لحقوا بجنازته بالقيروان[3] .

لقد مر عامان على محاولة الصلح اشتبك حماد في أثنائها مع « كرامت » عمّ المعز في « أشير » استغلالاً منه ـ كعادته ـ لأية فرصة عابرة ، وهزمه بتأثير نهب بعض أعوان كرامت لبيت ماله ، وإلا فقد كان كرامت في سبعة آلاف بينما كان حماد في ألف وخمسمائة ، كما أن أهل أشير جميعاً كانوا معه ضد حماد[4] ، وفي هذه الفترة كذلك تحرك المعز للقاء حماد (٢٢ من صفر ٤٠٨ هـ) وكان حماد يحاصر « باغاية » من ناحية « قفصة » فزحف المعز إليه فرحل عن باغاية ، والتقوا آخر ربيع الأول فاقتتلوا ، فما كان إلا ساعة حتى انهزم حماد وأصحابه ، ووضع أصحاب المعز فيهم السيف ، وغنموا مالهم من عُدد ومال وغير ذلك ، وأسر إبراهيم أخو حماد ، ونجا حمّاد وقد أصابته جراحة ، وتفرق عنه أصحابه[5] . ولم يعد في طوق حماد منزع يستطيع به أن يقف أمام أبناء أخيه الزيريين ، وكانت هذه الموقعة الأخيرة هي آخر معركة قامت بين حماد وبينهم ، ولم يجد بدأ بعدها من أن يتقدم إلى حفيد أخيه المنصور طالباً منه العفو والصلح[6] .

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٤٠٦ ، وأعمال الأعلام ٧٢/٣ .

(٣) انظر أعمال الأعلام ٧٢/٣ ، ٧٣ .

(٤) الكامل ٢٥٧/٩ .

(٥) الكامل ٢٥٨/٩ ، والعبر ٣٢٤/٦ .

(٦) ذهب صاحب الاستبصار إلى القول بأن باديس قام على ابن عمه حماد (المعروف أن حماداً عمه وليس ابن عمه) في جيوش لا تحصى فما قدر عليه ورجع عنه خاسراً ، وهو قول لم نره عند غيره من المؤرخين (انظر الاستبصار ١٦٨) .

٧ – الصلح وإعلان قيام الدولة :

ومن البديهي أن ثمة عوامل مهمة جعلت المعزّ يقبل هذا العرض من حماد ، ولم نجد فيما بين أيدينا من مصادر ومراجع ـ من تعرَّض لهذه العوامل ، ذلك أن حالة حماد كانت بالغة السوء ، فما الذي جعل المعزّ يقبل هذا العرض دون تعنت[1] ، ولا يشترط إلا ضمان صدق حماد عن طريق رهينة ابنه القائد ؟

هل يمكن أن يكون سن المعز الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة أو التاسعة[2] هو السبب في جنوح الحاكمين باسمه ، والمتولين أمره ، وعلى رأسهم ابن عمه كرامة بن المنصور[3] ، وقواده حبيب بن سعد وباديس بن أبي حمامة وأيوب بن يطوفت[4] إلى السلام ؟ ربما كان هذا أحد أسباب ذلك ، لكنه ليس السبب الرئيسي ، فهل يمكن أن يكون هؤلاء قد أحبوا أن يستفتح المعزّ ولايته بسلام يستطيعون معه أن يواجهوا المشكلات التي عادةً ما تواجه الحكام الجدد ؟ ... لربما كان هذا ـ كذلك ـ أحد الأسباب . لكننا نعتقد أن ثمة سبباً آخر جوهرياً في قبول المعزّ لهذا الصلح على هذا النحو السريع . وهذا السبب يرجع ـ في رأينا ـ إلى أن هؤلاء ، والمعز معهم ، كانوا يشعرون ـ كما أثبتت الأحداث فيما بعد ـ بأنهم سيواجهون بقوة أخرى أقوى وأكبر من حماد ، فإن الميول السنية السائدة وميول المعزّ السنية التي ظهرت منذ تقلده الأمر ـ نتيجة تربيته على يد شيخ سني كما ذكرنا من قبل ـ وحتى قبل أن يأتيه التشريف التقليدي من الحاكم بأمر الله الفاطمي ، هذه الميول كان لا بد لها من أن تقابل برد فعل فاطمي ، ولذا فقد أحب هؤلاء القائمون بالأمر باسم المعز ـ في رأينا ـ أن يتفرغوا لهذه الجبهة ، ولربما يكون قد أحبوا كذلك أن يستفيدوا من خبرة حماد ، كحاجز قوي يفصل بينهم وبين زناتة ، ويجعلهم يتفرغون للحرب ضد جبهة واحدة .

---

(١) La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P: 7.

(٢) وفيات الأعيان ٣٢٢/٤ (ترجمة المعز) ، والكامل ٢٥٧/٩ ، والعبر ٢٢٣/٦ ، وإتحاف أهل الزمان ١٣٧/١ .

(٣) أعمال الأعلام ٧٢/٣ .

(٤) الكامل لابن الأثير حوادث ٤٠٦ .

والمهم أن مصلحة رجال دولة المعز قد التقت بمصلحة حماد ، وعلى أساس من هذه المصلحة المشتركة ، تم الصلح بعد أن أرسل حماد ابنه القائد رهينة وفق شرط المعزّ ورجاله ، وبعد أن تأكد حماد بدوره ـ عن طريق أخيه إبراهيم الذي كان معتقلاً لدى رجال المعزّ منذ إحدى المعارك التي استمرت بينهما إلى سنة ٤٠٨[١]، من أن رجال المعزّ جادون في الصلح[٢]، وقد تم الصلح على أسس ، نعتقد أنها كثيرة القرابة من تلك الأسس التي كان العقد السياسي بين باديس وحماد قد بني عليها . .

ولم يأل رجال المعزّ جهداً في إكرام إبراهيم أخي حماد ، والقائد بن حماد ، فقد أطلقوا سراح الأول وخلع المعز عليه ، وأعطاه الأموال والدواب ، كما أنه ـ عندما وصله القائد ـ وبمشورة رجاله ـ أكرمه وأقطعه المسيلة وطبنة ، ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة ومقرة ، وأجرى عليه كل يوم ـ أثناء ضيافته ـ ثلاثة آلاف درهم وخمسة وعشرين قفيزاً شعيراً لدوابه ، وخلع على أصحابه مائة خلعة ، وأعطاه ثلاثين فرساً بسروج الذهب ، ولم يمسك القائمون على أمر الدولة باسم المعز ، « القائد » بل أعادوه إلى أبيه في رمضان سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) ، بعد أن أمضوا له ما سأله من الصلح[٣]وأمضوا لحماد الانفراد بعمل المسيلة وطبنة (Tebna) والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح على يديه من بلاد المغرب العربي[٤]، ورضي الجميع الصلح وحلفوا عليه ، واستقرت الأمور بينهما وتصاهرا ، وزوج المعز أخته لعبد الله بن حماد ، ورفعت أوزارها واقتسموا المظلة وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين[٥].

---

(١) انظر البيان المغرب ٤٨٨/١ .
(٢) انظر الكامل ٢٥٨/٩ .
(٣) الكامل ٢٥٩/٩ ، والمؤنس ٨٢ ، والعبر ٣٥١/٦ .
(٤) La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P : 7.
(٥) العبر ٣٢٤/٦ ، والكامل ٢٥٩/٩ La Kalaa Des Beni Hammad P: 7.
وانظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٤٨/١ .

٨ – تقييم هذا الدور الحمادي :

يكشف لنا هذا الدور ـ بجلاء ـ عن شخصية تحتل مكان الصدارة في بحثنا هذا . وهي شخصية حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية .

ولقد ظهر حماد ـ من خلال أحداث هذا الدور ـ كشخصية طاغية ، تبلغ من قوتها حد القسوة والفظاعة ، لدرجة صرفت عنه قلوب المحيطين به ، واستغلها أعداؤه أسوأ استغلال .

على أن هناك جوانب يجب أن تبرز إلى جانب هذه الناحية في تقييم حماد ، لقد كان حماد ابناً لبلكين أول ولاة المغرب بعد الفاطميين ، ولقد وجد أن حلقة الحكم قد انحدرت في بيت أخيه ، وأنه أصبح مجرد حارس ـ بلا مقابل ـ لهذا البيت ، ولقد كان حماد صريحاً مع ابن أخيه باديس حين اشترط عليه أن له جميع ما يفتحه ، وقد كان بوسع باديس أن يرفض هذا العرض ، وأن ينحي حماد جانباً . لكن قبول العرض ، ثم النكث به إنما تقع تبعته على باديس ، وهو من وجهة النظر التاريخية ، يتحمل مسئولية ما وقع من صراع بين فرعي البيت .

ومن الجلي أن الأمور قد انتهت إلى إقرار العقد السياسي ، كما نعتقد ، فثمة تشابه قوي بين مواد الصلح بين المعز وحماد سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) . وبين ما نصَّ عليه العقد السياسي بين باديس سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) ، وبالتالي فإن حماداً يكون قد وصل إلى أهدافه ، بالرغم من هزائمه المتعددة على يدي باديس والمعز .

على أن هذا لا يعني صحة ما ذهبت إليه دائرة المعارف الإسلامية ، من أن دولة بني زيري قد زالت في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، بظهور دولة بني حماد في المغرب الأوسط ، واعتراف خلفائها بالطاعة لخليفة بغداد[1] .

فالشيء الواضح أن دولة الزيريين قد بقيت أقوى دولة بربرية في المغرب لحين زحف القبائل العربية ، ثم ظهور قوة المرابطين في منتصف القرن الخامس

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٥٠٦ .

الهجري ، وأن هذه الدولة كانت تتحكم إلى حد بعيد في السياسة الخارجية لدولة بني حماد ، فقد بقيت الدولة الزيرية الممثل الأقوى للمغرب مع الفاطميين إلى إعلان خروجهم عن المذهب الشيعي سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٩ م) ، كما أن الدولة الحمادية ظلت تتظاهر بالولاء للفاطميين وفقاً لاستراتيجية المعز بن باديس ابن زيري الصنهاجي ، لدرجة أن المعز حاصر القائد بن حماد سنة ٤٣٢ هـ لمدة سنتين ، عندما حاول الخروج على المذهب الشيعي ، واضطره إلى العودة إليه [1].

ومن المظاهر التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار ـ عند النظر إلى سلوك حماد ـ في هذا التقييم ، أن حماداً ، وإن كان قد التوى في أساليبه مع مخالفيه ، وصولاً إلى أهدافه وشراسة في الانتقام ، فإنه كان وفياً بالنسبة إلى أخيه المنصور وابنه باديس ، أليس هو الذي قتل عمه ماكسن ، وطرد بقية أعمامه وأولادهم إلى الأندلس من أجل دولة الزيريين ؟ وأليس هو الذي بقي إلى مرحلة العقد السياسي ـ أوفى الزيريين للدولة القائمة ؟ كما أن جهوده في حروب زناتة ـ بهذه القوة والشراسة ـ وبالتالي في حماية الدولة الزيرية ، يجب أن تؤخذ في الاعتبار .

ومن البديهيات أنه في ميدان الحكم لا مجال للاعتماد على العاطفة الأسرية ، ولا مجال لتصوّر أن يبني إنسان دولة ليهبها ـ منحة ـ لغيره . ما لم يكن ثمة خضوع من نوع معين . عقائدياً كان هذا الخضوع أو مصلحياً أو غير ذلك . لكن الشيء الغريب حقاً في سلوك حماد ، خلال هذا الدور ، هو استعماله أساليب منفرة غير إنسانية دون أن تكون هناك ضرورة لذلك . بل دون انتظار أن تعود هذه الأساليب عليه بأية فائدة في كثير من المواقف .

ومن نظائر ذلك مواقفه من بعض جنوده ، ومواقفه من بعض المدن التي عاهدها واستسلمت له ، ثم غدر بها ، ومواقفه الأخرى التي ذكرنا نتفا منها قبل ذلك عند الحديث عن شخصيته .

---

(١) الكامل ٤٩٢/٩ ، العبر ٣٢٤/٦ (ويبدو أن خطأً وقع في كتابة الاسم فقد ذكر أنه حماد مع أن حماداً مات سنة ٤١٩ ، كما ذكر ابن خلدون نفسه ، وقد نقل هذا التصحيف الجيلالي (تاريخ الجزائر العام ٣٣٩/١) دون تعليق .

هل يمكن التماس مبرر لهذه التصرفات ؟

إن هذه التصرفات لا يمكن تفسيرها تفسيراً حقيقياً إلا بدراسة النفسية البربرية ، حين تسير في طريق السلطة ، فهي في هذه الحالة تمثل نمطاً من السلوك غريباً ، وكما ذكرنا من قبل فإن حماداً لم يكن وحده في صنهاجة هو الشخصية الطاغية القاسية التصرفات بهذه الدرجة .

إن هذه التصرفات تعكس نوعاً من المغالاة في الشعور بالذات والاستبداد بالرأي والسلطة مع الاستهانة بالدماء ، بحيث تطغى هذه الصفات على الشخصية ، فلا تترك لها فرصة الشعور بوجود الآخرين فضلاً عن احترامهم واحترام آرائهم وعهودهم .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأنماط موجودة في كل الأجناس البشرية وقد شهدتها كل الدول على اختلاف في الدزجة والصورة .

لكن مع وجود هذه الظاهرة الشاذة في كل الأجناس ، فنحن لا نعفي صاحب هذا السلوك من مسئوليته التاريخية ، وبالتالي فإن هذه التصرفات التي شابت سلوك حماد ، وخلطت في شخصيته بين القسوة والطغيان وبررت في ذهنه كل الوسائل في سبيل غاياته ، بل بررت لديه الاستهانة بكل القيم الإنسانية والتعاليم الدينية . وهذه التصرفات هي بلا شك مثلب خطير يؤخذ على حماد ، ويضم إلى صورة تقييمنا لهذا الدور من حياته .

وعلى أية حال ، فقد انتهى هذا الدور الطويل الشاق من حياة حماد ، بتأسيس دولة له ولبنيه من بعده عرفت في التاريخ باسم الدولة الحمادية .

الفصل الثاني

حدود الدّولة الحمّاديّة وتطوّرها

١ – مدخل .
٢ – الملامح العامة لحدود الدولة .
٣ – مرحلة أشير .
٤ – مرحلة القلعة .
٥ – مرحلة بجاية .

١ - مدخل :

الحدود الجغرافية

في دراسة أية دولة من دول المغرب العربي ، يجد الدارس نفسه أمام ظاهرة المدّ والجزر الدائمين بالنسبة لحدود هذه الدولة .

ذلك أن التقسيم الجغرافي الداخلي للمغرب العربي تقسيم لا يقوم على أسس جغرافية حقيقية ، بل إن الوحدة الجغرافية للمغرب العربي إحدى حقائق وجوده البارزة .

فالشاطئ المغربي الممتد على البحر الأبيض المتوسط غرباً من برقة حتى طنجة على المحيط الأطلسي متصل جغرافياً ، ولا علاقة لجغرافيته بالتقسيم السياسي .

والأمر نفسه في الجنوب الصحراوي الذي يشكل ظاهرة جغرافية متقاربة (طقساً ومناخاً) في كل بلدان المغرب العربي ، ومنطقة الوسط في المغرب العربي تشكل منطقة مرتفعات « نجود » تكاد تكون بدورها واحدة في المغرب العربي كله .

وكما كان البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) وسيلة للمواصلات ، كانت الصحراء وسيلة أخرى للمواصلات ، وليست الجبال عقبة بين بلدان المغرب العربي ، بل هي عامل وحدة تضاريس بينها .

إن التقسيم الجغرافي المغربي ليس تقسيماً بين الأجزاء السياسية الموجودة في المغرب يفصل كلاً منها عن غيرها بحدود طبيعية ، بل هو تقسيم يمتد أفقياً في داخل هذه البلدان بحيث يكوّن كل منها « مغرباً » مستقلاً يضم معظم البيئات الجغرافية الموجودة في المغرب ، فلا علاقة إذن بين التقسيم السياسي والاختلاف في الطبيعة .

ولعل ما يؤكد هذه الظاهرة ما نجده من انتشار قبيلة واحدة ببطونها المختلفة

بين بلدان المغرب كله ، كزناتة وصنهاجة اللتين امتدتا في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وإفريقية . كما يؤكد هذه الحقيقة كذلك قيام دول ذات وحدة سياسية حقيقية تضم قطاعاً كبيراً من بلدان المغرب كالدولة الفاطمية وكالمرابطين ... فضلاً عن دولة الموحدين التي ضمت المغرب كله بلا استثناء .

وإن تشابه العادات والتقاليد والخصائص الجنسية والظروف التاريخية بين الأقسام السياسية التي ينقسم إليها المغرب العربي لدليل واضح ينضم إلى الأدلة التي تؤكد التقارب الجغرافي بين بيئات المغرب التي تتشكل منها أقسامه السياسية .

وقد اصطلح الجغرافيون العرب على تقسيم المغرب في هذه العصور إلى أقسام ثلاثة :

إفريقية (تونس) ، المغرب الأوسط (الجزائر) ، والمغرب الأقصى (مراكش) .

أما ولاية « برقة » التي كانت تطلق على ليبيا ، فكان يغلب عليها التبعية لمصر التي كانت تتزعمها في هذه العصور دولة الخلافة الفاطمية .

وبتأثير مظاهر التقارب التي ذكرناها ، كان تذبذب الحدود بين بلدان المغرب العربي ظاهرة مألوفة ومكرورة ، ومعظم الدول التي قامت في المغرب العربي ، قد خضعت حدودها لهذا المدّ والجزر تبعاً لقوتها وضعفها ، بل تبعاً لاتفاقات سياسية داخلية ، وقد ساعد على بروز هذه الظاهرة ـ الصراع القبائلي ، الذي يحكم المغرب في هذه العصور ... ذلك الصراع الذي جعل الحدود الجغرافية دائمة التقلب إلى حد بعيد .

لقد تميزت حدود بلدان المغرب العربي في هذه العصور بأنها كانت حدوداً متغيرة سريعة التقلب ، حتى خلال حياة الدولة الواحدة ... بل ربما خلال حياة الحاكم الواحد .... فكيف يمكن التغلب على هذه الظاهرة ؟

كيف يمكن أن نصل إلى حدود دولة ـ كالدولة الحمادية ـ مثلاً ؟

لقد رأيت أمامي عدة تحديدات لهذه الدولة ... وبينما كان بعضها يتحدث عن الدولة بنوع من الإعجاب ، وبالتالي يعطيها أعمق اتساع جغرافي وصلت إليه ، ويتجاهل أن هذا الاتساع لم تصل إليه الدولة إلا في النصف الثاني من حياتها ، ولم يلبث إلا سنوات معدودة ـ شكلياً ـ ثم فقدته الدولة ، ولم تملك

القدرة على إرجاعه بفعل المشاكل الأخرى الكبيرة المحيطة بها ، وعلى رأسها مشكلة القبائل العربية التي زحفت على المغرب منذ سنة ٤٤٢ هـ (١٠٤٩ م) بإيعاز من المستنصر الفاطمي ووزيره اليازوري .

وفي الجانب الآخر ... راحت بعض الكتابات تصور الدولة على أنها ـ جغرافياً ـ لم تتعدّ عمالتي قسنطينة والجزائر .

من هنا وجدت نفسي أمام منهج فرض نفسه عليَّ في دراسة حدود الدولة الحمادية ... هذا المنهج هو ما يمكن أن نسميه بدراسة « تاريخ حدود الدولة الحمادية » .

وقد تناولت في هذا التاريخ ... الظواهر العامة لهذه الحدود التي امتدت بين أعمق حدود المد وأعمق حدود الجزر ... ثم قسمت هذه الحدود ... تقسيماً ارتبط إلى حد كبير بالعاصمة التي ارتكزت عليها الدولة كنقطة انطلاق في البناء والحكم ـ دفاعاً وهجوماً ـ نظراً للدور الذي كانت تلعبه العاصمة في هذه الفترة ... ونظراً لأن كل عاصمة من عواصم الدولة كانت ـ فعلاً ـ نقطة انطلاق إلى مرحلة جديدة تتبعها حدود جديدة ، فليست « الحدود » إلا تابعاً لوضعية الدولة ، ومستواها من القوة والضعف ، ورصيدها من الحضارة والتفوق .

وعلى هذا الأساس سرت في دراستي لحدود الدولة الحمادية .

٢ – الملامح العامة لحدود الدولة :

تعرضت حدود الدولة الحمادية ـ على امتداد تاريخها ـ لعديد من التغييرات المتتابعة . فقد وضعت حدودها ـ في المرحلة الأولى ـ على أساس ملكية مشاعة قابلة للتعديل بحسب جهود منشئها ، كما نصَّ على ذلك العقد السياسي والصلح ، حين ذكر كل منهما أن لحماد ـ مؤسس الدولة ـ ما يفتحه من بلاد المغرب . كما أن طبيعة العلاقات السياسية كانت تخضع ـ في ذلك الحين ـ لمستوى الدولة نفسها ولمقدرتها على حماية حدودها ... ووفقاً لهذين العاملين كانت الدولة الحمادية تتذبذب إن جزراً وإن مداً .

على أن السمة الغالبة على هذه الحدود هي أنها جزء مما يعرف الآن ببلاد

الجزائر[1] (المغرب الأوسط) ، ولم تتعدّ حدود الدولة الحمادية الجزائر إلا في فترات قليلة من أيامها ، حين امتدت شرقاً فحكمت تونس والقيروان وصفاقس والجريد وجزيرة جربة من تونس[2] ، ولم يتح لها أن تحكم هذا الجزء المضاف إليها حكماً حقيقياً . كما أن الدولة كانت توشك ــ في أثناء هذه الفترة ــ على الدخول في مرحلة الأفول .

ولئن كان قد ثبت أن صاغية أهل إفريقية (تونس) قد صارت إلى بني حماد ، وأن تونس انقطعت عن ملك المعزّ ووفد مشيختها على الأمير الحمادي الخامس الناصر بن علناس (٤٥٤-٤٨١ هـ) (١٠٦٢-١٠٨٨ م) ، واستدعوا منه النظر إلى مدينتهم[3] فإن ذلك لم يكن إلا لسنوات قليلة ، فإن عاملهم على تونس عبد الحق بن خراسان الصنهاجي سرعان ما جاهر باستقلاله[4].

ويرى أحد المؤرخين المتأخرين أن حدود دولة بني حماد ، لم تكن تتعدى حدود عمالتي الجزائر وقسنطينة[5]. بيد أن الدولة كانت تمتد إلى الزاب[6] ووادي ريغ ، وإلى ورقلة و « ارجلان » في الجنوب ، وهذا يعطيها امتداداً كبيراً بالداخل يتعدى حدود هاتين العمالتين ، إذ أن ورقلة تتوغل في الجنوب الصحراوي الجزائري توغلاً كبيراً ، وهذا هو الذي جعل دولة الحماديين تعد الممثلة الكبرى لبلاد الجزائر خلال هذه الفترة ، أما في الشمال الساحلي فقد كانت شواطئ الدولة على الأغلب تحتل المسافة الممتدة من بونة (عنابة) وخليج سكيكدة ــ المرسى التجاري لعمالة قسنطينة[7] ــ إلى السيق (سيوسيرات) ــ القريبة من وهران

(١) انظر : Melanges d'histoire et d'archeologie de L'occident musulmane P: 20.

(٢) تاريخ الجزائر للميلي ١٩٣/٢ ، والجزائر في مرآة التاريخ ٦٨ .

(٣) انظر العبر ٣٢٦/٦ ، وإتحاف أهل الزمان ١٤٨/١ .

(٤) انظر العبر ٣٢٦/٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٣٤/٦ مادة تونس ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٢/١ .

(٥) تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٦٥/١ .

(٦) نص على ذلك الصلح بين حماد والمعز .

(٧) انظر كتاب الجغرافيا للمغربي ١٤٢ ، وصبح الأعشى ١٠٠/٥ ، وكتاب الجزائر للمدني ٢٠٤ .

وتلمسان ـ أي أن الدولة الحمادية كانت تتمتع بشاطئ كبير يمثل قريباً من نصف شاطئ الجزائر الممتد على البحر المتوسط نحو ألف ومائتي كيلومتر ، وبين بونة والجزائر مجموعة مدن ساحلية شهيرة كجيجل وبجاية وأزفون ودلّس وغيرها .

ويذهب المراكشي إلى أن حدود الدولة تمتد من قسنطينة المغرب بشرق الجزائر إلى موضع يعرف بالسيق (بسيوسيرات) في الغرب[1] وهو يرى ـ ويوافقه على ذلك بعضهم[2] ـ أن قسنطينة آخر بلاد إفريقية في ذلك الوقت ، وأن ما بعد قسنطينة غرباً من المغرب غير إفريقية ، وأول المغرب عنده بلدة من أعمال قسنطينة هي المسيلة قبلي بجاية في البر[3] .

والذي يبدو لنا أن المراكشي قد أطلق بلاد ميلة[4] وقسنطينة وسكيكدة مريداً بكل منها بداية الحد الشرقي للدولة الحمادية أو الجزائر ، إذ أنها كلها متقاربة متجاورة ، وهذا لا يتنافى مع كون «بونة» هي الحد الشرقي (الساحلي) للدولة ، كما أنه استعمل مصطلح المغرب مريداً به بلاد الجزائر (المغرب الأوسط) والمغرب الأقصى .

ويرى ابن خلدون في مقدمته أن حدود الدولة الحمادية ما بين جبال أوراس إلى تلمسان وملوية[5] . والمعلوم أن جبال أوراس هي الحد الطبيعي لعمالة قسنطينة من الشرق ، أما تحديده للحدود الغربية بتلمسان ، فيجب أن يلاحظ فيه أن عمالة تلمسان ، كانت بيد المرابطين منذ سنة ٤٧٤ هـ[6] (١٠٨١ م) ، وأنها

---

(١) المعجب ٤٣٧ .

(٢) تقويم البلدان لأبي الغدا ١٣٩ ، صبح الأعشى للقلقشندي ١٠٩/٥ .

(٣) المعجب ٤٤٢ .

(٤) كانت تعرف في القديم باسم ميلو ، وكانت لها أثناء الاحتلال الروماني قيمة كبيرة ، واستمرت قيمتها أثناء الحكم الإسلامي سواء في دولة بني الأغلب أو بني حماد (انظر الاستبصار ١١٦ ، وكتاب الجزائر للمدني ٢٢٤) .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٩١ بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .

(٦) انظر صبح الأعشى ١٥١/٥ حيث عدّ تلمسان كمملكة مستقلة في المغرب الأوسط ، ولم يكن ذلك في ظل الموحدين قط ، بل كان على عهد زناتة والمرابطين . وانظر المغرب العربي : رابح بونار ٢٣٨ .

كانت قبل ذلك بيد زناتة ، وكانت دار مملكتهم وحواليها بلاد زناتة وغيرهم[1]، فالذي نميل إليه أنه يقصد أرضاً مشتركة بين عمالتي تاهرت وتلمسان ـ ما دام يستعمل أسلوب التحديد العام لحدود الدولة ـ ولعلها أرض قريبة من منطقة السيق (سيوسيرات) الحدّ المعروف بين الدولة الحمادية وقسنطين . وقد ذكر ابن خلدون نفسه في العبر تحديداً آخر يؤكد رأينا ، فقد ذكر أن الدولة الحمادية تتكون من المسيلة وأشير وطبنة الزاب وتاهرت ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة وما يفتح من المغرب الأوسط[2]. ويؤكد هذا تحديد أبي الفدا للمغرب الأوسط ، على أنه من شرق وهران عند تلمسان مسيرة يوم في شرقيها إلى آخر حدود مملكة بجاية[3]. أما دائرة المعارف الإسلامية فترى أن دولة حماد تمتد من البحر إلى زيبان (من الشمال إلى الجنوب) . ومن حضنة إلى تيهرت[4](من الشرق إلى الغرب) ، ويبدو أن كلمة زيبان هي تحريف لكلمة بريان ـ المدينة الصحراوية الواقعة بين الأغواط وورقلة أو بين نيلي وغرداية ـ وثمة مسافة طويلة بين تحديد دائرة المعارف وتحديد المصادر السابقة ، كما أن التحديد من الشرق إلى الغرب (من الحضنة إلى تاهرت) غير دقيق كذلك ، لبعد المسافة بين الحدود التي نصت عليها المصادر وبين تحديد دائرة المعارف .

ولم يعطنا الشريف الإدريسي وهو أحد الجغرافيين المعاصرين للدولة تحديداً واضحاً لحدود الدولة الحمادية ، بل اكتفى بذكر المدن التابعة للمغرب الأوسط ، وهي عنده « تنس وبرشك وجزائر بني مزغنة وتدلس وبجاية وجيجل ومليانة والقلعة والمسيلة والغدير ومقرة ونقاوس وطبنة والقسنطينة وتيجس وباغاية وتيفاش ودور مدين وبلزمة ودار ملوك وميلة »[5] وتحديده هذا تنقصه بعض المدن التي لا شك في تبعيتها الجغرافية للمغرب الأوسط في عصره كتاهرت وكأشير ،

---

(١) الاستبصار ١٧٦ .
(٢) العبر ٣٢٤/٦ ، ٣٥٠ .
(٣) تقويم البلدان ١٢٢ لأبي الفدا طبع باريس ١٨٤٠ .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٧٩/٦ مادة جزائر .
(٥) صفة المغرب ٥٦ .

وهي كذلك تابعة سياسياً للدولة الحمادية ، كما أنه لم يعتبر تلمسان ووهران من المغرب الأوسط ، مع أنهما كانتا تابعتين له في العرف الجغرافي السائد في عصره ، على الرغم من تقلبهما من ناحية الوضع السياسي .

وأما البكري ـ وهو من أقرب الجغرافيين معاصرة للدولة ـ فلم يرد له ـ كذلك ـ تحديد واضح لحدود الدولة .

ونحن نستطيع من كل هذا الخروج بنتيجة واضحة هي أن حدود الدولة كانت على شكل مثلث قاعدته « ورقلة » في الجنوب ، وحده الشرقي « بونة » وخليج سكيكدة ، وحدّه الشمالي الغربي ـ مع بعض التجوز ـ السيق ـ (سيوسيرات) .

لقد ضمت الدولة الحمادية مجموعة من أشهر المدن الجزائرية ، كمدينة « الجزائر » ، وهي قديمة البنيان تزخر بآثار للأول ، وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم[1].

وكانت هذه المدينة في القديم تسمى ايكسيوم ، وقد خرّبت أثناء هجمات الوندال وثورات البربر إلى أن أعاد بناءها واختطها بلكين بن زيري وسميت في هذا العهد جزائر بني مزغنة[2]أو بني مرغنان .

ومن المدن الكبرى التابعة للدولة مدينة « قسنطينة » ، على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض الاستدارة لا يتوصل إليه من مكان إلا من جهة باب في غربيها ، وليس لها من داخلها سور يعلو أكثر من نصف القامة إلا من جهة باب ميلة ، ولها بابان : ميلة في الغرب والقنطرة في الشرق ، وهي باردة ساحلية يمكن أن تبقى الحنطة بها مائة سنة لا تفسد وهي من أحصن بلاد الله[3]، وبها نهر يصب في خندقها العظيم ويسمع لذلك دوي هائل ، ويرى النهر في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لشدة ارتفاع قسنطينة عن خندقها ، وهي على قطعة جبل منقطع ترتفع فيه بعض الاستدارة ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها[4]. وهي كالجزائر ،

---

(١) المغرب للبكري ٦٦ ، والاستبصار ١٣٢ .

(٢) كتاب الجزائر للمدني ص ١٩٣ .

(٣) صفة المغرب للإدريسي ٩٥ ، ٩٦ .

(٤) انظر تقويم البلدان ١٣٩ ، والاستبصار ١٦٥ ، وكتاب الجغرافيا للمغربي ١٤٢ وقد ذكر أنها آخر سلطنة بجاية .

« بها للأوائل آثار عجيبة ومبان متقنة الوضع غريبة »[1] ، وهي أم المدن بالناحية الشرقية ومركز الإدارة والتجارة والثقافة ، وأبدع مدن القطر الجزائري من حيث الموقع الطبيعي[2] ، وفيها جبال بلاد القبائل الصغرى وتشمل سلسلتي البيبان وبابور[3].

كما ضمت الدولة مدينة « تاهرت » عاصمة الرستميين ، وهي مدينة كبيرة كانت فيما سلف مدينتين كبيرتين قديمة وحديثة ، وهي على قمة جبل قليل العلوّ يسمى قرقل[4] ، والمدينة مسورة ذات أبواب كباب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها[5]. وتعتبر تاهرت أكبر مركز في الوسط الجزائري .

ومن مدن الدولة المهمة « دلس » الساحلية على بعد خمسين ميلاً من جزائر بني مزغنة ، وهي مدينة ساحلية مشهورة متحصنة على شرف . ولها سور حصين وديار ومتنزهات [6] ، وكانت في العصور الإسلامية ــ ومن بينها العصر الحمادي ــ تتمتع بمكانة علمية وفنية واسعة[7].

وقد ضمت الدولة مدينة « بسكرة » ذات الحصون الكثيرة والقرى العامرة[8]، وتدعى ملكة الجنوب . وقد ظلت في سلطة الحماديين إلى أن استولى عليها الهلاليون الأعراب .

ومن بين المدن الحمادية ــ كذلك ــ مدينة « مليانة » ، ذات الآثار الكثيرة القديمة ، وهي من بناء الروم لكن بلكين بن زيري جددها ، وتعتبر من أخصب

---

(١) رحلة العبدري ٣٢ ، والاستبصار ١٦٥ .
(٢) كتاب الجزائر للمدني ٢١٥ .
(٣) كتاب الجزائر للمدني ١٦٦ .
(٤) صفة المغرب ٨٧ ، والاستبصار ١٧٨ ، ومسالك الممالك للكرخي ٣٨ ، وتقويم البلدان ١٣٩ ، وصبح الأعشى ١١١/٥ .
(٥) المغرب للبكري ٦٦ .
(٦) صفة المغرب ٨٩ .
(٧) كتاب الجزائر ٢٠٣ .
(٨) الاستبصار ١٧٣ ، وكتاب الجزائر للمدني ١٨٥ .

بلاد إفريقية وأرخصها أسعاراً[1]، وتشرف على سهول الشلف وعلى وديان واسعة وقرى كثيرة[2] .

ومن أشهر مدن الدولة وأكثرها تعرضاً للأحداث مدينة « بونة » (عنابة) ، وهي الحد بين المغرب الأوسط وإفريقية (بين الجزائر وتونس) ، وتقع على ربوة عالية تجعل البحر يضرب في سورها ، ويعتبر مرساها ، الذي كان يسمى مرسى الزقاق ، من المراسي الصعبة[3]، وقد قدر لبونة أن تلعب دوراً مهماً في الصراع بين الحماديين والزيريين ، وبين الحماديين والقبائل العربية ، بتأثير موقعها الجغرافي .

وتحتل « سطيف » مكانة هامة بين مدن الدولة ، باعتبارها إحدى المدن الكبرى في الناحية الشرقية ، وتمتاز بخصوبتها وبقراها الكثيرة التي لا يقيم فيها إلا البربر[4] ، وحصنها كبير القطر كثير الخلق كثير المياه الأشجار المثمرة بضروب الفواكه[5]. وكان عليها سور « خرَّبتة » كتامة وهي اليوم ــ على عهد البكري المعاصر للحماديين ــ دون سور ولكنها جامعة عامرة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار[6] .

ومن مدن الدولة الحمادية مدينة « المسيلة » شمالي بشكرة وهي كثيرة الأشجار والثمار لها نهر يمر بغربها ومياهها عذبة وبينها وبين قسنطينة جبل متصل[7] ، وعليها سوران بينهما جدول ماء جارٍ له منافذ تسقى منها عند الحاجة[8].

وثمة مدن أخرى كثيرة مشهورة « كتنس » الساحلية المسورة الحصينة ذات

(١) انظر المغرب للبكري ٦١ ، والاستبصار ١٧١ .
(٢) الاستبصار ١٧١ ، وكتاب الجزائر للمدني ٢٢٣ .
(٣) الاستبصار ١٢٧ .
(٤) تقويم البلدان ١٤١ ، وانظر الاستبصار ١٧٣ .
(٥) صفة المغرب ٩٨ للإدريسي .
(٦) المغرب للبكري ٧٦ .
(٧) تقويم البلدان ص ١٣٩ .
(٨) المغرب للبكري ص ٥٩ .

القلاع والأبواب المختلفة[1] والأقاليم والأعمال والمزارع[2]. ومثل « الغدير » ، إحدى مدن الحماديين الحسنة القريبة من عاصمتهم « القلعة » الزاخرة بالبدو ذوي المزارع[3].

ومن المدن الحمادية « القل »[4] و « متيجة »[5] و « ورقلان »[6] - الحد الجنوبي للدولة الحمادية .

هذا بالإضافة إلى عواصم الدولة المتعاقبة : « أشير » و « القلعة » و « بجاية » ... تلك التي مثلت كل عاصمة منها تطوراً جغرافياً مهماً في حياة الدولة - إلى جانب التطورات الأخرى - ولذا تحتم تناول كل منها منفردة ومرتبطة بالوجود الجغرافي للدولة بالتفصيل .

٣ - مرحلة أشير :

كان انفراد حماد بحكم أشير على عهد ابن أخيه باديس ، هو أول بروز عملي لرغبة حماد في إنشاء دولة له ولبنيه من بعده .

وقد ظلت هذه المدينة تحظى بعناية حماد ، حتى بعد انتقاله إلى القلعة ، فقد كان يتردد عليها ، وإن كان يغلب عليه المكث بالقلعة[7].

وأشير (ASHIR) - تنطق بمد الهمزة ، وقد جعل ياقوت الهمز غير ممدود ، والذي نراه أنها تنطق بها معاً ، ثم بكسر الشين وسكون الياء المثناة من تحتها ، وبعدها راء مهملة[8]. وهي تقع في طرف إفريقية الغربي مقابل بجاية « جنوب

(١) المغرب للبكري ص ٦١ ، ٦٢ .
(٢) صفة المغرب ص ٨٣ ، والاستبصار ص ١٣٣ .
(٣) انظر صفة المغرب ص ٩٢ ، والاستبصار ص ١٦٧ .
(٤) كتاب الجغرافيا للمغربي ١٤٢ ، والاستبصار ١٢٧ .
(٥) المغرب للبكري ص ٦٥ .
(٦) صفة المغرب ص ١٢٠ .
(٧) تاريخ الجزائر العام ٢٣٤/١ عبد الرحمن الجيلالي .
(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٦/١ ، ٤٧ ، ومعجم البلدان لياقوت (مادة أشير) المجلد الأول ٢٦٤ ، وتقويم البلدان ص ١٢٤ .

مدينة الجزائر » والمدينة في سفح جبل تيطري وشمال قصر البخاري وجنوب شرق مليانة والخميس وغربي جبل شعبة .

وقد اختطها زيري بن مناد عندما استقل بولاية الزاب ، وكانت تسمى أشير زيري[1]، وقد اختطها للتحصن بها في سفح الجبل المسمى تيطري ، وجاء بالبنائين من المدن التي حولها ، وهي المسيلة وطبنة وغيرهما ، وشرع في إنشائها سنة ٣٣٤ هـ (٩٣٥ م) ، وأسكن الناس فيها وبنى سورها وحصَّنها ، فاتسعت خطتها واستبحر عمرانها ، ورحل إليها العلماء والتجار ، وقصدها أهل تلك النواحي ، طلباً للأمن والسلام[2] .

ولا تزال أطلال أشير باقية إلى اليوم عند « كاف الأخضر » وتسمى اليوم « بنية » أو « منزه بنت السلطان » ، وتبلغ مساحتها نحو ٩٥ فداناً ، وأطلالها الحالية مقابلة لأشير القديمة ، وما بقي من أشير القديمة هو أطلال تبعد نحو ٢٥٠٠ متر إلى الشمال الغربي من « بنية » في مقابلها . ومن آثارها ثلاثة أبواب لا زالت لها بقايا ، وعلى بعد ٥٦٠٠ متر جهة الغرب في المنحدر الشمالي لكاف الأخضر نجد أطلال منزه بنت السلطان قائمة على أعلى قمة صخرية ، ويوجد بقايا بنائية وصهريج وبرج كبير وباحة داخلية . وأما البقعة التي كانت تقوم عليها المدينة فهي حقول مزروعة اليوم[3] .

لقد مرت مدينة أشير بعدة أطوار تاريخية منذ اختطها زيري ، فقد نقل إليها بلكين بن زيري سكان تلمسان سنة ٣٦١ هـ[4]، وقام ببناء سورها سنة ٣٦٧ هـ[5] .

---

(١) الاستبصار ص ١٧٠ ، ومعجم البلدان المجلد الأول ص ٢٦٤ ، ٢٥٣ (مادة أشير) . وقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة أن أشير تقع بين حمص وبعلبك وهو خطأ واضح لم يفت المعلقان التعليق عليه (النجوم الزاهرة ٣٧١/٥) ، وانظر :
Le passé de L' Afrique du Nord (Les siecles obscures) p: 364.

(٢) معجم البلدان المجلد الأول ٢٠٣ ، والاستبصار ١٧٠ ، والعبر ٣١٣/٦ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٢٣٤/٢ ، ٢٣٥ مادة أشير ، وأعمال الأعلام ٦٣/٣ (حاشية) .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٢٣٥/٢ .

(٥) انظر المغرب للبكري ص ٤٠ .

وقد انتقل حكمها إلى بلكين بعد نزوح الفاطميين إلى مصر ، وعندما تولى المنصور جعل من أخيه « حماد » أحد حكامها ، وكان هذا أول بروز لحماد على مسرحها[1] ، وفي سنة ٣٨٧ هـ - أيام باديس - استقل حماد بها[2].

ويصفها البكري الجغرافي المعاصر للحماديين بأنها مدينة جليلة حصينة ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولاً ومراماً ، ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال في شرقيها ، وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام ، وهي مع ذلك ، بين جبال شامخة ، محيطة بها ، دائرة عليها[3].

وقد تطور الدور التاريخي الذي لعبته أشير تبعاً لمدى الاعتماد عليها ، فلما أسس حماد القلعة سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) أخذت عمارة أشير تتراجع[4] ، لكنها بقيت بالنسبة للدولة الحمادية في مكان العاصمة الثانية لا سيما وأنها كانت في موقع حيوي يحجز بين الدولة وبين زناتة ، كما أنها تقع بين عديد من المدن الهامة كالجزائر والمدية والبليدة ومليانة . وقد استطاعت أشير أن تلعب - في مرحلة تأسيس الدولة الحمادية عملياً - دوراً خطيراً ، إذ كانت الظهير الذي يحمي جيش حماد ويلجأ إليه في حروبه ضد الزيريين وحلفائهم .

وقد انتهى مركز الدور الأول الذي كانت تحتله أشير بقيام القلعة - كما ذكرنا - بيد أنها بقيت تابعة للدولة كمدينة هامة . وتعرضت لعديد من التغيرات ، فقد خربها « يوسف بن حماد » أيام ثورته على ابن أخيه محسن « الأمير الحمادي الثالث » ، واستباح أموالها وفضح حرمها سنة ٤٤٦ هـ ، ثم تراجع الناس إليها

---

(١) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه في عهد بلكين وخلفه جعل حكم أشير لحماد منذ بداية سنة ٣٧٧ ، والحق أن حماداً لم يحكمها إلا في عهد المنصور بن بلكين ، كما أن « بلكين » لم يكن حياً سنة ٣٧٧ وإنما كان المنصور هو أمير الزيريين في ذلك الوقت (دائرة المعارف ٢٣٥/٢ مادة أشير) .

(٢) العبر ٣٤٩/٦ .

(٣) المغرب ص ٦٠ .

(٤) تاريخ الجزائر للميلي ٢٢٣ .

بعد سنة ٤٥٥ هـ[١]، ثم تعرضت لغارات الهلاليين[٢]، ثم استولى عليها سنة ٤٦٨ هـ « ابن خزرون الزناتي » ، ثم أعيدت إلى بني حماد ، حتى استولى عليها المرابطون بقيادة تاشفين بن تنامر والي تلمسان[٣] ، ثم أعاد بناءها الحماديون بعد الهبوط الذي طرأ على دولتي المرابطين والزيريين إلى أن سقطت بسقوط الدولة .

٤ – مرحلة القلعة :

تمثل مرحلة قلعة بني حماد المرحلة المهمة في تاريخ الدولة الحمادية ، وليس ذلك للمدى الزمني الذي عاشته القلعة ــ كعاصمة أولى ــ في ظل الدولة وحسب (٣٩٨–٤٦٠ هـ) (١٠٠٧–١٠٦٧ م)[٤] ، بل يرجع ذلك إلى أن بناء القلعة واختيارها كعاصمة ارتبط ارتباطاً وثيقاً باستقلال شخصية الدولة الحمادية ، وبتأسيسها كدولة مستقلة ، فضلاً عن الدور الذي لعبته القلعة في حماية الدولة ــ كما أن بناءها كان تنفيذاً لشرط من أهم شروط العقد السياسي بين حماد وابن أخيه باديس .

لقد كان باعث حماد إلى بناء القلعة ــ كما رأينا ــ هو التدعيم المادي والعسكري والسياسي لاستقلال دولته ، وكان من البواعث كذلك : البحث عن مكان حصين يستطيع منه أن يحمي دولته الناشئة ، لأنه كان يحس أن أبناء أخيه المنصور لن يعجبهم هذا الاستقلال .

* * *

لم يك موقع القلعة – قبل اختياره – مجهولاً تماماً ، بل إن لهذا الموقع امتداداً تاريخياً رشحه لكي يكون المكان المختار لعاصمة الدولة الحمادية .

كان هذا الموقع محتلاً من قبل بواسطة الرومان ، كما تدل على ذلك حوائط ذات حجارة ضخمة تنتمي إلى السور القديم ، وكما تدل على ذلك فسيفساء

---

(١) المغرب للبكري ٦٠ .

(٢) تاريخ الجزائر للميلي ٢/٢٢٣ .

(٣) دائرة المعارف ٢/٢٣٥ مادة أشير .

(٤) Relation et commerce de L' Afrique septentrionale au Magreb avec les nations chretiennes — De Mas Latrie P: 32.

جميلة من الرخام تمثل انتصار أمفتريت ، عثر عليها - « بيليه » - خلال حفرياته سنة ١٩٠٨ على بعد ٧٠٠ متر جنوب المدينة[١].

ومن المعتقد أن قلعة رومانية كانت تقوم في نفس موقع القلعة[٢]. وفي القرن الرابع الهجري - أي قبل قيام القلعة الحمادية بقرابة نصف قرن - اتخذ أبو يزيد الشهير بصاحب الحمار ، والثائر على الفاطميين ، من هذا المكان حصناً يحتمي به في صد القوات الفاطمية[٣].

وتجمع المصادر التي بأيدينا على حصانة المكان الذي اختاره حماد لبناء عاصمته[٤]. والقلعة ، في هذه العصور ، كانت حصناً أو مكاناً حربياً يصلح لحماية الدولة ، وتتحقق فيه شروط خاصة [٥]، وتحت هذه التسمية ذكر لنا ياقوت الحموي أربع عشرة مدينة [٦].

ونحن نستطيع أن نستخلص من هذا أن السمة الغالبة على الدور الذي لعبته القلعة هي الحماية الحربية أكثر منها التطور الحضاري ، وقد أدت القلعة دورها إلى سنة ٤٦٠ هـ حين ظهر الهلاليون بالمغرب الأوسط وخربوها نتيجة خطأ في سياسة الأمير الناصر ، خامس أمراء هذه الدولة .

وتطلق القصبة على القلعة ، وهي تكون في وسط المدينة إذا كانت المدينة مربعة واقعة في سهل ، وتكون في أعلى الجبل إذا كانت المدينة مثلثة الشكل

---

(١) La Kalaa Des Beni Hammad P: 19 .

(٢) انظر : Encyclopedia of Islam Vol: 11, Part: 2 P: 679.

(٣) المرجع السابق نفس المكان ، وانظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ٣/٥٤ ، وقد سماها قلعة شاكر . وانظر : Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siecles Obscures) Page: 369.

وانظر خطط المقريزي ٢/١٦٢ ، ١٦٣ ، وانظر La Berberie musulmane et L'orient au moyen-âge: P: 164.

(٤) المغرب للبكري ٤٩ ومعجم البلدان ٧/١٤٩ ، وصفة المغرب للإدريسي ٩١ ، ٩٢ ، والمشترك وضعا ٣٥٧ ، وغيرها ، والاستبصار ١٦٧ .

(٥) انظر تحليل هذه الشروط في « دراسات في مقدمة ابن خلدون ٥٢٦ ساطع الحصري » .

(٦) المشترك وضعا والمفترق صقعا ٣٥٧ .

منتشرة كالبرنس[1]، على سفح الجبل كقلعة أبي مروان البوني بعنابة وقلعة بني حماد[2].

ويؤكد لنا الإدريسي وياقوت هذه الوظيفة العسكرية لقلعة بني حماد، حين يذكران لنا أن هذه القلعة ليس لها منظر ولا رواء حسن، وإنما اختطها حماد للتحصن والامتناع لكي يخفي بها رساتيق ذات غلة من الحنطة والشجر المثمر كالتين والعنب الموجود في جبالها، والذخائر والأموال المختزنة ودار الأسلحة وغير ذلك[3]، كما يؤكد هذه الوظيفة « فرديناند جوتيه »[4]، ودائرة المعارف الإسلامية[5]، و « دوبليه »[6]، حين يوضحون أن حماداً قد راعى في مكان اختيار القلعة أن يؤدي وظيفة عسكرية، تحميه من أعدائه القادمين من الغرب « زناتة » ومن أعدائه الذين يمكن أن يأتوا من الشرق « الزيريين ».

على أن هذا لا يعني أن تكون القلعة مجرد حصن عسكري، بل يعني أنها من ناحية الموقع والاستحكامات وأسلوب البناء تتطلب تحقق شروط تكفل لها تحقيق حماية الدولة، فإذا أمكن بعد ذلك أن تسير إلى آماد أخرى حضارية، فلا ضير، وهذا ما تم لقلعة بني حماد، بالرغم من تحقيقها لوظيفتها الأولى، مع مراعاة أن هذا الجانب الحضاري كان نتيجة من نتائج الأمن والسلام اللذين ساهمت في تحقيقهما القلعة وتمتعت بهما الدولة.

تقع قلعة بني حماد على جبل عجيبة البرنسية، وهو جبل عظيم من جبال كياتة، يمتاز بمناعته وبإطلالته على بحيرة الحفنة واتصاله بسهول فسيحة،

---

(١) هو غطاء مغربي على شكل العباءة أو ما شابه ذلك في المشرق العربي من الأغطية المسطحة.

(٢) الحضارة العربية، عثمان الكعاك ٦٢، وقد سماها قلعة بجاية الحمادية.

(٣) صفة المغرب للإدريسي ٩١،٩٢، ومعجم البلدان ١٤٩/٧.

(٤) Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siecles Obscures) F. Gautier, P: 368.

(٥) Encyclopedia of Islam, Volume II, P: 679.

(٦) La Kalaa Des Beni Hammad, Une capitale Berbere De L'Afrique du Nord Au XI^{e}siecle P: 9.

وسمو علوه وصعوبة ارتقائه[1] ، ويقع بقمته حصن يسمى تاقربست (بافريوشت ـ تاكربست) حيث يطل الجبل من هذا الحصن على بحيرة الحضنة المذكورة ، وحيث يتصل الجبل من أعلاه ببسط من الأرض يعتبر المنفذ الذي يمكن منه أن تملك القلعة[2] ، وتقع المدينة بين أكم وأفواز ، وقد استدار سورها فحوى جميع جبل عجيسة المعروف الآن بالمعاضيد طولاً وعرضاً[3] ، وأمامها من جهة الجنوب أرض سهلة متصلة الانفراج لا يرى الناظر فيها جبلاً عالياً ولا شرفاً مطلة إلا على بعد منها ، وعلى مسيرة ثلاث مراحل يمكن أن يرى جبالاً لا تكاد تبين[4].

والتحديد الواضح ـ الآن ـ لمكان القلعة كان لا يزال مثار خلاف بين الجغرافيين والمؤرخين المحدثين ، نظراً لمسافة الخلف الواسعة بين عاصمة الحماديين في القرن الخامس الهجري وبينها اليوم ، فهي اليوم مجرد خراائب يصعب الوصول إليها[5] ، نتيجة التخريب الذي وقع لها على يد الهلاليين ، ونتيجة التدمير الكامل الذي تعرضت له على يد الموحدين (١١٥٢ م) ، حتى لا تبقى ـ بمناعتها ـ عقبة أمام توحيد الموحدين للمغرب العربي ، ثم نتيجة لإهمالها منذ ذلك التاريخ .

إن الطريق التي تنعطف من مدينة برج بوعريريج ـ من عمالة سطيف ـ جنوباً صوب مدينة المسيلة ثم بريكة ، هي الطريق الجيدة الصالحة للوصول إلى القلعة ، لكن موقع القلعة لا يسير مستقيماً مع هذه الطريق ، إنه ينحرف يساراً عند نقطة ثلاثين كيلومتراً جنوب المسيلة[6].

---

(١) انظر صفة المغرب ص ٨٦ .
(٢) انظر صفة المغرب ص ٨٦ .
(٣) انظر صفة المغرب ٨٦ ، ومعجم البلدان ١٤٩/٧ ، مراصد الاطلاع ١١١٧ لصفي الدين البغدادي .
(٤) صفة المغرب ٩٢ .
(٥) كتاب الجزائر للمدني ٢١٨ .
(٦) نأخذ هذا الوصف من الرحلة التي قامت بها الناحية العسكرية الخامسة للجيش الوطني بقسنطينة (الجزائر) إلى القلعة بغرض اكتشاف موقعها ، انظر مجلة المجاهد السياسي عدد ٤٧٩ (٢٦ اكتوبر سنة ١٩٦٩) .

ومن الصعب الحصول على تحديد دقيق تماماً للمسافة الممتدة بين مدينتي بريكة والقلعة ، لأن الطريق عبارة عن مسلك صخري صعب شديد الالتواء ، كثير المخاوف ، بالإضافة إلى الفقر البشري والاقتصادي الذي يوحي به مظهر هذه المنطقة حالياً ، والذي أدى إلى الجهل بها . ونحن نستطيع ـ مع هذا ـ أن نطمئن إلى أن خرائب القلعة المتبقية قائمة على بعد ٣١ كيلومتراً جنوبي محطة سكة حديد برج بوعريريج BOARDG BOU-ARRIRIDJ وعلى بعد نيف وعشرين متراً شمال شرق مدينة المسيلة ، وعلى بعد ١٥ كيلومتراً شرق برج الغدير [١]. وهي على الطرف الأقصى الجنوبي لطريق كبير طبيعي يقطع التل من البحر إلى السهل . ويعتبر وادي الأكسوب والأويد وسهل المجانا والسفح المشهور بيبان (أبواب النار) ووادي حمام ، من معالم هذا الطريق الشاق [٢].

كان هذا الموقع ذا أهمية عسكرية منذ القدم ـ كما ذكرنا ـ ثم تطورت مكانته في العصر الإسلامي فأصبح في العهد البربري الإسلامي إحدى القلاع الهامة ، وقد كان اسم مكان القلعة في العهد الإسلامي العربي قلعة أبي طويل ، وقد ترجم ياقوت في « معجمه » وصاحب مختصر ياقوت المسمى « مراصد الاطلاع » لقلعة أبي طويل ترجمة مستقلة ، وذكر أنها قلعة كبيرة بإفريقية [٣]، بالإضافة إلى ترجمتهما لقلعة حماد ، بينما تعتبر قلعة أبي طويل من أحواز قلعة حماد [٤]، وليست قلعة حماد إلا عمراناً جديداً لقلعة أبي طويل .

وقد أحسن حماد اختيار موقع القلعة من الناحية العسكرية ، فهي محصورة بين سفحين شديدي الانحدار ، وإلى جانبها الأيمن شق وادي فرج الذي ينحدر

---

(١) Encyclopedia of Islam Vol. II, Part 2, P: 679.
وانظر تاريخ الجزائر للجيلالي ٣٣٥/١ ، وتاريخ الجزائر للميلي ٢٢٤/٢ ، وكتاب الجزائر للمدني ٢١٨ . وقد قدر الإدريسي المسافة بثلاثة عشر ميلا إلى المسيلة وثمانية أميال إلى الغدير وهو تقدير ـ كما نرى ـ قريب من الصحة (صفة المغرب ٩٢) .

(٢) Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siecles Obscures) F. Gautier: P: 370.

(٣) معجم البلدان ١٤٨/٧ ، ومراصد الاطلاع للبغدادي ص ١١١٧ .

(٤) أعمال الأعلام ٨٥/٣ ، والاستبصار ١٦٧ ، وتاريخ الجزائر للميلي ٢٢٤/٢ .

جنوباً إلى شط الحضنة عبر خانق سحيق كثير الشبه بخوانق شعاب الآخرة بالقبائل الصغرى ، وخانق وادي الرمل بقسنطينة [1].

وقد أجريت عدة حفريات على أنقاض آثار القلعة في التاريخ الحديث قام بها (بلانش والجنرال بيليه وفولفان) في سنوات ١٨٨٤ م ، ١٩٠٨ م ، ثم سنة ١٩٦٦ م على التوالي .... ويبدو أنه لم تظهر أثريات تخالف معطياتها المعلومات المذكورة في المراجع الحديثة ، والوارد معظمها عند الجغرافيين القدماء .

* * *

عندما أنهى حماد عملية بناء القلعة وتمصيرها لم يفته ـ لكي يحقق الغرض الحربي إلى أبعد مدى ـ أن يحيطها سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) بسور من الحجارة يبلغ ارتفاعه متراً واحداً ، ويمتد حول جبل كيانة على استدارة سبعة أميال [2]، كما أنه عمرها بمن حواليها من البربر ، ونقل إليها سكان المسيلة وحمزة ، ودمر هاتين المدينتين من أساسهما [3]، كما نقل قبيلة جراوة من أسافل وادي ملوية ، وفتح أبوابها لكل الباحثين عن معقل أمين حتى من اليهود والنصارى [4]، وازدحمت القلعة بالسكان ، وساعد على غزارة سكانها توافر الإمكانات للمهتمين بالعلوم والفنون والتجارة ، كما أن حماداً وفر بها المنشآت العامة ، فقد شيد بها المباني العظيمة والقصور المنيعة المتقنة البناء العالية السناء [5] واستكثر من الفنادق والمساجد وشجع هجرة أرباب الصنائع وأهل العلم والتجار إليها [6]، فلم تلبث القلعة أن استبحرت في العمران [7]، وأخذت تتقدم تقدماً حثيثاً حتى أصبحت من أعظم

---

(١) مجلة المجاهد عدد ٤٧٩ .

(٢) تاريخ الجزائر للميلي ٢/٢٢٤ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ١/٣٣٤ .

(٣) Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siecles Obscures) P: 368.

(٤) موجز التاريخ العام للكعاك ص ٢٥٦ .

Encyclopedia of Islam Vol: II Part: 2, P: 369. & Relation et commerce de L'Afrique septentrionale au Magreb avec le nations chretiennes ou Moyen-âge P: 32.

(٥) الاستبصار ص ١٦٨ .

(٦) تاريخ الجزائر للميلي ٢/٢٢٤ .

(٧) العبر ٦/٣٥٠ .

مدن الزاب وأجملها وأغناها وأعمرها وأخصها معالم جميلة[1].

ويصفها البكري ـ المعاصر لها ـ والذي نرجح أنه كتب عنها في فترة احتلالها المكانة الأولى في الدولة ملخصاً مستواها الحضاري ، بأنها « مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب »[2] كما أنه ذكر أكثر من طريق تصلها بغيرها من المدن والأقطار مما يدل على ثبوت هذه المكانة [3].

وقد حظيت القلعة بعد حماد بعناية لا تقل عن عنايته بها « فقد ابتنى بها أبناؤه القصور وغرسوا الجنات وأكثروا من المتنزهات ، وجلبوا إليها الماء ، وأجروا بها سواقي وجداول ، وفرقوا المياه بالحارات والدور والمساجد في القنوات ، علاوةً على ما بها من الصهاريج ، ونظموا لها أبواباً منها : باب الجنان يخرج منه على جسر إلى المسيلة ، وباب جراوة من جسر على وادي فرج ، وباب الأقواس يفضي إلى حارة جراوة »[4] .

وقد لخَّص الإدريسي ـ الذي عاصر القلعة ـ في دورها الثاني ـ المستوى الحضاري لها ، حين وصفها بأنها من أكبر البلاد قطراً ، وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمها فواكه وقصباً ، وخطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة[5]. ويذكر الإدريسي أن الحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ، ولا يقع بها تغير ، كما يذكر أنها بلاد زرع وخصب وفواكه[6]، مما يدل على أنها امتازت بمناخ معتدل بارد وإن لم يبلغ في برودته قسنطينة التي تبقى بها الحنطة مائة عام دون فساد أو تغيير – كما يذكر لنا الإدريسي ـ !!

(١) موجز التاريخ العام للجزائر ص ٢٥٦ للكعاك ، وانظر : Encyclopedia of Islam Vol.II, Part 2, P: 369.

(٢) المغرب للبكري ص ٤٩ .

(٣) المغرب للبكري ٥٣ .

(٤) تاريخ الجزائر للميلي ٢/٢٢٤ .

(٥) صفة المغرب ٨٦ للإدريسي .

(٦) صفة المغرب ٩١ .

ونحن نعتقد أن فترة الاستقلال التي تمتعت بها الدولة الحمادية منذ سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، قد كان لها أكبر الأثر في تطوير الدور الذي لعبته القلعة ، وفي تحويلها إلى عاصمة عسكرية وثقافية واقتصادية معاً .

وتدلنا الآثار المتبقية على أن النعوت التي تحدث بها الجغرافيون والمؤرخون عن القلعة لم يكن مبالغاً فيها ، فلا تزال ترتفع وسط الخرائب منارة أحد المساجد تجعل من السهل الحصول على معالم مميزة للمنطقة [١]، وهي منارة مسجد كان طوله ٦٠ متراً وعرضه ٦٥ متراً ، وكذلك آثار قصر المنار بواجهته التي تشقها خطوط كبيرة على غرار قصور بلاد ما بين النهرين ، وقصر الأمراء ومسجد القصور ، وبقايا بعض المساجد وأحواض السباحة وأعمال تنظيم الري ، وبعض بقايا السور [٢].

وقد بقيت حدود الدولة الحمادية في فترة القلعة هي الحدود التي غلبت على فترة الدولة كلها ، بعد إعلان الصلح بين المعزّ وحمّاد سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) وبقي الحماديون في المركز الذي يسمح لهم بحماية مملكتهم ، لكن في حدود اليقظة ضد الأعداء الكثر الذين لا يسمحون للدولة إلا بهذه الحماية كزناتة والمرابطين في الغرب ، والزيريين في الشرق ، والقبائل العربية التي تعبث في المغربين الأوسط والأدنى معاً . وفي هذه الفترة يمكن القول بأن الحد الشرقي للساحل الجزائري هو بونة (آخر أعمال قسنطينة) والحد الغربي الساحلي كان عند البسيق (سيوسبيرات) وفي الجنوب ورقلة .

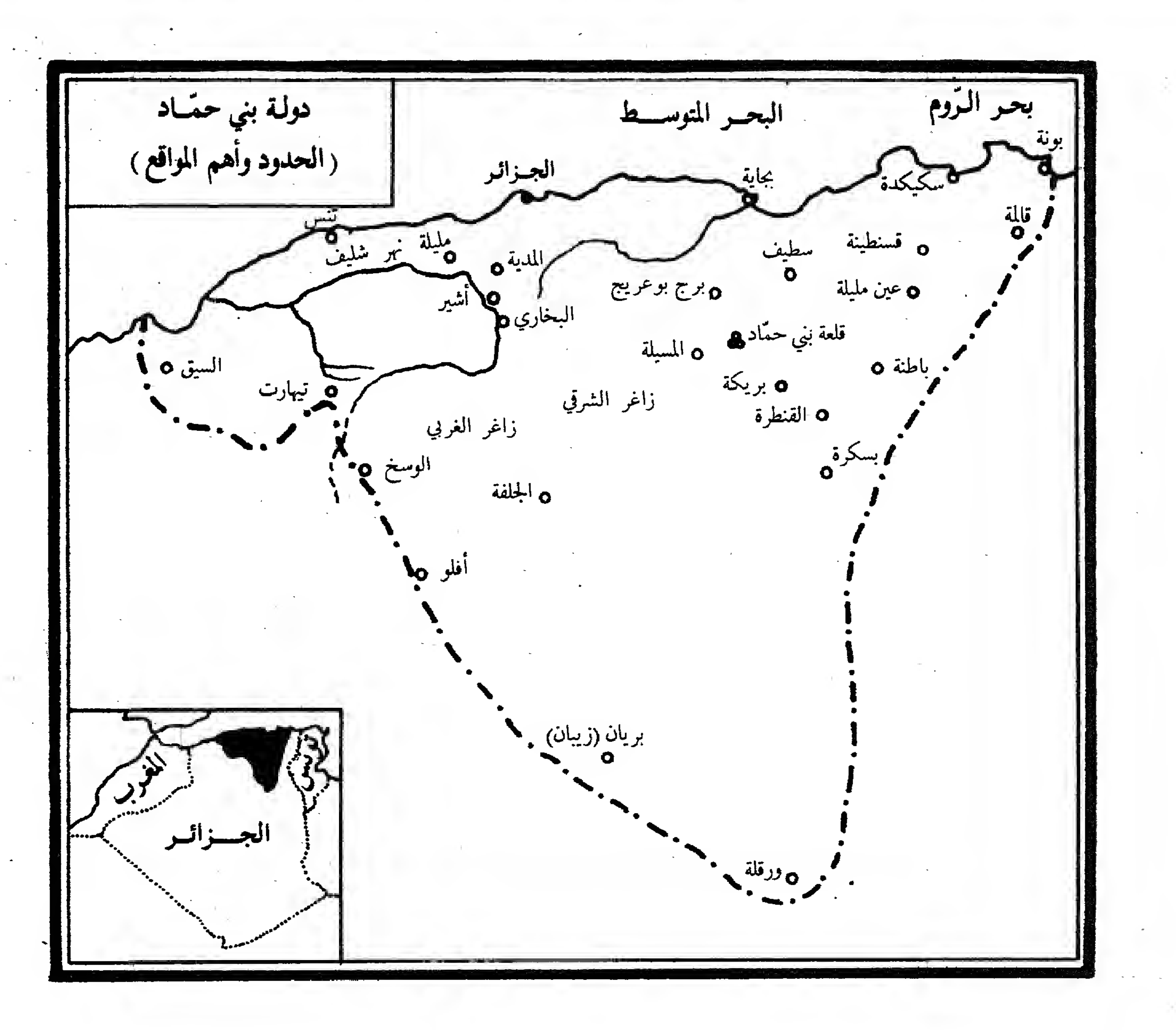
لكن في منطقة الغرب الممتدة بين الساحل والجنوب والتي تقع فيها عمالة وهران « لم تكن حدود الدولة تتجاوز مدينة تيارت » [٣]، ولم تكن محاولات السيطرة

---

(١) Le passé de L'Afrique du Nord (Les siecles Obscures) F.Gautier P: 369.

(٢) كتاب الجزائر للمدني ٢١٨ ، ومجلة المجاهد السياسي عدد ٤٧٩ ، وكتالوج الفن المعماري الجزائري ، نشر وزارة الأخبار سنة ١٩٧٠ ص ٣٠ .

(٣) La Kalaa Des Beni Hammad, Une Capitale Berbere De L'Afrique du Nord Au XI^{e} Siecle P: 1.



دولة بني حمّاد
(الحدود وأهم المواقع)
بحر الرّوم
البحر المتوسط
بونة
سكيكدة
بجاية
الجزائر
تنس
قالمة
قسنطينة
سطيف
عين مليلة
برج بوعريج
مليلة
نهر شليف
المدية
أشير
البخاري
قلعة بني حمّاد
المسيلة
باطنة
السيق
تيهارت
بريكة
زاغر الشرقي
القنطرة
زاغر الغربي
بسكرة
الوسخ
الجلفة
أفلو
بريان (زيبان)
ورقلة
المغرب
الجزائر

على بعض أجزاء من تونس (إفريقية) إلا محاولات عقيمة ، لأن مشاكل الدولة الخاصة كانت كثيرة ، ولم تستطع أن تحكم هذه الأجزاء – في هذه الفترة – حكماً حقيقياً .

* * *

وقد تعرضت القلعة لبعض الهزات ، فقد حاصرها المعز بن باديس لمدة عامين حين اختلف مع القائد بن حماد الأمير الثاني للدولة سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠م) ، ثم تصالحا وانصرف المعز عنها[١] .

وفي سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) على عهد الناصر بن علناس – خامس أمراء الدولة – تعرضت القلعة لغارات بني هلال المتعاونين مع تميم بن المعز حاكم تونس الزيرية ،فزحفوا إليها وبدأوا في تخريب منطقة الحضنة (HADNA) ثم دخلوا القلعة ينهبون ويخربون ويدمرون مظاهرها الحضارية[٢]. ورأى الناصر أن القلعة قد أصبحت مدينة منهوكة القوى مكشوفة للمغيرين فابتنى بجاية ، وانتقل إليها سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩م) .

ولم يمنع ذلك سكان القلعة من التمادي في الإقامة[٣]. لكن – مع ذلك – شرعت القلعة في الخراب[٤] .

وفي عهد العزيز الخليفة الحمادي الثامن – غزا البدو القلعة ، وأجبروا الحامية على عدم الخروج من المدينة ، ثم خربوها[٥].

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٣٩٧/١ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٦٤/١ ، وقد ذكر المرجعان أن هذا كان على عهد حماد وهو خطأ واضح لموت حماد سنة ٤١٩ وقد نقله الجيلالي عن ابن عذاري .

(٢) Encyclopedia of Islam Volume II, Part 2, P: 680
وانظر تاريخ الجزائر للميلي ٢٣٥/٢ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٦٩/١،٣٧٠ .

(٣) موجز التاريخ العام للكعاك ٢٥٦ .

(٤) أعمال الأعلام ٩٩/٣ .

(٥) Encyclopedia of Islam Vol: II, Part 2, P: 680.

ولما كانت سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) اقتلع منها يحيى بن العزيز الحمادي – آخر ملوك الحماديين – ما كان بها من أدوات الزخرف ، ونقلها إلى بجاية ، فزينها بها ، وخمد ذكر القلعة ، وبقيت مدينة تابعة لبجاية الحمادية إلى أن أناخ عبد المؤمن الموحدي بجيوشه الجرارة على إفريقية ، فهدمها[1]، وقوض ما بقي بها من بناء سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) وأخذ جميع ما فيها من مال وغيره[2].

٥ – مرحلة بجاية :

تمثل مرحلة بجاية في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضر والانفتاح والهدوء والاتساع ، كما أنها تمثل الشوط الأخير الذي انتهى بسقوط الدولة ، ذلك الشوط الذي امتد سبعة وثمانين عاماً .

ويرجع التفكير في بناء بجاية لدى الناصر – الأمير الحمادي الخامس إلى عدة أسباب اختلف حولها المؤرخون ، لكن الطابع العام لها هي أنها أسباب ترجع إلى ظروف طارئة وليست أسباباً خاضعة لتخطيط مسبق .

ويرى الرأي الأول – في تعليل بناء بجاية – أن النتائج التي أسفرت عنها موقعة سبيبة – غربي القيروان – التي هزم فيها الناصر بن علناس الحمادي سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) أمام أبناء عمومته الزيريين أصحاب تونس ، ونتيجة خيانة القبائل العربية له ، كانت هي السبب في التفكير في بناء بجاية ، ويذهب إلى هذا الرأي

---

(١) موجز التاريخ العام للجزائر (الكعاك) ٢٥٦ ، وانظر :
La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P: 1.
الكامل ١١/١٦٠ ويذكر ابن الخطيب المتوفي سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) أن القلعة في عهده قد محا محاسنها الزمان وغير حالها الحدثان (أعمال الأعلام ٣/٩٤) وتدور حول القلعة الآن ـ الحكايا والأساطير المبالغ فيها (انظر مجلة المجاهد السياسي الصادرة في ١٩٦٨/٤/١٤ م) ، وانظر : Le passé de L'Afrique du Nord (Les siecles Obscures) P: 369.
وانظر بتوسع عن موضوع هذه الأساطير La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie P: 23,24,25,26, & 27.

(٢) الكامل ١٠/٤٦ .

ابن الأثير[1] والنويري[2]، وصاحب كتاب الاستبصار[3]، وبعض المتأخرين[4].

ويضيف ابن الأثير وياقوت إلى هذا السبب رأيهما في أن بناء بجاية مرتبط بقصة الصلح بين الناصر الحمادي وتميم بن المعز بعد موقعة سبيبة ، وبقصة خيانة ابن البعبع – أحد رجال تميم – له ، وتآمره مع الناصر ، فإن الناصر كان قد ندم على تورطه في الحرب ضد بني عمومته ، ومال إلى الصلح معهم ، وشاور في ذلك وزيره أبا بكر بن أبي الفتوح الذي كان يميل إلى هذا الرأي قبل موقعة سبيبة ، فقرر الوزير إرسال رسول إلى تميم يطلب الصلح وتحسين العلاقات ، وقد قابل تميم بن المعز العرض بموقف إيجابي ، فأرسل أحد رجاله ويدعى « محمد ابن البعبع » إلى ابن عمه الناصر بن علناس ومعه شروط الصلح ، لكن ابن البعبع خان تميماً ، وانضم إلى الناصر ووعده بالمساعدة في امتلاك بلاد تميم ، وأظهر له مواطن ضعفها ، واقترح عليه بناء بجاية – في موقعها الذي كان يمرّ به وأعجبه – لتكون على الساحل ، ولتكون قريبة من إفريقية الزيرية[5].

ويرى رأي ثالث ، أن الناصر بن علناس الذي تولى الأمر بعد قتله للأمير السابق له : بلقين بن حماد ، قد كره مجاورة بني حماد الذين يميلون إلى بلقين في القلعة ، إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة إثنا عشر ألف فارس[6].

وثمة آراء أخرى يرى بعضها أن بناء بجاية يرجع إلى مجرد الخوف من غزوات الهلاليين[7]، ويرى بعضها أن بناء بجاية يرجع إلى الصدفة ، إذ أن الناصر كان يمر في طريقه إلى القلعة فأعجبته ضيعة صغيرة لصنهاجة تدعى بجاية[8].

---

(١) الكامل ٤٦/١٠ .

(٢) نهاية الأرب ٦٧/٢٢ (المجلد الثاني) .

(٣) الاستبصار ١٢٨ ، ١٦٨ .

(٤) تاريخ الجزائر للميلي ٢٢٥/٢ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٠/١ ، وانظر :
Manuel d'art Musulman L'architecture: P:98.

(٥) الكامل ٤٧/١٠ ، ومعجم البلدان ٦٢/٢ . (مادة بجاية) .

(٦) أعمال الأعلام ٦٤/٣ .

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ ، ورابح بونار ، المغرب العربي ص ٢١١ .

(٨) المجتمع المغربي للدكتور إبراهيم العدوي ٢٧٣ .

وفي تصورنا أن الرأي الأول الذي يرجع الأمر إلى خراب القلعة كنتيجة لموقعة سبيبة ، كان هو الباعث على التفكير في بناء عاصمة جديدة يمكن أن تلعب دوراً جديداً تتطلبه ظروف الدولة[1]، بيد أن هذا الرأي يمكن أن يتصل بسـ التعليلات التي وردت بعد ذلك . ولا يوجد ثمة تنافر بينهما ، ففي فترة التفكير في موقع العاصمة الجديدة ، يمكن أن تكون قصة ابن البعبع قد حدثت ، ونحن نرجح صحة حدوثها ، ويمكن أن يكون الناصر قد شارك ابن البعبع الرأي ، وتفقد المكان بنفسه ، كما أنه لا شك أن من أهداف العاصمة الجديدة ، حماية الدولة الحمادية من غارات الهلاليين ، وإتاحة مكان أفضل لها بالنسبة لمنافسيها في تونس[2]. ولا نجد أكثر وضوحاً وإيجازاً في إبراز سبب تعمير بجاية من عبارة الإدريسي « وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد »[3].

كان المكان الذي تقع فيه بجاية موقعاً لمدينة أسسها الفينيقيون تعرف باسم

---

(١) يذهب الدكتور إبراهيم العدوي إلى أن بناء بجاية كان بسبب خطة رآها الناصر لمواجهة النورمان (انظر المجتمع المغربي ٢٨٠) ، وبالنظر إلى أن بناءها كان سنة ٤٦٠ هـ بعد هزيمة الناصر في سبيبة وتهديد دولته بالضياع على يد العرب الذين عاثوا فيها ، وبالنظر إلى أن الحماديين كانوا يواجهون بقوى متعددة داخل الإطار المغربي كالزيريين وزناتة والقبائل العربية بالإضافة إلى المرابطين ، بالنظر إلى هذا نستبعد أن يكون الحماديون قد مدّوا الطرف إلى هذا الأفق السياسي البعيد ــ أي بناء بجاية لمواجهة النورمان ــ في هذه المرحلة على الأقل ، وهذا لا يمنع أن تكون بجاية قد حققت أهدافاً في مواجهة النورمان .

(٢) يذهب صاحب الاستبصار (ص ١٢٨) ويوافقه الدكتور عبد الهادي التازي محقق المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (ص ١٣٠ ــ هامش ــ) إلى أن المنصور هو الذي بنى بجاية وأنها سميت المنصورية ، والمنصور لم يكن له إلا فضل الامتداد العمراني والانتقال ــ بدوره ــ إلى بجاية ، بدلاً من القلعة ، والغريب أن الأستاذ التازي ذكر أنه اعتمد في ذلك على ابن خلدون ص (٣٥٧/٦) وبالرجوع إلى نفس الصفحة من نفس الطبعة وجد أن ابن خلدون ذكر أن بانيها هو الناصر وأنها سميت الناصرية .

(٣) صفة المغرب ص ٩٠ ، وانظر :

Les poteries et faiences de Bougie — George Marçais P: 3.

« صَلدة » ثم انتقلت إلى الرومانيين وعرفت باسم (SALDAEA) – صلداي – ثم خربت بعد ذلك ولم يعرف تاريخ اندثارها . ولكن الشيء الثابت أنها كانت من أهم مدن « نوميديا » ، وقد أقام بها الإمبراطور « أوغست » جالية رومانية ، وكانت بها أسقفية إلى أوائل القرن الخامس الميلادي[1]، وفي العصر الإسلامي ، لم يكن لها شأن ، وربما كانت على شكل قرية صغيرة مغمورة على عهد الناصر الحمادي[2]، وكانت تسكنها قبيلة تسمى بجاية أو (بوجي) يبدو أنها فرع صغير لإحدى القبائل الكبرى المنتشرة في المغرب ، ويبدو أن بجاية كانت معروفة قبل تغميرها على يد الحماديين كمرسى[3]. فابن حوقل المتقدم عن الحماديين يذكرها بهذه الصفة[4]، وقد فهم « جوتيه » ـ خطأً ـ أن ابن خلدون يحكي قصة تأسيس بجاية كأن لم يكن لها ماض[5]. على أن ابن خلدون ذكر أنها كانت قبل الناصر محلة مسكونة بقبيلة بربرية تحمل نفس الاسم[6].

ومن الواضح أن اختيار الناصر لبناء بجاية في هذا المكان لم يكن إلا نتيجة لما تتمتع به من موقع ومناخ استحوذا على إعجابه ، فهي على شكل مثلث قاعدته الميناء أو البحر الذي تقع على ساحله ، حيث تقوم كفاصل من الفواصل الكثيرة بين إفريقية (تونس) والمغرب[7]. لكنها مع ذلك ـ على حرف حجر متكئ من جهة الشمال على جبل يسمى مسيون صعب المرتقى[8]، وليس لها طريق سهل إلا من ناحية الغرب ، وباقي طرقها شرقاً وجنوباً على أوعار ، كما أنها تقع

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/٣٥٠ مادة بجاية ، موجز التاريخ العام للجزائر، الكعاك ٢٥٩ ، وكتاب الجزائر للمدني ١٨٤ ، وكتالوج بجاية ١٦ ، ١٩ .

(٢) Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siecles Obscures) P: 371.

(٣) انظر : La Kalaa Des Beni Hammad — De Beylie P: 92.

(٤) صورة الأرض لابن حوقل ص ٧٧ .

(٥) Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siecles Obscures) P: 371.

(٦) العبر ٦/٣٥٧ .

(٧) كتالوج بجاية ، وزارة الأخبار الجزائرية سنة ١٩٧٠ ص ٨ ، ومعجم البلدان ٢/٦٢ . (مادة بجاية) وانظر : Les poteries et faiences de Bougie — George Marçais P: 4.

(٨) انظر صفة المغرب ٩٠ .

بين مدينتين مهمتين هما الجزائر وقسنطينة ، وتطل على خليج يحميها من ثوران البحر ، ولذا كانت المدينة في القديم مجرد ميناء أو مرسى [1].

وتتمتع المدينة بنهر كبير يسمى « الوادي الكبير » هو متنزهها وعليه بساتينها وقصورها [2]. وهو يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم على بعد ميل منها وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلاً ، ويجوزه من شاء في كل موضع منه . وأما عند فم البحر الأبيض فيجاز بالمراكب [3] وعلى شاطئ هذا النهر تقام البساتين والمتنزهات [4]. والمدينة قطب لكثير من البلاد كسطيف وباغاية وقلعة بشر وتيفاس وقالمة وتبسة ودورمدين والقصرين وطبنة [5].

وتمتاز بجاية ـ إلى جانب الموقع ـ بمناخ معتدل جداً في الصيف ، ويكثر سقوط المطر الغزير في منطقتها ـ لا سيما في الشتاء ـ كما أن البحر الأبيض المتوسط يلطف دائماً من جوها ، ويعطيها كل مميزات وخصائص المدن الساحلية .

وعندما شرع الناصر في بنائها سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) اجتذب إليها عدداً كبيراً من السكان ، إذ كان يعفي جميع السكان الجدد من الضرائب ، وكان يجبر الأهالي على بناء المساكن ، كما كان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة أن يجلب معه حجراً أو يدفع قطعة من الذهب [6] ، ولما تم بناؤها أطلق عليها الناصر اسمه فأصبح اسمها الرسمي « الناصرية » ، ولكن لم يقدر لهذا الاسم أن يحظى باستعمال الناس ، إذ غلب على المدينة اسمها القديم المنتسب إلى أشهر قبيلة سكنتها هي قبيلة بجاية [7].

وفي العام التالي ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) انتقل الناصر إليها ، وبدأ يقوم بعملية

---

(١) معجم البلدان ٦٢/٢ ، والقاموس الإسلامي المجلد الأول ٢٧٣ ـ أحمد عطية الله .
(٢) تقويم البلدان ١٣٧ ، المعجب للمراكشي ٤٤٩ .
(٣) انظر صفة المغرب ٩٠ .
(٤) كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي ١٤٢ .
(٥) انظر صفة المغرب للإدريسي ٩١ .
(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ (مادة بجاية) ، وكتالوج بجاية ١٤ .
(٧) انظر معجم البلدان ٦٢/٢ ، ودائرة المعارف ٣٥١/٣ ، كتاب الجزائر للمدني ١٨٤ .

تحضير شاملة لها ، فأنشأ بها داراً للصناعة والأساطيل والمراكب وإنشاء السفن والحرابي حتى صارت عين بلاد بني حماد[1] ونسقها تنسيقاً بديعاً ، إذ استغل النهر القريب منها ، وأحاطه بكثير من البساتين والجنات ، وصنع عليه نواعير تسقى من النهر[2]. وفي أنف الجبل الخارج من البحر والمتصل بالمدينة ابتنى الناصر مجموعة من القصور كان أشهرها قصر اللؤلؤ الذي كان من أعجب قصور الدنيا[3]، والذي نرجّحه أن المنطقة كلها سميت باسمه لشهرته .

ويبدو أنه جعل من هذه المنطقة التي ابتنى بها قصوره منطقة خاصة أرستقراطية شبيهة بتلك الأحياء الراقية المعروفة بالأندلس ، وقد وصف صاحب الاستبصار قصورها بأنها قصور لم ير الراؤون أحسن منها ، ولا أنزه موضعاً ، وذكر أن بها طاقات مشرفةً على البحر ، عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المتينـة والمجالس المقرصة والمبنية حيطانها بالرخام الأبيض[4]، كما ابتنى رصيفاً ممتداً في البحر ، وقناطر معلقة لجر المياه ، وأحاط المدينة كلها بسور به أبراج للمراقبة[5].

وفي عهد خليفة الناصر (المنصور بن الناصر) استمرت عملية تحضير المدينة[6]، ونقل إليها كثيراً مما كان بالقلعة[7]. وقد ساعد على إعطاء مدينة بجاية أهمية خاصة منذ إنشائها ، أنها كانت ، بتحضرها الذي ذكرناه ، الملجأ الذي وفد إليه كثير من الهاربين من إفريقية بعد خراب القيروان وهزيمة المعزّ بن باديس أمام الهجمة الهلالية .

ولما كانت سنة ٥٣٨ هـ اقتلع يحيى الحمادي من القلعة كل ما كان بها من أدوات الزخرف ، ونقلها إلى بجاية فزينها بها . ويعتبر عهد يحيى الحمادي

---

(١) صفة المغرب ص ٩٠ ، والاستبصار ١٣٠ .

(٢) الاستبصار ١٣٠ .

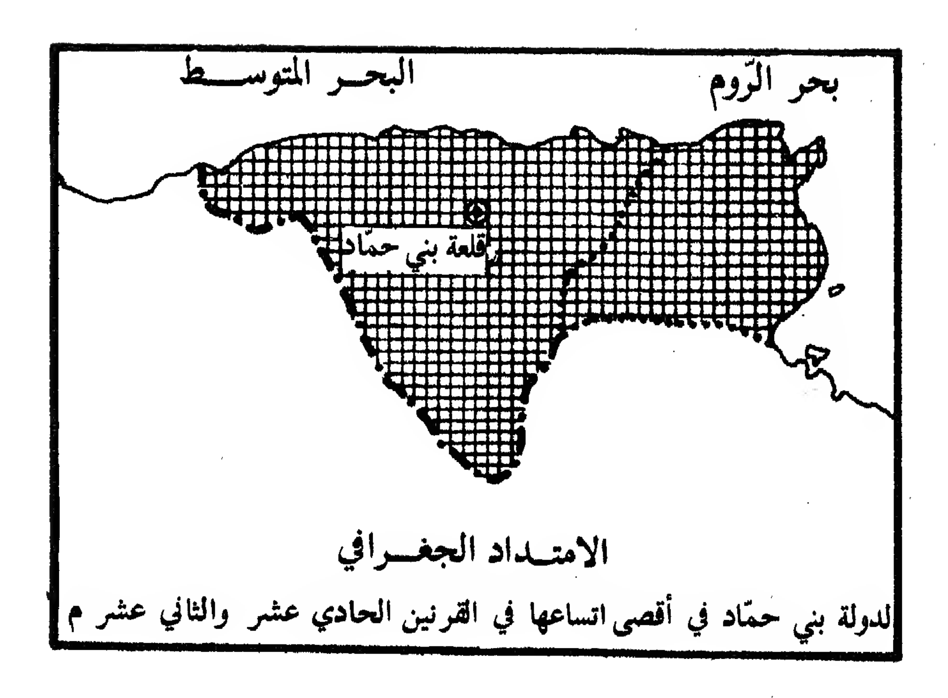
(٣) الاستبصار ١٣٠ ، دائرة المعارف ٣٥١/٣ ، تحفة الزائر ١٩ .

(٤) الاستبصار ١٣٠ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ .

(٧) كتاب الجزائر للمدني ١٨٤ .



الامتداد الجغرافي

لدولة بني حمّاد في أقصى اتساعها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر م

(٥١٥–٥٤٧ هـ) قمة ما وصلت إليه بجاية من تطور حضاري ، وإن كان هذا التطور قد حمل في طياته جراثيم انهيار الدولة .

في العهد الأخير لبجاية في العصر الحمادي كان المرابطون الذين توغلوا إلى تلمسان من أرض الجزائر سنة ٤٧٤ هـ ، واحتلوا الغرب المغربي كله ، يعانون من عوامل السقوط ، وكانوا قد فقدوا وجودهم الحقيقي كقوة تهيمن على المغرب والأندلس . وفي الفترة نفسها كان الزيريون ـ أبناء عمومة الحماديين ـ في تونس ، قد فقدوا القيروان منذ سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، وسادت بلادهم الفوضى بفعل الهجمات التي شنتها القبائل العربية التي أرسلها الخليفة الفاطمي المستنصر انتقاماً من المعزّ بن باديس ، وبفعل الاضطرابات والحروب الدائمة بينهم وبين الحماديين ، وبينهم وبين النورمان .

وقد أعطت كل هذه الظروف فرصة عظمى للحماديين ، ليحتلوا مركز الصدارة في المغرب العربي ، ولقد احتله الحماديون فعلاً ، نظراً لضعف القوى المحيطة بهم ، أكثر منه لقوتهم الذاتية ، فقد كان الحماديون أنفسهم يعانون من بعض هذه العوامل التي عانى منها الزيريون ، إلى جانب أسلوب بعض حكامهم في الحكم .

ومع كل هذه الظروف ـ فقد كانت حدود الحماديين على عهد بجاية ، هي أكبر حدود وصلت إليها الدولة ، لا سيما من الناحية الشرقية ، إذ قدر لها أن يصل نفوذها إلى القيروان وتونس ، كما أنها ـ بقوتها النسبية ـ قد أوقفت المرابطين عند تلمسان ، واضطروا إلى التراجع عن وهران وتنس بعد أن وقفوا على مشارف مدينة الجزائر ، وتم عقد سلام أدبي بين المرابطين والحماديين ، لا سيما بعد بداية اضمحلال المرابطين بعد سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ، وموت يوسف بن تاشفين ، زعيم المرابطين الكبير .

وانتهى ذلك كله بظهور الموحدين الذين قضوا على كل القوى التي تحكم المغرب ، وتمكنوا من لم شعثه تحت قيادتهم على مشارف النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

الباب الثاني

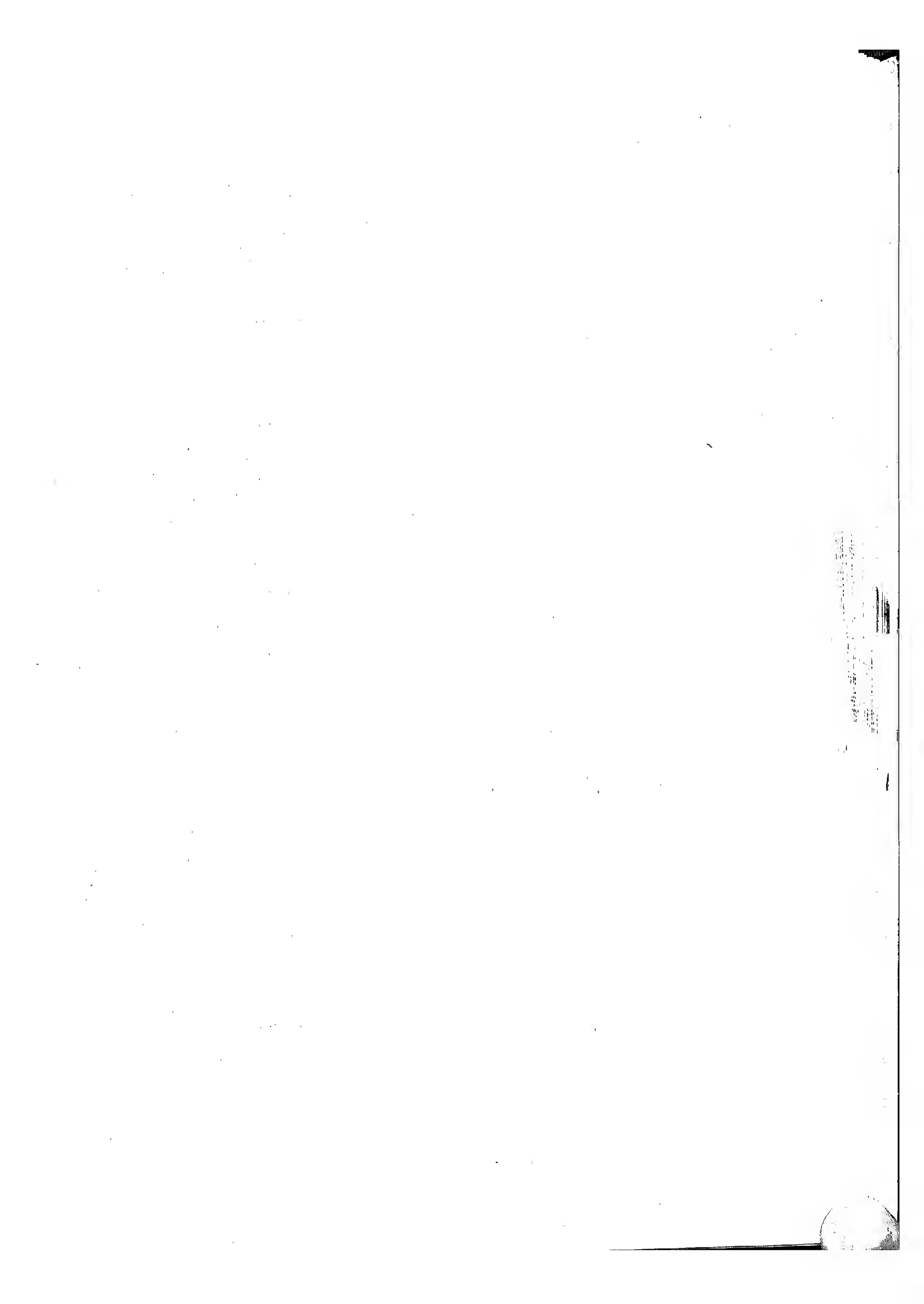
تاريخ الدولة وسياستها

الفصل الأول : التاريخ السياسي للدولة
الفصل الثاني : السياسة الخارجية للدولة
الفصل الثالث : سقوط الدولة الحمادية

الفصل الأول

التاريخ السياسي للدولة

١ – مدخل
٢ – دور الصراع المغربي
٣ – دور الاستقرار النسبي
٤ – الدور الأخير



١ – مدخل :

دام عمر الدولة الحمادية ما يقرب من قرن ونصف القرن منذ اختطّ حماد القلعة إلى سقوط الدولة بيد عبد المؤمن بن علي ، الزعيم السياسي الأول لدولة الموحدين (٣٩٨–٥٤٧ هـ) (١٠٠٧–١١٥٢ م)[1].

بيد أن العمر الذي استقرت فيه الدولة ، كدولة ذات كيان سياسي محدد معترف به في المغرب العربي وغيره ، يمتد من سنة ٤٠٨–٥٤٧ هـ (١٠١٨–١١٥٢ م) ، إذ أن الفترة الممتدة من ٣٩٥ إلى ٤٠٨ هـ كانت فترة صراع من أجل إرساء دعائم مشروعية قيام الدولة وانفصالها كدولة مستقلة .

وقد حكم الدولة على امتداد هذه الفترة تسعة أمراء اختلفوا قوة وضعفاً وأسلوب حكم ، وقد كان حماد مؤسس الدولة هو أول أمرائها ، ثم خلفته ذريته من بعده إلى أن جاء يحيى بن العزيز الحمادي (٥١٥–٥٤٧ هـ) (١١٢١–١١٥٢ م) ، فكان تاسع وآخر أمراء هذه الدولة .

وتمثل الدولة الحمادية أول دولة بربرية مستقلة تحكم الجزائر في العصر الإسلامي ، ويعتبر ظهورها إبرازاً لذلك العصر السياسي من عصور المغرب

---

(١) ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني تحديدين لعمر الدولة الحمادية ، فأما أولهما فقد ذكر فيه أن عمر الدولة الحمادية ٢٧١ سنة (كتاب الجزائر ٢٩) وأما ثانيهما فقد ذكر فيه أن عمرها ١٧١ سنة (هذه هي الجزائر ٦٠) ونستطيع أن نعتبر أحد التحديدين تصحيفاً للآخر ، ومع ذلك فكلاهما غير صحيح ، إذ أن عمر الدولة بالتحديد الهجري لا يزيد عن ١٤٩ سنة وبالتحديد الميلادي ١٤٥ سنة ، ولو اعتبرنا أن بداية قيام الدولة سنة ٣٩٥ وهو تاريخ العقد السياسي ، لبقي تحديده كذلك بعيداً عن الصحة ، وقد وقع خطأ نظنه مطبعياً في (طبقات سلاطين الإسلام ص ٤٤) إذ حدد استانلي بول عمر الدولة الحمادية بتاريخ (٤٣٨ – ٥٤٧) .

الإسلامي ، الذي قُسم فيه المغرب بين أمراء برابرة متعاصرين مفككين ، يسعى كل منهم لتوسيع رقعة البلاد ، ويمكن أن يلقب هذا العصر بعصر الاستقلال البربري أو ـ عصر ملوك الطوائف ـ قياساً على أخيه المعاصر له في الأندلس ، وهو ـ في تصورنا ـ يمثل الدور الرابع من أدوار الحياة السياسية في المغرب الإسلامي ، إذ أن عصوراً سياسية ثلاثة قد سبقته وهي : « عصر الولاة (الفتوح) وعصر الممالك العربية المستقلة (الأدارسة والأغالبة والرستميين) وعصر الوحدة الفاطمية »[1] .

مرت الدولة الحمادية ـ كغيرها من الدول ـ بعدة أطوار تقلبت فيها من الصراع الطويل المستمر إلى الاستقرار النسبي والإبداع الحضاري . إلى مجرد الاستهلاك المقترن بمظاهر الترف ، فالأفول .

ومن البديهي أن حماد بن بلقين (مؤسس الدولة) يتحمل أكبر قسط في مرحلة الصراع سواء مع الزيريين أو مع زناتة ، التي امتدت دون أن تدخل الدولة في مرحلة الاستقرار النسبي الذي سمح لها بشيء من « الإبداع الحضاري » في بجاية ، ما يزيد على ستين سنة (٣٩٨-٤٦٠ هـ) .

وفي هذه المرحلة حكم أربعة من أمراء الدولة الحمادية هم : « حماد ، والقائد بن حماد ، ومحسن بن القائد ، وبلقين بن محمد بن حماد » ، كما أن الناصر بن علناس الأمير الحمادي الخامس كان قد استقر في الحكم مدة ست سنوات ، لكنها كانت صعاباً هزم فيها هزيمة كبيرة في موقعة « سبيبة » سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) وخربت القلعة ، فلم يتمكن الناصر من الدخول بالدولة في مرحلة « الإبداع الحضاري » الذي هو حصاد الاستقرار ، إلا بعد أن انتقل إلى بجاية التي يعتبر بناؤها فاتحة الدور الحضاري في عمر الدولة الحمادية . ذلك الدور الذي ارتكز على شيء من الاستقرار الذي أتيح للدولة .

---

(١) ذهب الدكتور سعد شلبي في رسالته للماجستير (ابن حمديس العقلي ٩٥) إلى تقسيم التاريخ المغربي حتى دولة الحماديين إلى قسمين (عصر الولاة ، وعصر ملوك الطوائف) وهو تعميم شديد .

وقد حكم في هذا الدور الحضاري أربعة من أمراء الدولة الحمادية (٤٦٩- ٥١٥ هـ) هم « الناصر بن علناس ، والمنصور بن الناصر ، وباديس بن المنصور ، والعزيز بن المنصور » . وقد تألق الناصر والمنصور أما باديس فلم يعمر في الحكم إلا ثمانية أشهر وأياماً ، أما العزيز فقد كانت أيامه امتداداً للناصر والمنصور ، وإن كانا قد اشتهرا أكثر منه لدى جمهرة المؤرخين على أنهما الممثلان لهذا الدور الحضاري . مع أنه في حقيقة الأمر لا يقلّ عن سابقيه جهداً وأثراً .

وبوفاة العزيز سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، وتولي يحيى ابنه مقاليد الأمور[1] ، كانت الدولة ـ نتيجة عوامل كثيرة محيطة بها ، ونتيجة سلوك يحيى نفسه ـ تدخل في مرحلة القابلية للانهيار .

إننا لا نستطيع أن نزعم أن ثمة حدوداً مادية أو زمنية ملموسة تفصل بين هذه الأطوار في حياة الدولة الحمادية ، فالانتقال إلى طور التحضر الذي برز منذ الناصر ، ليس من السهل فصله عن المرحلة السابقة - مرحلة الصراع مع الأعداء المحيطين بالدولة ومحاولة البناء الداخلي ـ ، إذ أن المرحلة السابقة كانت التمهيد الطبيعي ـ بل الضروري ـ لإبراز الدور الحضاري .

كما أنه لا يمكن القول بأن مرحلة الصراع السياسي قد خلت تماماً من كل خصائص مرحلة الاتجاه إلى التحضير ، أو أن مرحلة التحضير قد خلت من كل خصائص مرحلة الصراع ... والأمر نفسه بالنسبة لمرحلة القابلية للانهيار .

وكل ما نتصوره لا يعني أكثر من غلبة خصائص أمكن بها الفصل بين عدة مراحل ، لا نشك في أنها مترابطة وأن كل مرحلة منها مكملة للمرحلة الأخرى .

---

(١) هذا هو التسلسل التاريخي الوارد في المراجع والمصادر التي رجعنا إليها . وقد حدث بعض الخلط في بعض المراجع كابن أبي دينار الذي جعل الأمير الحمادي الثالث هو « محمد بن حماد » الابن الثاني لحماد ، وهو ما لا أصل له . كما أنه تخطى « باديس » ، بالإضافة إلى « محسن » الذي أورد « محمد بن حماد » مكانه (المؤنس ص ١١٥) .

والصفة البارزة في أمراء هذه الدولة ـ مع بعض الفروق ـ هي أنهم كانوا غلاظاً أقوياء تغلب عليهم النزعة القبلية ، وامتلاك كل أزمة السلطة ، وكانوا ـ بحق ـ يمثلون في أسلوب حكمهم وفي تعاملهم مع الشعب النمط البربري في الحياة وفي القيادة ... ذلك النمط العنيف الذي يضحي في سبيل السلطة بكل شيء ، وهو فيما سوى السلطة ، إنسان ديمقراطي بفطرته ، شديد الحساسية فيما يتعلق بكرامته ، أو ما يتوهم أنه يمس وجوده أو كيانه الأدبي .

* * *

٢ – دور الصراع المغربي :

حماد وبداية عهد الاستقلال

٤٠٨–٤١٩ هـ (١٠١٧–١٠٢٨ م)

لقد نجح حماد بن بلكين بن زيري في إقامة دولة له ولبنيه ، منذ سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) .

وقد استعان حماد في إقامة دولته بكل الطرق الممكنة ، وساعدته عوامل ـ ذكرناها سابقاً ـ على الوصول إلى هدفه .

وبقيام الدولة على أساس الصلح بينها وبين الزيريين أبناء عمومتها ، دخلت في فترة سلام مع الزيريين امتدت قرابة ربع قرن ، فقد شغرت مدة حكم « حماد » الباقية (٤٠٨–٤١٩ هـ) (١٠١٧–١٠٢٨ م) كما شغرت فترةً من حكم خلفه « القائد بن حماد » من ٤١٩– إلى – ٤٣٥ هـ (١٠٢٨–١٠٤٣ م) .. فلم يصلنا خلال هذه الفترة ما يدل على وقوع خلافات بين فرعي صنهاجة الزيريين .

وخلال هذه الفترة الهادئة نسبياً مع الزيريين كان على حماد أن يقوم بتوطيد دعائم دولته التي أنهكتها الحروب المتلاحقة مع أبناء أخيه ، والتي استغرقت الفترة من (٣٩٨–٤٠٨ هـ) (١٠٠٧–١٠١٧ م) . وكان حماد ـ بدوره ـ قد أنهك نتيجة تاريخه الطويل في الحروب مع زناتة منذ أن بدأ يظهر على مسرح الأحداث .. كما أن الدولة من الناحية العملية كانت في حاجة إلى جهود داخلية كثيرة ... ولكل هذه الأسباب كانت الدولة في حاجة إلى فترة من الزمان تستطيع فيها أن تقف على قدميها .

وقد قضى حماد الفترة الباقية من عمره بعد أن اصطلح مع المعز ، مجداً في تدعيم مملكته الفتية[1].

ونحن نرجح أن القلعة لم تدخل في دور التحضر كعاصمة لائقة بدولة بني حماد إلا في هذه الفترة – إلى جانب مهمتها العسكرية ، وأما قبل ذلك فكانت مهمتها ذات طابع عسكري فقط ، فإلى هذه الفترة يعود كل ما ذكره المؤرخون حول استبحار القلعة في العمران ، واتخاذ حماد بها القصور العالية ، والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة والبساتين الأنيقة[2]. كما أن أعداداً كبيرة قد هاجرت إليها في هذه الفترة بعد أن صارت عاصمة دولة هادئة معترف بها .

والذي يبدو لنا أن حماداً قد غير من سياسته مع الرعية في هذه الفترة ؛ إذ أنه قد استفاد من دروس المعارك التي قامت بينه وبين باديس ، ولا شك أنه لام نفسه كما تدلنا الحكاية التي أوردناها سابقاً حين قارن بين نفسه وبين ابن أخيه باديس بعد موته ، وفضَّل باديس على نفسه أمام أصحابه ، وقال فيه : « مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك ويبذل فيهم النعم »[3]، كما أن أسلوب العنف في الحكم لم يعد له مبرر على عهد حماد بعد أن توطدت أركان دولته ، وهي غايته الكبرى .

وقد عمق حماد رغبته في السلام بتدعيم علاقته بأبناء أخيه المنصور في القيروان ؛ إذ زوج ابنه عبد الله بن حماد من « أمّ العلو » أخت المعز ، فازدادت المودة واستحكمت الصلة[4].

ويذكر لنا ابن الأثير ما يؤكد الصفاء بين فرعي صنهاجة في هذه الفترة

---

(١) المغرب العربي رابح بونار ٢٠٨ .

(٢) أعمال الأعلام ٨٦/٣ .

(٣) أعمال الأعلام ٧٣/٣ ، والبيان المغرب ٣٨٦/١ .

(٤) الكامل ٢٥٩/٩ ، والمغرب العربي رابح بونار ٢٠٨ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ١٩٦/٢ ، وقد ذكر الأخير أن هذا الولد مات في نفس عام الصلح ويبدو أنه غير صحيح لأن الجيلالي يذكر أن هذا الزواج كان سنة ٤١٥ ويصفه ـ عن الرقيق ـ وصفاً شاملاً (تاريخ الجزائر ٣٤٨/١) .

من حكم حماد ، حين يذكر أن حماداً توفي في شهر رجب ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) أثناء نزهته خارج قلعته بـ « تازمالت » على بعد ثمانين كيلومتراً شرقي المكان الذي أنشئت فيه بجاية ، فعظم على المعزّ موته ، لأن الأمر كان قد صلح بينهما[١].

والذي يمكن الاطمئنان إليه أن هذه الفترة من حياة حماد كانت عهد بناء وتشييد لأسس الدولة[٢]، وكانت تمهيداً للقائد بن حماد كي يتسلم من بعد أبيه العظيم دولةً ثابتة الأركان ، قوية البناء .

* * *

القائد بن حماد وبداية الصراع المغربي
٤١٩-٤٤٦ هـ (١٠٢٨-١٠٥٤ م)

وقد ساعدت عدة عوامل على أن يستقيم أمر الدولة في الحقبة الأولى من عهد القائد بن حماد (٤١٩-٤٣٠ هـ) (١٠٢٨-١٠٣٨م) - إلى جانب جهود أبيه .

ومن أبرز هذه العوامل أن القائد بن حماد نفسه كان قد لعب دوراً في توطيد أسس الصفاء بين أبيه وبين المعز بن باديس ؛ إذ كان هو السفير والرهينة التي بواسطتها تم الصلح - كما بينا سابقاً - كما أن العلاقة بين المعزّ والفاطميين في القاهرة كانت تمرّ بفترة قلق واضطراب ، وكان هذا من مصلحة القائد ، كما أن القائد - نتيجة حياته السياسية الطويلة في عهد أبيه كان « سديد الرأي عظيم القدر »[٣] .

ويعدّ ابن الخطيب من أسباب استقامة الأمر للقائد « اشتغال المعزّ بن باديس عنه بما همّه من أمر العرب »[٤] وهو سبب - وإن كان موجوداً - غير ذي قيمة ، لأن زحف القبائل العربية على المعز في القيروان لم يتم إلا بعد سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م)

---

(١) الكامل ٩/٣٥٥ .
(٢) المغرب العربي رابح بونار ٢٠٨ .
(٣) أعمال الأعلام ٣/٨٦ .
(٤) المكان السابق نفسه .

أي قبل موت القائد بخمسة أعوام ، بل إن استيلاءهم على القيروان لم يتم إلا سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م)[١]ـ أي بعد وفاته بثلاث سنوات .

وقد اعتبرنا هذه الفترة من حكم القائد امتداداً للفترة الأخيرة من حكم والده حماد ، وإن كنا لم نقع على شيء من إصلاحاته الداخلية ، مما يجعلنا نرجح أنها كانت تنظيماً للقواعد الأساسية للدولة ، تلك التي كان أبوه قد بدأ العمل فيها بالنسبة للدولة الناشئة ، ويذكر ابن خلدون أن القائد اختار أخاه « يوسف » على المغرب (الجزء الغربي من الدولة) وأخاه « ريغلان » على « حمزة » ـ إحدى المدن القريبة من القلعة ـ ، وهو يصفه بأنه « كان جباراً »[٢]. وقد بدأ القائد يدخل في طور المشاكل الخارجية منذ سنة ٤٣٠ هـ (١٠٢٩ م) ، ففي هذه السنة زحف إليه « حمامة بن زيري بن عطية الزناتي » ـ ملك فاس ـ من عاصمته « مغراوة » سنة ٤٣٠ هـ[٣](١٠٣٩ م) فهاجم غرب الجزائر ، وقد اشتبكا معاً في حروب[٤]عنيفة ، لم تسفر عن هزيمة أحدهما ، وإن كان قد قُتل من زناتة عدد وافر من الناس[٥].

وقد احتال القائد واستمال إليه بعض زناتة ، وسرَّب الأموال إليهم[٦] ، ولما أحس بذلك حمامة بن زيري المغراوي ، صالح القائد ، ودخل في طاعته ورجع إلى فاس خائباً[٧].

ويبدو أن القائد قد بدأ منذ معركته مع حمامة الزناتي يحس بقوة دولته ، كما أنه ربما أحس ببوادر ضعف تحيط بدولة المعز بن باديس . ومن هنا نراه

---

(١) إتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف ١٣٩/١ .

(٢) العبر ٢٥٢/٦ ، وقد وردت في بعض الطبعات « حمارا » . (انظر العبر طبعة بولاق ١٧٢/٦) .

(٣) العبر ٣٥٢/٦ ، وأعمال الأعلام ٨٦/٣ .

(٤) أعمال الأعلام ٨٦/٣ .

(٥) تاريخ الجزائر العام ٣٣٩/١ .

(٦) العبر ٣٥٢/٦ .

(٧) العبر ٣٥٢/٦ .

ينتهج بعد معركته الظافرة مع زناتة نهجاً يحاول به أن يظهر الاستقلال المعنوي لدولته ، وذلك عن طريق مخالفته للمعز في مجال السياسة الخارجية ، وإذْ كان المعز لم يعلن رسمياً بعد ، انفصاله عن الدولة الفاطمية ، بل كان لا يزال يرائيها ويتلقى منها الهدايا والألقاب ، فقد أقدم القائد على إعلان خروجه عن الدولة الفاطمية وخلع طاعتهم[1] ، كعملية إحراج للمعز ، وإظهار استقلاله عنه .
وقد اضطر المعز أمام استفزاز القائد إلى أن يزحف إليه من القيروان سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م)[2]، بعد أن جمع العساكر وحشدها ، ثم حاصر القلعة وضيق عليها ، واستمر على حصاره لها عامين ، وحاصر أشير ، ثم توصلا إلى الصلح[3] معاً ، فأقلع المعزّ وانكفأ راجعاً على شريطة أن يعود القائد إلى طاعة العبيديين .

ولم يختلف القائد والمعز بعد ذلك ، فإن المعزّ كان قد بدأ يدخل معركة الخلاف العلني مع الفاطميين ، كما أن القائد لم يجد فائدة في الخلاف مع المعزّ في هذه الظروف ، ويمكن أن يكون ذلك انتظاراً منه لما ينتهي إليه الأمر بين المعز وبين الفاطميين . فلما أزال المعزّ أسماءهم من السكة سنة ٤٤١ هـ[4](١٠٤٩ م) ، ودبر المستنصر الفاطمي دخول العرب إفريقية ، قائلاً : « والله لأرمينّه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة » ، وأباح للعرب مجاز النيل إلى المغرب[5]، عاكس القائد

---

(١) انظر أعمال الأعلام ٨٦/٣ ، وانظر العرب والعروبة ٣٣٧/٣ .

(٢) ذكر ابن خلدون أمر هذا الخلاف في موضعين من كتابه العبر الجزء السادس (٣٢٤ ، ٣٥٢) وقد ذكره في الموضع الأخير وهو يتحدث عن القائد وذكر أنه سنة ٤٣٤ ، أما في الموضع الأول فقد نسبه إلى حماد وجعله سنة ٤٣٢ وهو سهو غير مقصود ، إذ أن حماداً (مات سنة ٤١٩) كما ذكر ابن خلدون نفسه ، ويبدو أن كلمة (ابن) قد سقطت من الأصل (والصحيح أن هذا الخلاف كان بين القائد والمعز سنة ٤٣٢) . راجع الكامل ٤٩٢/٩ ، والبيان المغرب ٣٩٧/١ ، والبداية والنهاية ٤٩/١٢ حوادث سنة ٤٣٢ ، وتاريخ الجزائر العام ٣٣٩/١ .

(٣) الكامل ٤٩٢/٩ ، والعبر ٣٥٢/٦ .

(٤) أعمال الأعلام ٧٣/٣ .

(٥) أعمال الأعلام ٧٥/٣ ، وانظر :

La Kalaa Des Beni Hammad — Une Capitale Berbere De L'Afrique du Nord Au XL[e] Siecle — Paris Ernest Lerous, Editour, 1909 — General L'De Beylie. P: 7,8.

المعز في تمرده على الفاطميين[1]، وتخلى عنه ، وأظهر الولاء للفاطميين .

وعندما بعث المعزّ إليه بالصريخ ، لم يفعل سوى أن أرسل إليه كتيبة من ألف فارس[2]، انهزم المعز بسبب خيانتها وخيانة زناتة وبقية من أتباعه .

ويبدو أن هناك مراسلات تمت بين القائد والفاطميين ، فقد جاءه لقب تشريفي من قبلهم ، أطلقوا عليه فيه « شرف الدولة »[3].

ومن ذلك الوقت أخذت كفة الدولة الحمادية في الرجحان على رصيفتها في القيروان وتونس .

ويعتبر هذا ، فيما أرى ، أول اتصال في تاريخ الحماديين بدولة الخلافة الفاطمية ، وكان من نتائجه إلى جانب عوامل أخرى ـ أن القبائل العربية التي أطلقها المستنصر للزحف على المغرب ، لم تصب الجزائر على عهد القائد بسوء ، وعاش القائد راضياً بدولته ، مطمئناً على مصير مملكته[4]، إلى أن هلك في رجب[5] سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) بعد أن مكث في الحكم سبعاً وعشرين سنة ، فتولى بعده ولده محسن بن القائد بن حماد الذي لم يقدر له أن يمكث في الحكم إلا عدة

---

(١) المغرب العربي رابح بونار ٢٠٨ .

(٢) العبر ٣٢/٦ وقد ذكر (Beylie) أن المعز تحالف مع القبائل العربية ـ في المرحلة الأولى ـ ضد أبناء عمه الحماديين ، وأذن لواحد من زعماء العرب باجتياح تونس لهذا الغرض (La Kalaa. P: 8.) وحقيقة أن المعز حاول استمالة العرب لكنه لم يحاول ذلك ضد الحماديين ، فقد كانت العلاقة طيبة بينهما منذ سنة ٤٣٢ ، وإنما حاول ذلك دفاعاً عن نفسه ، ولو لم تكن العلاقة طيبة بينهما لما استغاث بالقائد بعد ذلك بقليل .

(٣) العبر ٣٥٢/٦ .

(٤) المغرب العربي بونار ٢٠٩ .

(٥) الكامل ٦٠٠/٩ ، والنويري نهاية الأرب ٦٣/٢٢ (المجلد الثاني) وقد ملنا إلى شهر رجب لأنه يتفق مع المدة التي قضاها خلفه في الحكم ، وليس إلى « ذي القعدة » الذي قال به ابن الخطيب (أعمال الأعلام ٨٧/٣) . وانظر ابن خلدون (العبر ٣٥٢/٦ ولم يحدد الشهر) .

أشهر يقدرها ابن خلدون و (دوبليه) بتسعة[1]، ويقدرها ابن الخطيب بثمانية أشهر وثلاثة وعشرين يوماً[2]، ويقدرها غيرهما بسنة[3].

محسن بن القائد

ولم يكن قصر مدة حكــم محسن بمحض الصدفة القدرية ، بل إنه مات مقتولاً بسبب مخالفته لوصايا والده له ، فإن القائد الذي عرف بأنه رجل دولة كان قد أوصى ابنه وخليفته بأمرين مهمين :

أولهما : أن يحسن إلى أعمامه[4] لا سيما عماه « يوسف وريغلان » اللذان كانا في جهاز الحكم .

وثانيهما : ألا يخرج من القلعة إلى تمام ثلاث سنين[5].

لكن محسناً لم يكد يتولى الأمر حتى خالف الوصيتين معاً ، فقد عزم على عزل جميع أعمامه من أعمالهم ، فلما ثار عليه عمه يوسف ـ عندما سمع بعزمه على عزله ـ خرج من القلعة لمحاربته[6].

وقد امتاز محسن ـ إلى جانب استبداده برأيه كما رأينا ـ بالقسوة الشديدة ، فقد قتل من عمومته أربعة[7]، وقد لخص ابن خلدون رأيه فيه بوصفه بأنه « كان جباراً »[8] كسابقه . وقد انتهت حياته على يد بلكين بن محمد بن حماد[9]، الذي قدر له أن يرث الأمر بعده ، وأن ينتقل الأمر به من يد أبناء القائد إلى يد أبناء محمد (أحد أبناء حماد الأربعة) .

وتكاد تتفق الروايات على قصة موت محسن وانتقال الأمر إلى بلكين ،

---

(١) العبر ٣٥٣/٦ ، وانظر : La Kalaa Des Beni Hammad P: 9.
(٢) أعمال الأعمال ٨٧/٣ .
(٣) الدر المكنون ، مخطوط ص ٢١٨ .
(٤) الكامل ٦٠٠/٩ .
(٥) أعمال الأعلام ٨٧/٣ .
(٦) أعمال الأعلام ٨٧/٣ .
(٧) انظر الكامل ٦٠٠/٩ ، ونهاية الأرب للنويري ٦٣/٢٢ ، (القسم الثاني) .
(٨) العبر ٣٥٢/٦ .
(٩) La Kalaa Des Beni Hammad, Beylie P: 9.

فهي تذكر أن محسناً عندما سمع بخروج عمه يوسف عليه ، وباستعداده له بتجميع الجيوش وبناء القلاع لمواجهته كقلعة الطيارة[1] ، استدعى إليه ابن عمه بلكين الذي كان واليه على اكربون[2] ، وبعثه في طلب عمه يوسف ، وأصحبه من العرب الهلاليين أميرين هما خليفة بن بكير[3] وعطية الشريف ، وأوصاهما سراً بالتخلص من بلكين وهما في طريقهما إلى يوسف[4].

والذي يبدو لنا أن محسناً لم يبعث هؤلاء في الحقيقة لقتال يوسف ، وإنما كانت مؤامرة دبرها للتخلص من بلكين ... هكذا نستنتج من تطور الأحداث ، فإننا نجد محسناً ما إن يرسل بعثهُ هذا لقتل يوسف حتى يخرج من القلعة ، ويصرح ابن الخطيب بأن خروج محسن من القلعة كان لقتال يوسف[5] وهذا يدعم ما نراه عن أن بعثة بلكين كانت مجرد مؤامرة من محسن .

وقد فطن بلكين إلى أن أمراً يدبر له ، وكان داهية ، فعمد إلى الإحسان إلى رفيقيه خليفة وعطية ، وغمرهما بالكرامة وأفاض عليهما من أنواع البرّ والجود ما حوَّل نظرهما إليه ، فعدلا عن الفكرة المبيتة ، وأخبراه بما أسرَّ لهما الأمير محسن ، فزادهما ذلك عنده شرفاً ورفعة[6]. وقد تواطأ الجميع بعد ذلك وتعاهدوا على قتل محسن ، ورجعوا إلى القلعة ، ليجدوا محسناً خارجها ، وعندما أحس بعودتهم ، وبأن بلكين معهم ، فرّ إلى القلعة ، فأدركوه في الطريق إليها ، وقُتل في ربيع الأول سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) على يد بلكين ، وأسرع بلكين بدخول القلعة فدخلها ليلاً ، وملكها[7].

---

(١) الكامل ٩/٦٠٠ ، وتاريخ الجزائر العام ١/٣٦٧ .
(٢) في الكامل (افربون) ٩/٦٠٠ .
(٣) وردت مكن ، ومعن .
(٤) الكامل ٩/٦٠٠ ، والعبر ٦/٣٥٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/١١٤ مادة بلقين .
(٥) أعمال الأعلام ٣/٨٧ ، ونهاية الأرب ٢٢/٦٣ (المجلد الثاني) .
(٦) الكامل ٩/٦٠٠ ، وتاريخ الجزائر العام ١/٣٦٧ .
(٧) أعمال الأعلام ٣/٨٧ ، العبر ٦/٣٥٣ ، وتاريخ الجزائر العام ١/٣٦٧ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢/١٩٧ ، والمغرب العربي بونار ٢٠٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/١١٤ ، وقد ذكر محرر المادة أن « محسناً » كان قد التجأ إلى القلعة ونحن نرجح رواية المراجع التي ذكرناها .

بلكين بن حماد والقوى الجديدة في المغرب
٤٤٧-٤٥٤ هـ (١٠٥٥-١٠٦٢ م)

وهكذا وصل بلكين إلى الحكم ، ليبقى فيه سبع سنوات (٤٤٧-٤٥٤ هـ) (١٠٥٥-١٠٦٢ م) ، وليؤدي نفس المهمة التي كان يؤديها حماد والقائد ، وهي التدعيم السياسي لكيان الدولة ... وسط هذه الاضطرابات المستمرة المحيطة بالدولة .

لقد مهدت عدة تطورات تاريخية لبلكين أن يؤدي دوره في تدعيم بناء دولته ، وأهم هذه التطورات دخول الفاطميين مع الزيريين في حرب مباشرة عن طريق غزو القبائل العربية لإفريقية ، وهزيمة المعز أمامها وخراب القيروان[١]. وبهذا اطمأن جانب الدولة الحمادية من ناحية أخطر مهدديها بالناحية الشرقية ، وكان الجانب الزناتي الذي يقف على الحدود الغربية يتعرض - بدوره - لعملية إنهاء لوجوده السياسي على يد المرابطين الذين زحفوا من الصحراء بحوض السنغال بعد أن ضاقت بهم[٢] ، إلى المغرب الأقصى منذ سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م)[٣]. يضاف إلى هذين العاملين ما اتصف به بلكين نفسه من صفات شاذة ، إذ كان شهماً حازماً سفاكاً للدماء[٤]، جريئاً على العظائم[٥]، لا يملأ يده إلا من لبدة الأسد ، ولا يسرح لحظه إلا في نهاب بلد مضطهد ، ولا يراح إلا وبحر الموت يلتطم ، ولا يكلم إلا حين يبتسم ، قد تجاوز في شذوذ أمنية وقهره لرعيته ، والإخافة لأقرانه ، والاستبداد على زمانه ، غاية من سلف من جبابرة الأرض ، وسمع به من فراعنة الإبرام والنقض ، إلى شهرة آثاره وتطاوح أسفاره[٦].

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١٣٩/١ .
(٢) قيام دولة المرابطين ١٢٦ .
(٣) البيان المغرب ٣٦٦/١ وما بعدها .
(٤) العبر ٣٥٣/٦ .
(٥) أعمال الأعلام ٨٧/٣ .
(٦) الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ص ١٥٨ وما بعدها .

وتعكس هذه الصفات التي وردت عن شخصية بلكين صورة الخط السياسي الذي انتهجه ، سواء في الداخل أو الخارج ، وهو خط الاستبداد في الداخل وشن الحروب المستمرة على المحيطين بالدولة في الخارج ، وقد اتجه في حربه مع المحيطين به ناحية الغرب ؛ إذ أنه لم يجد أمامه قوة كفؤاً لحربه ، إلا قوة المرابطين الذين تم لهم الاستيلاء على المغرب الأقصى ، كما أن بعض القبائل الزناتية التي انهزمت أمام المرابطين في غرب الدولة ، ربما كانت تثير القلاقل بين الحين والحين على حدود الدولة شرقاً وغرباً .

وقد نجح بلكين ـ الذي كرهته الرعية من كثرة غزواته[1] ـ في أن يصد كل القوى المحيطة بالدولة ، وأن يوفر لها الحماية والهيبة . فأما مع القبائل الزناتية فقد اتجه بلكين إليها بعد ثلاث سنوات من توليه الأمر (٤٥٠ هـ) (١٠٥٨ م) ، لكن المرجح أنه كان يناوشهم بحملات محدودة قبل ذلك التاريخ ، وهذا هو الذي جعل المؤرخين يصفونه بأنه كثير الإغارة على المغرب ، لا يسرح إلا في نهاب بلد مضطهد ـ كما ذكر ابن بسام ـ ، إذ لا يعقل أن تكون هذه النعوت حصاد معركة أو معركتين مشهورتين لهما ما يبررهما ، كما أنه لا يوجد أي دليل يذهب إلى أن بلكين هاجم المعز بن باديس في تونس ، فلم تبق إلا زناتة ، هي العدو المرشح لكثرة الإغارة عليه .

في سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) خرج بلكين إلى بسكرة لتأديب جعفر بن أبي رمان صاحبها ، لعلمه بخروجه عليه ، ولم يكتف بقتل جعفر ، وإنما نكب المدينة بأسرها ، وكسر زناتة وقتل منها عدداً كثيراً[2] ، ووطئ الدول ودوخ السهل والجبل[3].

وفي صفر سنة ٤٥٤ (١٠٦٢ م) هاجم بلكين الناحية الغربية[4] التي كان

---

(١) تاريخ الجزائر العام ٣٦٨/١ ، تاريخ الجزائر للهلالي ١٩٨/٢ .

(٢) العبر ٣٥٣/٦ .

(٣) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ١٥٩ .

(٤) ذكر ابن خلدون أن ذلك كان عام ٤٥٣ (العبر ٣٧٧/٦) والصحيح ما ذكرناه لأنه قتل أثناء عودته من الغزوة التي لم تمكث طويلا كما يؤخذ من كلام ابن بسام في =

الصراع دائراً فيها بين زناتة وبين المرابطين منذ انتهاء الدور الصحراوي للمرابطين وخروجهم من الصحراء بقيادة عبد الله بن ياسين ، ويوسف بن تاشفين ، وقد زحف المرابطون على المغرب الأقصى وهاجموا زناتة هجوماً شديداً في معاقلها بالمغرب الأقصى وبالناحية الغربية للدولة الحمادية .

وفي هذه الظروف كانت زعامة هذه الناحية توشك أن تنتقل إلى يد المرابطين الذين أصبحوا خطراً حقيقياً يهدد الدولة الحمادية .... وقد نجح بلكين في رد المرابطين وفي إخافة زعيمهم يوسف بن تاشفين الذي عاد متوجهاً إلى الصحراء ، ونزل بلكين فاس زمن فتوح بن دوناس[1]، ظافراً بالطاعة من كل المدن التي بين القلعة وبين فاس غرباً ، وأخذ رهائن من فاس وغيرها ؛ ضماناً لاستمرار الطاعة ، ولم يعد إلى قلعته إلا بعد أن جاس بلاد المغرب[2] ودوخها .

وعلى الرغم من حروب بلكين الكثيرة ، فلم يعرف منها غير هاتين الموقعتين الحاسمتين .

وانتهت حياة بلكين في نفس العام الذي عاد فيه من معركته مع المرابطين ، وعلى نحو قريب من نهاية سابقه محسن ، فإن أخاً لبلكين يسمى ، مقاتل ، كان قد مات بطريقة مفاجئة ، ولما كان بلكين يشك في كل من حوله ، فقد اتهم جماعة من بينهم زوجته تانميرت[3] ، وقتلها[4]، وهي ابنة عمه علناس ، وأخت ابن عمه « الناصر » الذي كان إلى ذلك الوقت خامل الذكر ، وكان « أصغر خلق الله عند بلقين شأناً »[5]، لكن هذه الحادثة ، كانت ذات أثر

= الموضع السابق . ولا شك في تاريخ موته الذي هو (٤٥٤ هـ) ، راجع البيان المغرب ٣٦٦/١ ، وأعمال الأعلام ٨٧/٣ .

(١) La Kalaa Des Beni Hammad, P: 9.

(٢) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ١٥٩ ، والعبر ٣٧٧/٦ ، وأعمال الأعلام ٨٨/٣ ، دائرة المعارف ١١٤/٤ مادة بلقين .

(٣) وردت « تانمرت » ، تاضميرت ، ناميرت .

(٤) العبر ٣٥٣/٦ .

(٥) الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ١٥٩ .

قوي في حياة الناصر « فقد علّمه الخوف كيف يجسر ، وهجم به ضيق المسلك على الموت وهو ينظر ، فلم يشاور إلا الحسام ، ولا استصحب إلا الإقدام ... وكان بلكين قلما يركب إلا دارعاً ، آخذاً بما يأخذ به من ذعر القلوب ووتر البعيد والقريب ، وكان مولعاً بالإدلاج إذا ارتحل ، مؤثراً للانفراد كلما ركب ونزل ، فأقسم تلك الليلة ألا يدلج إلا حاسراً ، وليقتلن الناصر ولو كان أسداً خادراً ، فأعجله « الناصر » عن الأمر ، ولما يبدو وضح الفجر ... لقيه كأنه يسلم عليه ، أو يسير بين يديه ، فما راجعه الكلام ، إلا وقد جلله الحسام ، وأراح منه البلاد والأنام ، ثم قام مقامه ، واستظل أعلامه »[1] .

وكان ذلك « بتسالة » أثناء عودة بلكين من تتبع المرابطين بعد غزو فاس [2]. وأمر الناصر بعدها بخزائن بلكين فأنهبها دؤبان العرب وصقور زناتة ، فاستخلص بذلك عيوبهم ، وأمال إليه قلوبهم ، ورحل تحت ليلته يطوي المراحل ويعتسف المجاهل ، فسبق الأخبار إلى قلعته ، فوطئ الحريم ، وتملك الظاعن والمقيم [3]. وقد وصل إليها يوم الخميس للنصف من شعبان سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) [4].

ويعتبر بلكين ــ على الرغم من قسوته هذه ــ الأمير الذي فرض هيبة الدولة الحمادية على كل جيرانها المتربصين بها ، وكان ــ كجده حماد ــ حريصاً على تدعيم كيان الدولة السياسي ، ينتهج في سبيل غايته تلك كل الوسائل وقد نجح ــ كما نجح جده ــ في ترك دولة قوية مهيبة ، وإذا كان حماد قد تركها في ظل ظروف محيطة بها تجعلها تبحث عن تدعيم بنائها الذاتي ، وتنظر فيمن حولها بعين الحذر ، فإن الظروف التي أحاطت بالدولة عندما تركها بلكين ،

---

(١) الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ١٥٩ ، ١٦٠ ، وقد أورد ابن الخطيب هذا النصّ نقلاً عن ابن بسام مع تغيير بعض الكلمات (أعمال الأعلام ٨٩/٣ وما بعدها) كما نقله عن ابن الخطيب الهلالي الميلي (تاريخ الجزائر ١٩٨/٢) .

(٢) العبر ٣٥٣/٦ وتاريخ الجزائر للهلالي ١٩٨/٢ وقد ذكر الجيلالي أنه دخل عليه في مجلس أنسه وطربه .

(٣) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ١٦٠ .

(٤) أعمال الأعلام ٦٤/٣ .

كانت شبيهة بسابقتها ، فقد كان هناك المرابطون الذين يمثلون قوة ناشئة قوية ، والهلاليون الذين كانت تروضهم الدولة الحمادية .

ومع أنه كان لا بد للناصر الحمادي الذي خلف بلكين من أن يأخذ هاتين القوتين بعين الاعتبار ، إلا أن الدولة كانت قد بلغت مرحلة من النضج تستطيع معها أن تدخل طور التحضر والانفتاح ، كما أن النجاح النسبي الذي حققه الناصر في وضع أسس ثابتة للتعامل مع المرابطين والهلاليين ، وأخيراً في وضع أسس التعامل مع أبناء عمومته الزيريين في المهدية ــ بعد موقعة سبيبة ــ هذا كله قد جعل الدولة ، منذ الناصر ، وإلى موت العزيز ثامن الأمراء الحماديين (٤٥٤-٥١٥ هـ) (١٠٦٢-١١٢١ م) تظهر كدولة متحضرة هادئة منفتحة ، تفوق ــ حضارياً ــ كل القوى الموجودة بالمغرب العربي . وكان هذا هو الطور الثاني من أطوار الدولة الحمادية .

٣ - دور الاستقرار النسبي :

الناصر بن علناس وبداية عهد الاستقرار
٤٥٤-٤٨١ هـ (١٠٦٢-١٠٨٨ م)

كان وصول الناصر بن علناس إلى الحكم (٤٥٤ هـ) (١٠٦٢ م) ــ على النحو المذكور ــ فاتحة عهد جديد من الاستقرار النسبي في تاريخ الدولة الحمادية[١] ويعتبر وصوله نقلاً للسلطة إلى الفرع الثالث من أبناء حماد (علناس) . ولقد جاء هذا الانتقال انتقالاً بالأسرة من عهد البناء السياسي إلى عهد البروز الحضاري الذي مثله أبناء علناس ، وقد لعب أبناء علناس (علاء الناس ــ أعلى الناس) الدورين الأخيرين في حياة الدولة الحمادية ، فلم تخرج السلطة من بين أيديهم حتى سقوط الدولة .

وكان الناصر مهيئاً بصفاته الخاصة ليقود هذا الدور الحضاري من حياة

---

(١) La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 9.

الدولة ، كان جريئاً على سفك الدماء ، شديد الغيرة على النساء[1]. جواداً كريماً ، يأمله الناس ، ويقصده الشعراء[2] ، من أكثر أمراء وملوك الدولة الحمادية دهاء وحزماً بل هو أعظم أمراء هذه الدولة[3] ، من الناحية الحضارية ، وكان له شأن[4] ، جعل آل حماد يغترون على عهده لعظم شأنه[5]. كما اتسم حكمه بأوج رفعة المملكة البربرية التي أسسها حماد[6].

وقد واجه الناصر بعد توليه الحكم وضعيات سياسية مختلفة تحيط بالدولة ، كانت تحتاج منه إلى كثير من الكياسة ، كي يتغلب عليها .

لقد كانت القوة المناوئة الكبرى في الناحية الشرقية قد وصلت إلى نهاية مجدها في القيروان ، وانتهت فترة مجد القيروان ، وخضعت للتخريب الهمجي على يد القبائل العربية من الهلالية والأثبج ورياح وزغبة وعدي وغيرها . ومات المعز ـ أعظم ملوك بني زيري في المهدية التي لجأ إليها بعد رحيله عن القيروان رابع عشر شعبان سنة ٤٥٤ هـ من مرض أصابه في الكبد[7]. وأصبح بعده بنو زيري في وضع لا يسمح لهم بمناجزة أية قوة نظامية في المغرب العربي ، وكانوا يلتقطون أنفاسهم لمواجهة القبائل العربية بوسائل التقريب والتفريق وغيرها .

وأما بالنسبة للدولة الحمادية ، فقد كانت هذه القبائل العربية قد أصبحت حقيقة من حقائق الوجود المغربي ، تحتاج من الناصر إلى مهارة شديدة في ترويضها ، لا سيما وأنها كانت تتوثب للهجوم على حدود الدولة .

كما أن زناتة بهذه الناحية ، لا سيما في بسكرة ، كانت تكن العداء للحماديين بعد أن قتل بلكين زعيمهم « جعفر بن أبي رمان » ـ كما ذكرنا .

---

(١) أعمال الأعلام ٩٦/٣ .
(٢) المرجع السابق نفس المكان .
(٣) كتاب الجزائر للمدني ٢٧ .
(٤) دائرة المعارف ٣٧٩/٦ .
(٥) العبر ٣٥٧/٦ .
(٦) Encyclopedia of Islam, Vol.II, Part 3, P: 862.
(٧) الحلة السيراء ٢١/٢ ، وانظر وفيات الأعيان ٣٢٢/٤ ، وانظر الدر المكنون ص ١٦٨ .

وأما الناحية الغربية ، فقد كانت تشهد صراعاً حاداً بين قوتين : قوة المرابطين الذين يشكلون الفرع الجنوبي الصنهاجي ، وقوة الزناتيين الذين يسيطرون على جزء من المغرب الأوسط في تلمسان وضواحيها ، وعلى جزء من المغرب الأقصى يمتد إلى فاس ـ ولئن كان المرابطون قد نجحوا في القضاء على قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى ، فقد بقيت بعض فلولهم بالمغرب الأوسط تتحفز للنضال من جديد[1].

ويذهب أستاذنا الدكتور حسن محمود إلى أنه لو كانت الدولة الحمادية قوية في ذلك الوقت لاطمأن المرابطون ، ولانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية ، تاركين أمر زناتة في المغرب الأوسط إلى بني عمومتهم[2] ـ وهو رأي يرجع فيه الدكتور إلى رأيه في وجود تعاطف قوي بين صنهاجة الجنوب وصنهاجة الشمال لدرجة تسمح بمثل هذه الثقة السياسية ، وبما أن الرأي الأخير لا تؤيده الطبيعة البربرية ، كما لا تؤيده مسيرة الأحداث ، فإن الرأي الأول لا يقوم على أساس قوي .

والتعليل الذي نرجحه هو أن الناصر بن علناس الذي قاد الدولة الحمادية خلال هذه الفترة ، رأى من الحكمة أن يترك القوتين المنافستين له في الجهة الغربية ينهكان بعضهما ، ورأى أن من مصلحة دولته التي كانت تروض القبائل العربية وتخشاها ، ألا تدخل في صراع مباشر مع دولة المرابطين التي كانت في أوج تقدمها الحربي .

وكان على الناصر أن يواجه هذه الوضعية بكل الوسائل الممكنة ، على الجهتين معاً ، وكما ذكرنا ، فإن الناصر لم يعمد إلى مواجهة المرابطين مباشرة ، باعتبارهم قوة تستطيع امتصاص طاقته ، كما أن المرابطين لم يروا من مصلحتهم ـ ولا من مصلحة دعوتهم ودولتهم الناشئة ـ أن يدخلوا في صراع مع الحماديين ، لا سيما بعد توغل بلكين في المغرب الأقصى واحتلاله فاس ، ولذا فقد تواضع الطرفان على سلم عرفي امتدَّ فترة طويلة من حكم الناصر . ولم تكن من استراتيجية أحدهما استفزاز الآخر ـ في هذه المرحلة على الأقل .

---

(١) انظر قيام دولة المرابطين ٢٠٥ .

(٢) نفس المكان السابق .

لكن السنوات الممتدة من ٤٧٢ إلى ٤٧٥ هـ (١٠٧٩-١٠٨٢ م) قد شهدت زحفاً مرابطياً على تلمسان التي كانت تابعة للزناتيين ، اخترقها إلى بعص مدن الجزائر كوهران وتنس وونشريس وأعمال شلف ، لكن المرابطين الذين كانوا يفكرون في الأندلس ، ويخشون العداء الصريح للحماديين ، سرعان ما رجعوا إلى مراكش سنة ٤٧٥ هـ[١] كما أن الناصر كثيراً ما كان يردد غزو المغرب بحيث أوقف المرابطين بمكانهم من تلمسان[٢].

وأما زناتة التي تمثل القوة الثانية المناوئة للدولة في ناحيتها الشرقية والغربية ، فإن الصراع بين الناصر وبينها قد استمرَّ مدة طويلة ، وكانت زناتة هي العدو التقليدي الذي واجه الناصر واستمر يواجهه مدة حكمه ، وقد بدأ ببسكرة في الناحية الشرقية ؛ لأن الثورة كانت قد استفحلت بها بقيادة بني جعفر الزناتيين ، فسرح الناصر إليها « خلف بن أبي حيدرة » ـ وزيره ووزير بلكين قبله ـ فنازلها واستعاد سيطرة الحماديين عليها[٣]، واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة ـ التي كانت العاصمة الأولى إلى ذلك الوقت ـ فقتلهم الناصر وصلبهم[٤].

ثم واجه الناصر ثورة زناتية أخرى ، حين خرج عليه علي بن ركان ـ الذي كان مقتل بلكين قد أطمعه في الحماديين ـ وبمعونة إخوانه من عجيسة هجم على « تاقربوست » شمال القلعة ، مستغلاً غيبة الناصر عن عاصمته في حملة تفقدية بالمسيلة ـ فاستولى عليها . وقد رجع الناصر إليهم مسرعاً ، وعاجلهم ، فسقط في أيديهم ، واسترد « تاقربوست » منهم ، وذبح علي ابن ركان نفسه بيده[٥] وقد بقيت زناتة الشرقية والغربية تحاول الكيد للناصر وتلتف حول كل خارج عليه ... لكن الضربات التي تلقتها من المرابطين ، والتي تلقتها من الناصر ، كانت كفيلة بأن تجعلها تبتعد عن المواجهة العلنية .

---

(١) العبر ٣٨١/٦ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٣١/٢ .

(٢) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢٠٨/٢ ، والمغرب العربي لبونار ٢١١ .

(٣) Encyclopedia of Islam, V.II, Part 3, P: 862.

(٤) العبر ٣٥٤/٦ .

(٥) العبر ٣٥٥/٦ .

ولقد بقي أمام الناصر أن يحدد علاقته بالزيريين أبناء عمومته في تونس والمهدية ، والذي تشير إليه الأحداث أن الناصر لم يوفق أول عهده في وضع أسس علاقة متينة تربطه بأبناء عمه ، لا سيما وأن ظروفهم كانت تستدعي منه مثل هذا العمل ، بل إنه وضع أمله الأكبر لتوسيع مملكته في سقوط مملكة القيروان[1] وقد كان بإمكانه التعاون مع أبناء عمومته على ترويض أو مواجهة القبائل العربية التي دمرت حضارة القيروان . وقد قدر للناصر أن يدفع ثمن خطئه هذا في موقعة سبيبة التي جره العرب إليها ضد ابن عمه تميم الذي خلف والده المعز في المهدية سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، بعد أن غلبه العرب على إفريقية ، ولم يبق له إلا ما ضمه السور[2] ، بين أمور معتلة ، وبين داء الهرم الذي يسري في دولته ويضعف من قواه[3] .

لم يعمل الناصر على خلق مثل هذا التعاون في بداية عهده ، بل إنه أخذ يقع في تميم في مجالسه ويذمه[4]، ووصل الأمر بينهما إلى الالتقاء في موقعة سبيبة سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) .

ونحن نجد عدة آراء في تعليل هذا اللقاء العدائي بين فرعي بني زيري ، فابن الأثير والنويري يوقعان التبعة كلها على الناصر ، سواء على مستوى هجاء تميم ، أو على مستوى عزمه على المسير إلى تميم وتحالفه مع بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية[5].

وابن خلدون على الرغم من ذهابه ضمنياً ـ إلى أن الناصر هو البادئ بالعداء ، إلا أنه يصور الأمر على أساس أن الناصر وقع ضحية خداع القبائل العربية التي

(١) Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 862.

(٢) العبر ٣٢٧/٦ .

(٣) انظر إتحاف أهل الزمان ١٤٠/١ .

(٤) الكامل ٢٥٧/١٠ ، وانظر نهاية الأرب للنويري جـ ٢٢ ص ٦٦ (الجزء الثاني) .

(٥) الكامل ٤٤/١٠ وما بعدها ، ونهاية الأرب ٦٦/٢٢ (الجزء الثاني مخطوط بدار الكتب المصرية) .

وفد عليه رجالاتها من الأثبج مستصرخين به على رياح[1]. ويكاد يوافق هذا الاتجاه ابن عذارى المراكشي[2] ، وابن كثير[3] .

على أن ثمة رأياً ثالثاً يتناقض تماماً مع الرأيين السابقين يذهب إليه صاحب الاستبصار ، إذ يرى أن العرب لما دخلوا إفريقية وأفسدوا القيروان وأكثر مدن إفريقية ، هرب منهم صاحب القيروان الصنهاجي وتحصن بمدينة المهدية ، وكان ابن عمه صاحب القلعة المنصور بن حماد أشد شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشاً فخرج لنصرة ابن عمه وجيَّش جيشاً كبيراً ، فلقيته العرب بجملتها بفحص سبيبة على مقربة من القيروان[4] : وهو رأي ـ كما نرى ـ يعتمد على أخطاء تاريخية كفيلة بإحباط قيمته العلمية ، فإن العرب في سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) كانوا قد انتهوا تماماً من كسر شوكة بني زيري ، وكان المعز قد استسلم تاركاً القيروان منذ سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، ثم مات سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) بالمهدية[5]، وكان ابنه تميم في حالة استسلام تام ، وليس له من هم إلا أن يخالف بين القبائل العربية ، ويسلط بعضها على بعض[6] . كما أن الناصر ـ وليس المنصور ـ هو الذي جرت معه موقعة سبيبة ، ولم يعرف عن بني حماد أنهم تحركوا بدافع النخوة القبلية لحماية أبناء عمومتهم ، وإلا لكنا قد رأيناهم مشتبكين في صراع دائم مع القبائل العربية ـ وهو الأمر الذي لم يحدث ـ ولقد جرت للمعز بن باديس ـ صاحب اليد الطولى في قيام الدولة الحمادية ـ حوادث أليمة على يد القبائل العربية ، دون أن يحرك الحماديون ساكناً ، بل إن ابن الأثير يرى أن الحماديين قد استفادوا من هذه المصائب « فقد عمرت بلادهم وكثرت أموالهم ،

---

(١) العبر ٣٥٥/٦ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 862.

(٢) البيان المغرب ٤٢٩/١ .

(٣) البداية والنهاية ٩٢/١٢ .

(٤) الاستبصار ١٢٨ ، وانظر : La Barberie Musulmane et L'Orient au Moyen-Age, Georges Marçais, P: 199.

(٥) إتحاف أهل الزمان ١٣٩/١ .

(٦) العبر ٣٢٧/٦ .

وحققوا ما في نفوسهم من الضغائن والحقود من باديس ومن بعده من أولادهم حقداً يرثه صغير عن كبير »[1].

فليس ثمة شك ــ في رأينا ــ في أن الرأيين الأولين معاً هما التعليل الصحيح لموقعة سبيبة ، فإن العرب قد سموا بالفتن بين الناصر وتميم[2]، مستغلين في ذلك أطماع الناصر في بلاد أبناء عمومته ، كما أن زناتة قد أسهمت ــ بدورها ــ في الإيقاع بين فرعي زيري على يد أبناء المعزّ بن زيري بن عطية المغراوي الزناتي[3]ــ صاحب تلمسان وما حولها ــ وقد ضمت هذه الموقعة كل أطراف الصراع في المغربين الأوسط والأدنى ، فاشترك فيها الناصر بالرجال والسلاح ، واشترك فيها إلى جانبه من العرب عدي والإثبج وبعض زناتة ، كما اشترك فيها ــ في الجانب المقابل ــ تميم بالسلاح والمال ، ومن العرب رياح وزغبة وسليم وبعض زناتة كذلك [4].

وقد لعبت أطراف الإيقاع بين الناصر وتميم دورها في تحديد نتيجة المعركة ، ضماناً لضرب القوة الكبرى الباقية في المغربين الأوسط والأدنى ، بعد استسلام بني زيري ، وبالطبع فإنه لو تمَّ انتصار الناصر في هذه الموقعة لكانت النتائج سيئة بالنسبة للعرب ولزناتة ، وقد ظهر هذا الدور السيئ حين أرسلت القبائل العربية المناوئة للناصر إلى إخوانهم الذين معه يخوفونهم منه إن قوي « وأنه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة وأنهم إنما يستمرّ لهم المقام والاستيلاء على البلاد إذا تم الخلف وضعف السلطان ، فأجابهم الآخرون إلى الموافقة ، وقالوا لهم اجعلوا أول حملة تحملونها علينا فنحن ننهزم بالناس ونعود عليهم ، ويكون لنا ثلث الغنيمة واستقرَّ الأمر على ذلك »[5].

---

(١) الكامل ٢٥٧/١٠ وانظر : La Kalaa Des Beni Hammad—Une Capitale Berbere de L'Afrique du Nord—de Beylie, P: 9.

(٢) العبر ٣٢٧/٦ .

(٣) الكامل ٢٥٨/١٠ ، والعبر ٣٥٥/٦ .

(٤) الكامل ٢٥٩/١٠ ، والعبر ٣٣٥/٦ ، والبيان المغرب ٣٠٠/١ ، وانظر نهاية الأرب للنويري جـ ٦٦/٢٢ (الجزء الثاني) .

(٥) الكامل ٢٥٨/١٠ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 863.

وعلى نحو قريب من هذا الدور قام أبناء المعزّ المغراوي الزناتي بالنسبة لزناتة التي مع الناصر[1]. وما إن التقى الطرفان بفحص سبيبة غربي القيروان على نحو خمسين كيلومتراً جنوب الإربس[2]ـ من أعمال الكاف على مقربة من سوفس (Sufes) القديمة ، حتى انهزم الناصر ووقع في جنده القتل ، وقتل فيمن قتل أخو الناصر القاسم بن علناس ـ الذي كان قد نصحه بعدم الخروج مع العرب ـ وقتل كاتبه ، وغنمت العرب جميع ما كان في العسكر من مال وسلاح ، ونجا الناصر في قلّ من أتباعه لا يزيدون عن المائتين ، فلحق بقسنطينة ثم بالقلعة[3]. « وقد أرسل العرب الألوية والطبول وخيام الناصر بدوابها إلى ابن عمه تميم ، فردّها وقال : يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي »[4]، وظهر عليه من الحزن بقوة العرب ما لم يوصف[5].

وتلاحقت طوائف العرب بأخلافهم إلى الجزائر عن طريق سبيبة ، فتبسه ، فجنوب الأوراس ، وقرى الزاب ، وسلكوا طريقهم ما بين الأطلسين التلي والصحراوي حتى انتهوا إلى جبال البيبان وباجة وجبال بايور[6].

لقد بلغت حال الدولة بعد موقعة سبيبة حداً كبيراً من السوء ، ولقد أصبحت بلاد الجزائر مفتوحة أمام القبائل العربية ، وبدا كأن الناصر سيفقد كل شيء ، وكان عليه أن يسرع فيتخذ من الخطوات العاجلة ما يعيد للدولة نظامها وهيبتها ... وكان أمامه ـ لكي يحقق هذا ـ طريقان :

كان أمامه طريق ابن عمه تميم الذي وقف من هزيمته موقفاً إنسانياً وأخلاقياً كريماً ، وكان أمامه طريق القبائل العربية التي يبدو أن بعض قادتها أحسُّوا ببعض

---

(١) انظر الكامل ٢٥٧/١٠ ، والعبر ٣٥٥/٦ .

(٢) تاريخ الجزائر العام ٣٦٩/١ .

(٣) الكامل ٢٥٧/١٠ ، والاستبصار ١٢٨ ، والبيان المغرب ٤٢٩/١ ، والعبر ٣٥٥/٦ وانظر : La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 9.

(٤) الكامل ٢٥٩/١٠ ، ونهاية الأرب للنويري ج ٦٦/٢٢ .

(٥) نهاية الأرب للنويري ٦٦/٢٢ (الجزء الثاني) .

(٦) تاريخ الجزائر العام ٣٦٩/١ .

الندم في موقفهم ، أو يبدو أنهم تخوفوا من أن تؤدي سببية إلى التحام بين فرعي زيري . أما زناتة فالطبيعي أن تتعمق الكراهية ضدها ، ولذا لم نجد من الناصر أية محاولة للتقارب معها .

ونحن نرجح أن الناصر في هذه الفترة ـ وبعد أن استجمع قواه المنهكة ـ قد شاء أن يسير في الطريقين المتاحين له معاً ، وهو لم يحاول أن يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من إحدى القوتين الكبيرتين المناهضتين له ، بل عمل على التقرب منهما ... فمن ناحية تميم ، بدأ الناصر يسير في طريق الصلح ، وقد وسَّط لذلك وزيره أبا بكر بن أبي الفتوح الذي كان من رأيه ألا ينازع الناصر ابن عمه تميم ، وكان يحب الاتفاق بينهما ضد العرب[1].

وقد أرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر ويعرض الصلح ، فلم يتردد تميم في القبول ، وأراد أن يؤكد رغبته في تدعيم علاقته بابن عمه ، فأرسل مع الرسول « محمد بن البعبع » أحد رجاله الذين كان يثق بهم ليقوم بإجراءات إتمام الصلح[2]. وقد قدر لابن البعبع أن يخون تميماً ، وأن يلعب بخيانته تلك دوراً بعيد الأثر في حياة الدولة الحمادية ، على المستويين الحضاري والسياسي .

ونحن لا نعرف السرّ في خيانة هذا الرجل لتميم ، على الرغم من إكرام تميم له[3]، إلا أن يكون مجرد بحث عن مزيد من المال والجاه في ظل الناصر ، وقد أشار ابن البعبع على الناصر ببناء بجاية في مكانها الذي يقربه من إفريقية والمهدية ، ويمهد له ـ في رأي ابن البعبع ـ أن يملك المهدية وغيرها ، ثم أخذ الناصر إلى مكانها ، ورسم خطة بنائها[4]ـ وقد ذكرنا تفصيل ذلك حين تحدثنا عن بجاية ـ وأما الأثر السياسي الذي خلفته خيانة هذا الرجل فهو أنه ـ في تصورنا ـ قد عرقل إجراءات الصلح مع تميم[5]ـ بعد كشفه لخيانته وقتل تميم له ـ فلم يتم الصلح

---

(١) انظر الكامل ١٠/٤٦ ، والعبر ٦/٣٥٥ ، ونهاية الأرب للنويري ٢٢/٦٧ (الجزء الثاني) .
(٢) ذهب الأستاذ رابح بونار إلى أن ابن البعبع كان وزيراً للناصر ويبدو أنه اختلط عليه الأمر بين أبي الفتوح وابن البعبع (انظر المغرب العربي ص ٢١) .
(٣) انظر الكامل ١٠/٤٧ .
(٤) انظر الكامل ١٠/٤٧ ، ونهاية الأرب للنويري ج ٢٢/٦٧ (المجلد الثاني) .
(٥) Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3 P: 863.

إلا سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م)[1]، ولم يدعَّم إلا بزواج الناصر من بلارة ابنة تميم ، وزفافها إليه ، بعد أن رفض والدها أن يأخذ أكثر من دينار واحد صداقاً لها ، وردَّ صداق الناصر الذي بلغ ٣٠ ألف دينار ، وبعث معها من الذخائر والأموال ما لا يحصى[2].

لكن من الواضح أنه ـ على الرغم من تأخر الصلح بسبب خيانة ابن البعبع ـ فإن الاتجاه السياسي السلمي كان قد تأكد في نفس الناصر نحو أبناء عمومته في المهدية ، ولم يحدث التحام بينهما طيلة عهدي تميم والناصر معاً .

وأما عن سياسة الناصر نحو العرب فقد اتجه الناصر فيها اتجاهاً قريباً من سياسة تميم معهم ، وهي السياسة التي تقوم على التفريق بين القبائل العربية وضرب بعضها ببعض ، والحذر الشديد منها . وتعتبر السنوات التالية لموقعة سبيبة من حكم الناصر سنوات المدّ نحو الجانب الغربي من تونس ، وكانت هذه الناحية من تونس ، بالإضافة إلى الجانب الشرقي من أرض الجزائر ، أرضاً مباحة تعيث فيها القبائل العربية بعد أن أسلم المعز القيروان ، وتحول إلى المهدية ـ كما ذكرنا ـ فقد اضطرمت إفريقية في هذه السنوات ـ لا سيما بعد سبيبة ـ ناراً ، واقتسمت العرب البلاد عمالات ، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس[3]، بالإضافة إلى القيروان وإلى تونس وبعض المدن والقرى الجزائرية .... فكل هذه المناطق كانت قد وقعت تحت سيطرة القبائل العربية ، واتجه الناصر إليها كمحاولة للتوسع ، ولتحطيم شراسة هذه القبائل ، وتفتيت ما بينها من وحدة .

وكما ذكرنا فإن السياسة الوحيدة الناجحة مع هؤلاء العرب هي سياسة

---

(١) الكامل ١٠/١٠٧ ، والبيان المغرب ١/٤٣٠ ،
Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 863.
وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ١/٣٧٢ ، وقد ذكر ابن أبي دينار أن ذلك كان سنة ٤٦٧ (المؤنس ٨٥) بل ذهب الهلالي الميلي إلى أنه كان سنة ٤٦١ . ويبدو أن السعي في الصلح قد تجدد منذ سنة ٤٦٧ ولم يتم إلا سنة ٤٧٠ بزفاف ابنة تميم للناصر ، أما رأي الهلالي فهو بعيد عن الصحة .

(٢) الكامل ١٠/١٠٧ ، والبيان المغرب ١/٤٧٠ ، والمؤنس ٨٥ .

(٣) العبر ٦/٣٣٤ .

التفريق المذكور ، عن طريق التحالف مع بعضها ضد البعض ، ويبدو أن الناصر قد عمق صلته بقبيلة « الإثبج » العربية في هذه الآونة[1] ، على الرغم من موقفها في سبيبة ، فقد رأينا هذه القبيلة الهلالية تظهر في كثير من المواطن إلى جانب الدولة الحمادية ... في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) حاصر الناصر مدينة « الإربس » (LARIBUS) في غرب تونس ، ومعه الإثيج من العرب ، وبقي عليها حتى افتتحها ، وأمَّن أهلها[2] ، وقتل عاملها « ابن مكراز »[3].

وبمعونة هذه القبيلة التي يبدو أن مصيرها قد ارتبط نهائياً بالحماديين ، تقوى بقوتهم وتضعف بضعفهم ، ويختصها الحماديون دون سائر العرب بالرئاسة والإقطاعات[4]، بمعونتها وصل الناصر إلى القيروان مع العرب ودخلها ، ثم عاد منها إلى قلعته خوفاً من جميع العرب[5] سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) . كما دخلت تونس في طاعة الحماديين طواعية ، إذ وفد مشيختها على الناصر ، فولى عليهم عبد الحق بن خراسان .

وتشير المراجع إلى أنَّ ذلك كان سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م)[6] ، ويقال إن بني رباح هي التي باعته القيروان بعد طردها لزغبة[7] وإن كان تميم - في العام نفسه - قد سيَّر إليها عسكراً كثيفاً[8] ، وأرغم ابن خراسان على الرضوخ له . ومهما يكن فمن المؤكد أن الناصر قد نجح في لم شعثه بعد « سبيبة » التي وقعت سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) ، وأنه تحالف مع الإثيج ، ومن المؤكد كذلك أن الزيريين - في المقابل - قد وصلوا إلى حالة شديدة من الضعف في هذه الفترة .

---

(١) Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3 P: 863.

(٢) الكامل ١٠/٥٨ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 863.

(٣) البيان المغرب ١/٤٢٩ .

(٤) العبر ٦/٤٣ ، وانظر تاريخ الجزائر للهلالي ٢/٢٠٥ .

(٥) البيان المغرب ١/٤٣٠ .

(٦) العبر ٦/٣٣٤ ، إتحاف أهل الزمان ١/١٤٠ ، ١٤٨ ، وانظر : La Kalaa Des Beni Hammad De Beylie, P: 9.

(٧) المؤنس ٨٥ .

(٨) الكامل ١٠/٥٠ .

ويوجز ابن خلدون الموقف في غرب تونس في هذه الآونة بأن « صاغية أهل إفريقية قد صارت إلى بني حماد ملوك القلعة »[1] ـ ولم يكن هذا بالطبع إلا نتيجة سياسة الناصر تجاه العرب ، وهي السياسة التي لخصناها سلفاً ، والتي ارتفع فيها الناصر عن آثار موقعة سبيبة ، إدراكاً منه لطبيعة القبائل العربية ، واستغلالاً سياسياً للموقف المحيط به على أفضل نحو ممكن ، وقد أثبتت هذه السياسة فعاليتها بالنسبة للناصر الذي لا شك في أن الدولة قد بدأت تدخل في عهده مرحلة التحضر والاستقرار .

ولم يأل الناصر جهداً في مقاومة زناتة ، وعلى امتداد حكمه بدت زناتة وكأن حربها ميراث تقليدي يجب على الناصر أن يدفعه ، ومع أنه حاول استمالة بعضهم ، فتزوج من بني ومانو[2] ، وحاول تأليب بعضهم على بعض كما حدث في سبيبة ، إلا أن السمة العامة لعلاقته بزناتة هي العداء المستمر .

وكانت زناتة في ذلك الوقت تسيطر على عدة مناطق متنازعة في المغرب ، وتكون في كل منطقة منها مملكة مستقلة ، كان بنو مغراوة في فاس يسيطرون على الغرب الجزائري من عنابة إلى فاس ويشكلون أكبر قوة زناتية في المغرب ، وقد عاصر الناصر منهم إلى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م)[3] « معنصر بن المعز بن عطية » ثم ابنه « تميم بن معنصر »[4] . وكان بنو خزرون في طرابلس وكان يعاصر الناصر منهم المنتصر بن خزرون بن سعيد ثم أخوه خليفة بن خزرون[5] . وكان بنو يفرن في سلا ، ويعاصر الناصر منهم إلى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) محمد بن تميم

---

(١) العبر ٣٣٤/٦ .

(٢) تاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٧/٢ .

(٣) وقع خلاف كبير حول تاريخ سقوط فاس بأيدي المرابطين للمرة الثانية ، فابن خلدون في (العبر ٣٧٩/٦ و ٣٨٠) يرى أنها سقطت سنة ٤٦٢ ، وابن الخطيب في أعمال الأعمال (١٦٣/٣) يرى أنها سنة ٤٦١ ، وقد جعله بعضهم سنة ٤٦٧ هجرية . وقد رجح هذا التاريخ الدكتور العبادي في تعليقه على كتاب أعمال الأعلام .

(٤) انظر أعمال الأعمال ١٦٣/٣ .

(٥) تاريخ الفتح العربي في ليبيا للزاوي ١٩٠ .

اليفرني[1]، فضلاً عن بعض البطون الزناتية الأخرى التي تعتمد على محالفة إحدى القوى الزناتية الثلاث ، أو على محالفة الحماديين أو غيرهم ، مثل بني ومانو وبني تجين ، وغيرهما من البطون الزناتية التي تحيط بالدولة الحمادية من شرقها وغربها .

ولم يأل الناصر جهداً ـ على امتداد حكمه ـ في تتبع زناتة بالقتل والأسر والخديعة كلما بدا من زناتة عمل عدائي ضده ، فعندما ثار قبيل من المغراويين بقيادة « أبي الفتوح بن حنوش »[2] بلمدية ، و « معنصر بن حماد » بشلف ، أرسل إليهما من أعمل فيهما القتل ، وأحضر إليه « معنصر » وقتله ونصب رأسه[3]. وقد بعث إليه أهل الزاب أن غمرة ومغراوة ظاهروا الإثبج من العرب على بلادهم فبعث ابنه المنصور إليهم ونزل « وعلان » ـ بلد المنتصر بن خزرون ـ وهدمها وبعث سراياه وجيوشه إلى « ورقلا » وولي عليها وقفل بالغنائم والسبي[4].

وكان المنتصر بن خزرون الزناتي ، قد خرج بمصاحبة بني عدي من العرب ، حتى نزل المسيلة وأشير ، فخرج إليه الناصر ، ففرَّ المنتصر أمامه إلى الصحراء ، فلما رجع عنه الناصر عاد إلى مكانه من الإفساد ، ثم تظاهر الناصر بصلحه ، وأقطعه ضواحي الزاب وريغة ، ثم أوعز إلى « عروس بني سندي » رئيس بسكرة بقتله ، فدعاه إلى بسكرة ، وأشار على حشمه بقتل المنتصر عند انكبابه وذويه على الطعام ففعلوا ، ثم أرسلت رأسه إلى الناصر فنصبها على باب بجاية[5].

وقد بلغه عن بني توجين الزناتيين أنهم ظاهروا بني عدي من العرب على

---

(١) انظر أعمال الأعلام ١٦٥/٣ .

(٢) تاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٧/٢ .

(٣) انظر العبر ٣٥٦/٦ .

(٤) العبر ٣٥٦/٦ .

(٥) العبر ٣٥٦/٦ وتاريخ الفتح العربي في ليبيا ١٩٠ ، وانظر :

Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 863.

وقد أخطأ La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 9. فجعل المنتصر زعيما من زعماء القبائل العربية ، وجعل هذه الثورة ثورة قبائل عربية .

الفساد في المناطق الريفية وقطع السبيل بتحريض أميرهم مناد بن عبد الله ، فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر ، فقبض على مناد وأخيه زيري وعميهما الأغلب وحمامة ، وأحضرهم إلى الناصر فوبخهم ثم قتلهم[1].

وهكذا كان حال الناصر مع زناتة ، وهو نفسه حال زناتة مع المرابطين في تلك الآونة ، أي أن البطون الزناتية في الحقيقة كانت تقع بين فرعين صنهاجيين .

ويخيل إلينا أنه لولا القبائل العربية التي امتصت قدراً كبيراً من طاقة صنهاجة في المغربين الأدنى والأوسط ، لقضي على الوجود الزناتي بالمغرب ، ليس على المستوى السياسي فقط ، بل على مجرد وجودها فوق أرض المغرب العربي ، ويضاف إلى العوامل التي خدمت زناتة في تقليل حجم خسائرها ، ما كان يقع في نفس القوى الصنهاجية الحاكمة في المغرب من ريبة تمنعها من توحيد سياستها ، بل تجعلها تدخل في خلافات بينها أحياناً ، كما أن زناتة ـ كما يصفها الدكتور حسن محمود بحق ـ لا تعرف اليأس طوال تاريخها ، فما تكاد تحيق بها الهزيمة ، ويظن الناس أنها القاضية حتى تتحد من جديد ، وتخف إلى النضال والمقاومة[2].

ومع كل ذلك ، فقد تم في عهد الناصر سيطرة صنهاجة على المغرب العربي ، سيطرة كاملة تعتمد على القوة المسيطرة بالنسبة للمرابطين في المغرب الأقصى ، وجزء من المغرب الأوسط ، وسيطرة أخرى غير كاملة تعتمد على الدهاء والسياسة بالنسبة للناصر بن علناس في المغرب الأوسط وجزء من الأدنى[3].

والذي لا شك فيه أن بناء بجاية – الذي عنى بداية عهد الاستقرار والتحضر ـ كان بالنسبة للناصر بداية فترة امتدت قرابة عشرين سنة ، كان كل همه فيها تحقيق الانتقال بالدولة إلى دور التحضر والاستقرار .

وكما يبدو لنا ، فإن الناصر كان إنساناً مسالماً يميل إلى الهدوء ، ولا يحب الانغماس الكثير في المشاكل السياسية . ومعظم الحروب التي خاضها كانت

---

(١) انظر العبر ٣٥٧/٦ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 863.
وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٧/٢ .
(٢) قيام دولة المرابطين ٢٠٣ .
(٣) قيام دولة المرابطين ٢٠٦ .

تفرض عليه ، أو كان يقع فيها ضحية خداع القبائل العربية ، ورغبته في مداراتها ، لكن ما إن أتيح له أن يحقق لنفسه ولدولته الاستقرار والهدوء ، حتى بادر إلى ذلك ، وقد كانت أمواج الفتن والاضطرابات تحيط بالدولة من كل جانب ، وتتطلب رجلاً يجيد الانغماس في العمل السياسي والعسكري بصيراً بعواقب الأمور ، لكن الناصر قد رأى أن طريق الهدوء والبعد عن المشكلات هو الحل المناسب له ولدولته في ذلك الحين ، فعاش بالتالي قريباً من عشرين سنة هادئاً في عاصمته الثانية بجاية ، تاركاً أمر بني عمومته يتعرضون وحدهم للقبائل العربية وللغارات النورمانية ، وتاركاً أمر الزحف النورماني تتداعى على يديه مدن صقلية مدينةً مدينةً حتى سقطت الجزيرة كلها سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)[١] بعد صراع دام أكثر من عشرين سنة منذ سقطت بلرم سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢)[٢].

وقد أدت هذه السياسة الإقليمية إلى أن يحقق الناصر لدولته ـ وسط هذه الوضعية المظلمة ـ مستوى متألقاً من الحضارة جعل الدولة الحمادية تبدو ، وكأنها جزيرة الأمن والمدنية في بلاد المغرب العربي .

ولا يكاد يوجد خلاف بين المؤرخين على أن وفاة الناصر كانت سنة ٤٨١ (١٠٨١ م)[٣]، ويحدد ابن الخطيب يوم وفاته بالجمعة سابع جمادى الأولى أو الثانية ، ومكان وفاته بقصره بظاهر بجاية[٤]ـ وولي بعده ابنه المنصور .

المنصور واستمرار سياسة الناصر بن علناس
٤٨١-٤٩٨ هـ (١٠٨١-١١٠٤ م)

ويكاد يكون من الواضح أن الناصر من أبرز الشخصيات الحمادية التي تركت وراءها سياسة واضحة ، ولذا فلم يكن أمام المنصور ، ابنه وخليفته ، إلا أن يحدد لنفسه : هل سيسير وفق سياسة أبيه أم أنه سيجنح إلى سياسة أخرى ؟

---

(١) المؤنس لابن أبي دينار ٨٩ .
(٢) العرب في صقلية دكتور إحسان عباس ١٣١ .
(٣) الكامل ١٠/١٦٦ ، العبر ٦/٣٥٧ ، البيان المغرب ١/٤٣٢ ، والدر المكنون (مخطوط) ١٨٢ ، وانظر :
Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 863.
(٤) أعمال الأعلام ٣/٩٧ .

وتؤكد لنا الأحداث أن المنصور قد سار تماماً وفق سياسة أبيه ، واستعمل كل الوسائل التي استعملها أبوه ، بل تؤكد الأحداث أن هذا الابن لم يكن إلا صورةً من أبيه ، وأنه « اقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة »[1].

ويستهل ابن خلدون وصفه للمنصور بأنه كان « جماعة مولعاً بالبناء ... وأنه الذي حضَّر ملك بني حماد وتأنى في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين »[2]. كما يصفه ابن الخطيب بأنه « كان قائماً على أمره ، حميد الخلال ، ضابطاً للأمور ، يكتب ويشعر ، ويقوم كأبي جعفر المنصور ، بترقيع الثياب ، والتحفظ في القليل من الأشياء »[3].

وستؤكد الأحداث أن الناصر قد أثَّر الاتجاه السلمي الذي أرسى دعائمه في الأمراء الحماديين الذين حكموا بعده ؛ فلقد غلبت عليهم جميعاً ، باستثناء باديس الذي حكم لمدة ثمانية أشهر ، نزعة التحضر والبعد عن المشكلات السياسية التي لا تفرض نفسها .

ولقد قُدر للمنصور – تقريباً – أن يواجه نفس المشكلات التي واجهت الناصر . كان عليه أن يواجه القبائل العربية ، والمرابطين وزناتة ، وأن يحدد موقفه من أبناء عمومته الزيريين في تونس ، وكانت هذه هي القوى التي تتنازع النفوذ في المغرب العربي .

وكما ذكرنا ، فإن المنصور كان قد حدد سياسته على النحو الذي سار عليه أبوه الناصر ، وبالتالي فنحن نتوقع تطابقاً في طريقة مواجهة هذه القوى بين المنصور والناصر . لكنَّ حدثاً واحداً استهل به المنصور عهده ، ربما يكون هو الفارق الوحيد بين عهدي الناصر والمنصور ، هذا الحدث هو خروج بعض الحماديين على المنصور في الناحية الشرقية من الدولة أي في قسنطينة وبونة وضواحيها ، ولذا فإن شطراً من اهتمام المنصور سيتوجه إلى هذه القوى .

---

(١) الكامل ١٠/١٦٦

(٢) العبر ٦/٣٥٨ . Encyclopedia of Islam, Vol. II, Part 3, P: 250.

(٣) أعمال الأعلام ٣/٦٧ .

وعندما تولى المنصور كان أخوه « يلباز » على قسنطينة ، وما إن تولى المنصور حتى أظهر يلباز الاستبداد بالولاية ، فسرح إليه المنصور « أبا يكنى » بن محسن ابن القائد بن حماد ، فقبض على « يلباز » ، وأشخصه إلى القلعة ، وأقام والياً على قسنطينة مكانه بإذن المنصور ، بينما ولي على بونة أخوه ويغلان[1] ، لكن أبا يكنى لم يكد يطمئن إلى موقعه في الشرق الجزائري حتى تحرك فيه حب الاستبداد والاستقلال بالأمر ، فأقدم على خيانة الدولة الحمادية سنة ٤٨٧ هـ ، وأرسل أخاه ويغلان ــ حاكم بونة ــ إلى تميم بن المعز بالمهدية مستدعياً إياه للشرق الجزائري ، فبعث الأخير معه ابنه أبا الفتوح ، ثم كاتب ويغلان وأبو الفتوح المرابطين بالمغرب الأقصى ، وجمعوا بعض العرب على أمرهم[2].

وقد اشتعلت على هذا النحو حركة انقلابية كبرى داخل البيت الحمادي كان يمكن لها أن تكون سيئة العاقبة بدرجة كبيرة .

وقد استعمل المنصور في مقاومة هذا الانقلاب الداخلي نفس الأسلوب الذي كان يتبعه أبوه مع أعدائه ، فلجأ إلى القوة والدهاء معاً . لقد سرح المنصور عساكره فحاصروا بونة سبعة أشهر ، ثم اقتحموها غلابا ، وتقبضوا على أبي الفتوح بن تميم ، ثم نازلت عساكره قسنطينة حتى ألجأت أبا يكنى إلى إحدى قلاع جبل أوراس حيث تحصَّن بها ، ووقعت قسنطينة تحت قبضة صليصل ابن الأحمر من رجالات الإثبج ، فاستعمل معه المنصور أسلوب المساومة ، وبذل بعض المال ، واستولى عليها ، وبقي أبو يكنى يردد الغارة من حصنه بالجبل على قسنطينة فتوجهت إليه عساكر المنصور ، وحاصروه ، ثم اقتحموا الحصن عليه وقتلوه[3] .

وانتهت هذه الفتنة الداخلية على هذا النحو ، وبقي على المنصور أن يحدد سياسته تجاه أطراف الصراع في المغرب ، ولعل التواطؤ الذي ظهر في الفتنة

---

(١) انظر العبر ٣٥٨/٦ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol.I, Part 3, P: 250.
وقد أطلقت على يلباز « يلبر » وجعلته عم المنصور .

(٢) انظر العبر ٣٥٨/٦ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. I, Part 3, P: 250.

(٣) العبر ٣٥٩/٦ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٠/٢ .

من كل أطراف الصراع سواء من تميم بن المعز ، أو من المرابطين الذين تؤكد الأحداث نواياهم العدوانية نحو الحماديين ، أو من القبائل العربية التي أخذت منذ عهد المنصور[1] ـ بل قبله بقليل ـ تأخذ طابع الارتزاق على امتداد المغرب العربي . أقول : لعل هذا التواطؤ يكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط الحماديين بهذه الأطراف ، كما أن زناتة لا زالت تحتفظ بكونها أشد الأطراف حقداً نحو صنهاجة بعامة .

لقد كان الصراع بين هذه القوى يأخذ طابع النفاق السياسي إلى جانب المواجهة العسكرية إذا تطلب الأمر ، ولعل هذا هو ما أعطى لسياسة الناصر ـ وابنه المنصور من بعده ـ إمكانات نجاحهما الإقليمي ، فالعرب يرتزقون من كل القوى التي يمكن الارتزاق منها ، والمرابطون يخفون نية التوسع ، لكنهم يظهرونها عندما تتاح الفرصة ، وتميم يعتقد أن أبناء عمومته الحماديين خونة انتهازيون بنوا كل أمجادهم على أنقاض دولة آبائه ، دون أن يعينوه على مواجهة القبائل العربية التي حطمت قطاعاً كبيراً من دولة الزيريين .

وفي ظل هذا المناخ كانت تدور المعركة السياسية بين أطراف الوجود في المغرب العربي ، فعندما مات الناصر وخلفه ابنه المنصور وصلته كتب من يوسف ابن تاشفين زعيم المرابطين ، ومن تميم بن المعزّ ، وغيرهما بالتعزية والتهنئة[2].

ويعتبر هذا العمل في ذلك الوقت عملاً ودياً كان يمكن أن يساعد على خلق جو من التفاهم بين أطراف الصراع ، لكن شبهة تدخل الطرفين في الثورة الداخلية ضد المنصور كشفت عن النية الحقيقية لدى المرابطين والزيريين .

ونحن وإن كنا لا نعرف أكان من الممكن للمرابطين في ظل الظروف المعقدة للمغرب في تلك الآونة أن يستولوا على دولة الحماديين ، أم أن ذلك كان سيفقدهم جزءاً كبيراً من قوتهم ، ويدفع إلى تلاحم القوى المتنافرة في المغربين الأوسط والأدنى ضدهم ، باعتبارهم قوة ناشئة مرهوبة ، كما ظهر من رسالة بعث

---

(١) Encyclopedia of Islam, Vol. I, Part 3, P: 250.

(٢) الكامل ١٠/١٦٦ .

بها ابن تاشفين إلى أمير بني حماد يعاتبه على الاستعانة بعرب بني هلال[1]، وكما ظهرت ألوان من هذا الالتحام فيما بعد ... إن كنا لا نملك الحكم على ذلك ، لكننا نرفض أن يكون المرابطون قد تركوا ذلك طواعية أو إبقاء على صلات القربى بينهم وبين بني حماد كما يرى الدكتور حسن محمود[2]، سواء في مرحلة حكم يوسف بن تاشفين بعد فتح فاس أو في مرحلة الدور الصحراوي وقيادة عبد الله بن ياسين – كما ذكرنا من قبل – فثمة دواع أخرى للسلم بينهما ، وبدليل أنهم كانوا يستغلون أية فرصة للانقضاض على المغرب الأوسط وبدليل أن أمراء الحماديين لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاههم .

ومن الغريب أن يحدث في عهد المنصور تلاحم مصلحي بين زناتة والمرابطين ضد بني حماد ، لدرجة تضطرنا إلى تناول موقفهما من المنصور معاً كما لو كانا موقفاً واحداً . وهو التحام كاف لدحض نظرية التعاطف القبلي على نحو واضح ، وهو يؤكد أن القضية كانت قضية بحث عن نفوذ وسيادة في سلمها وحربها ، بعيداً عن العواطف القبلية .

لقد كان المنصور قد سار تجاه زناتة على نفس الدرب الذي مهده أبوه ، فتزوج من بنت ماخوخ زعيم « بنو ومانو » ، كما كان أبوه قد فعل من قبل[3]، لكن ماخوخ والى المرابطين ، فتجددت الفتنة بين زناتة والحماديين ، ودخل المرابطون ، مع حليفهم ماخوخ أرض الحماديين ، مستغلين معاً فتنة « أبي يكنى » التي كان المنصور منشغلاً بالقضاء عليها[4]، فلما انتهت الفتنة غزاهم المنصور لكنه هُزم أمامهم ، وارتدَّ إلى بجاية ، فدفعه الحنق إلى قتل زوجته « أخت ماخوخ »[5] التي كانت تمثل بالنسبة له مجرد عنصر يضمن ولاء ماخوخ وزناتة ففقدت بخيانة أخيها ماخوخ ، أهميتها ، واستحكمت بقتلها الفتنة بين زناتة والحماديين .

---

(١) نقلا عن قيام دولة المرابطين ص ٢٨٨ (الذخيرة ١٠٦/٢) مخطوط ببغداد .

(٢) قيام دولة المرابطين ص ٢٠٦ .

(٣) العبر ٣٥٩/٦ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. I, Part 3, P: 250.

(٤) تاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٨/٢ .

(٥) العبر ٣٥٩/٦ وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. I, Part 3, P: 250.

وقد شاء المرابطون الذين ذهب ماخوخ يستعين بهم ، أن يستغلوا الفرصة ، فتحرك واليهم على تلمسان « محمد بن يغمر المسيلمي » ونازل بلاد مملكة الحماديين وثغورهم ، مما ألجأ المنصور إلى الزحف إليه وتخريب ثغوره وحصون حليفه ماخوخ ، والتضييق عليه ، مما دفع يوسف بن تاشفين إلى طلب الصلح ، وأمر بقبض أيدي المرابطين عن بلاد الحماديين[1].

وعند هذا الحد انتهى الدور الأول في علاقة المنصور بالمرابطين وبزناتة . ونحن نرجح أن هذا الدور انتهى بعد شهور من انتهاء فتنة أبي يكني ، أي أنه انتهى في حوالي سنة ٤٨٨ هـ . لكن هذا الدور لم يضع حداً حقيقياً لأطماع المرابطين ، فسرعان ما عادوا إلى شأنهم ، فعاثوا في بلاد المنصور ، واضطر إلى أن يرسل ابنه عبد الله إليهم ، وسمع بمقدمه المرابطون ، فانقبضوا عن البلاد[2].

ولم يعد عبد الله إلا بعد أن شن الغارة على بني يلومي وبني ومانو من زناتة ، وفتح الجعبات وسيرات[3]. ولا شك في أن غاراته على زناتة في عودته تلك تفسر أعمق الارتباط المصلحي الذي تحقق في نفوس الحماديين المرابطين وزناتة .

وطيلة عهد المنصور ظلت السياسة المرابطية تقوم على الرغبة في التوسع شرقاً على حساب بني حماد[4]، ولم يكن تعميق وجودهم في تلمسان والغرب الجزائري إلا رغبة في تحقيق هذا الأمل ، وبالتالي فقد لعبت تلمسان دور المنفذ الذي يدلج منه المرابطون إلى الدولة الحمادية بين الحين والحين .

ويخيل إلى أن يوسف بن تاشفين كان يوعز إلى حاكم تلمسان التابع له بتحريض زناتة أو بانقضاضه هو ، على الحماديين ، لأننا نجد في تتبع الأحداث أنه لا يوجد انقضاض زناتي على الحماديين ، إلا ويقف وراءه والي تلمسان ، وما إن تتخذ الدولة الحمادية أسلوب الردع ، وتتقدم في اتجاه تلمسان ، حتى يظهر « ابن تاشفين » بصورة الراغب في الصلح المحافظ على أواصر المودة . ويكاد

---

(١) العبر ٣٥٩/٦ ، ٣٦٠ .
(٢) العبر ٣٦٠/٦ .
(٣) تاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٨/٢ .
(٤) Encyclopedia of Islam, Vol. I, Part 3, P: 250.

الدكتور حسن محمود ـ على الرغم من رأيه في سياسة المرابطين تجاه الحماديين كما ذكرنا ـ يكاد يورد هذه الحقيقة حين يذكر أن « أهمية المغرب الأوسط ـ بالنسبة لدولة المرابطين ـ تفوق أهمية غيره من أقاليم المغرب ، فقد كان يحرس المغرب الأقصى ، ويوقف بني حماد وحلفاءهم عند حدهم ، ويرد كيدهم عن المغرب الأقصى »[1]... فثمة موقف حذر وشك يربط بين المرابطين والحماديين ، وليس ثمة روابط قبلية في مجال السباق السياسي إذن ، بل إن المرابطين ـ كما تدلنا الأحداث ـ لم يقوموا بإظهار العلاقة القبلية التي تربطهم بالحماديين ، إلا في تلك المواطن التي يكونون فيها بحاجة ماسة لإظهار هذه العلاقة ولاستغلالها ! !.

ولم تهدأ الأحوال لمدة لا تزيد عن سبع سنوات ، بعد تدخل يوسف بن تاشفين بين الحماديين والمرابطين الذين يتخذون من تلمسان تكئة للانقضاض على الجزائر ، حتى تجددت الاضطرابات بينهما ، وفي هذه المرة بدأ « ماخوخ » الزناتي كحامل راية الانقضاض ، وكما هي العادة ، لم يكد ماخوخ يعلن انقضاضه حتى تفتح له « تلمسان » أبوابها ، فيلحق بها ، ويظاهر على أمره « محمد ابن يغمر » واليها ، ويجلبان معاً على الجزائر ، وينازلانها لمدة يومين يموت بعدهما محمد بن يعمر صاحب تلمسان[2] ، ويستمر الصراع بين المرابطين والحماديين فيولي يوسف بن تاشفين على تلمسان « تاشفين بن يغمر » أخا الوالي السابق ، ولم يكد الأخير يتولى عمله حتى تحرك إلى أشير ، وتمكن من افتتاحها .

ونحن نرجح أن هذا الخلاف الأخير بين المرابطين والحماديين على عهد المنصور كان في النصف الثاني من سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ؛ لأن رد الفعل الذي قام به المنصور كان سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، واستغرق سنة وعدة أشهر بعد ذلك[3].

لقد تحرك المنصور لصد هذا الهجوم المرابطي الزناتي ، مستثيراً كل القوى التي يمكن استثارتها ضد المرابطين في المغربين الأوسط والأدنى ، وقد تمكن

---

(١) قيام دولة المرابطين ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) انظر العبر ٦/٣٦٠ .

(٣) أعمال الأعلام ٣/٩٧ ، والعبر ٦/٣٦٠ .

من إعداد جيوش عظيمة ، يقدرها ابن الخطيب باثنتي عشرة محلة[1] ، ويقدرها ابن خلدون بنحو عشرين ألفاً[2]. وقد اشتملت جيوشه ـ إلى جانب صنهاجة ـ على كتائب من قبائل الإثيج وزغبة وربيعة من العرب ـ ثم نهض إلى تلمسان ـ مصدر القلق له ولدولته ـ وكان تاشفين صاحبها ، قد رأى أن لا طاقة له بالمنصور ، فأفرج له عنها ، وخرج إلى تسالة ، لكن عساكر المنصور لقيته في الطريق ، واشتبكت معه ، وهزمته إلى جبل الصخرة ، ثم زحفت هذه العساكر إلى تلمسان ، فاستولت عليها وعاثت فيها[3] ووُفقت عساكر المنصور في رد المرابطين إلى المغرب[4]. ولم يفرج المنصور عن تلمسان إلا تحت ضغط عاطفي ، إذ توسلت إليه (حوا) امرأة تاشفين ـ والي تلمسان ـ وانكبت على رجله تستعطفه ، وتذكِّره صلة الرحم الصنهاجية ـ ! ! لرفع محنة الجند عن البلد ، فعفا عنها ، وقفل راجعاً إلى بلاده[5]

ويذكر ابن خلدون ـ في موضع آخر من كتابه العبر ـ أن صلحاً قد وقع ـ للمرة الثانية ـ بين يوسف بن تاشفين والمنصور ، ويشير إلى هذا ابن الخطيب على نحو مجمل ، وبالتالي فإن عودة المنصور عن تلمسان وضواحيها كانت بسبب من هذا الصلح[6].

وقد استرضى « يوسف » المنصور بعزله « تاشفين بن يغمر » صاحب تلمسان عنها وتولية « مزدلي » بدلاً منه[7]. وكما فعل ابن المنصور ـ عبد الله ـ في حملته الأولى على المرابطين حين عرج على زناتة بعد حملته عليهم ، كذلك فعل المنصور في حملته هذه ، فلم يعد من تلمسان إلا بعد أن أثخن في زناتة وشردهم بنواحي

---

(١) أعمال الأعلام ٣/٩٧ .

(٢) العبر ٦/٣٦٠ .

(٣) العبر ٦/٣٦١ ، تاريخ الجزائر للهلالي ٢/٢٠٩ .

(٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٦/٣٧٩ مادة جزائر .

(٥) انظر العبر ٦/٣٦١ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢/٢٠٩ .

(٦) العبر ٦/٣٨٦ وأعمال الأعلام ٣/٩٧ .

(٧) العبر ٦/٣٨٦ .

الزاب والمغرب الأوسط ، ورجع إلى بجاية وأثخن في نواحيها ، ودوخت عساكره قبائلها ، فساروا في جبالها المنيعة مثل جبال بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناطور وحجر المعز ، فاستقام أمره واستفحل ملكه(١).

لقد سار المنصور ـ تبعاً لوالده الناصر ـ وفق سياسة واضحة تجاه كل الأطراف ، كما أنه استطاع استغلال القبائل العربية ـ وفق سياسة أبيه كذلك ـ أحسن استغلال ملائم لطبيعة هذه القبائل في هذه الظروف ، فقد صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك ، فأقاموا على ذلك باقي أيامه وأيام ابنه العزيز ، وأيام يحيى(٢).

ولقد يظن أن هذا الموقف من المنصور تجاه القبائل العربية نوع من الاستسلام والإذلال ، وقد يكون ثمة جانب من صحة هذا الظن ، لكن إذا رأينا الآثار التي كان يمكن لهذه القبائل إحداثها ـ كما فعلت مع الزيريين ـ لعلمنا أنها سياسة حكيمة من المنصور ، مكنته من أن يكون عصره امتداداً لعصر الازدهار الحضاري الذي بدأه أبوه ، فضلاً عن وجود ملحظ مهم في هذا الجانب ، فإن هذه القبائل التي تحالف معها المنصور كانت تضع نفسها تحت تصرفه في حروبه الخارجية ، بل إننا لنعتقد أن هذه القبائل بالنسبة للحماديين منذ عهد الناصر ، قد بدأت تلعب الدور الأساسي في الحماية الخارجية للدولة تحت راية القيادة الحمادية ، ونحن لا نستبعد أن تكون هذه القبائل التي كانت قد ارتبطت بالدولة الحمادية ارتباطاً مصيرياً ـ كما ذكرنا ـ قد كانت تقوم ببعض الأعمال في الداخل ، كالمشاركة في حفظ الأمن وجمع الضرائب وغيرها .

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨ (١١٠٤ م) قدر لحياة المنصور الذي نجح في إعطاء الدولة الحمادية رواءها وأمنها امتداداً لعهد أبيه ، وسط ظروف بالغة

---

(١) العبر ٣٦١/٦ .

(٢) المعجب للمراكشي ٢٩٤ وقد ذكر المراكشي المنصور على أنه المنصور بن المنصور والصحيح أنه ابن الناصر ، وانظر :

La Kalaa Des Beni Hammad, Une Capitale Berbere, de L'Afrique du Nord Au XIe Siecle, P: 10.

الصعوبة ، أن تنتهي ، وذلك بعد عودته من حربه الأخيرة ضد المرابطين بسبعة أشهر ، وولي الأمر بعده ابنه باديس المكنى بأبي معدّ[1]، فتملك الأمر في الشهر نفسه من السنة نفسها .

باديس بن المنصور

ويكاد يتفق ابن خلدون وابن الخطيب على أن « باديس » هذا كان « شديد البأس عظيم السطوة سريع البطش »[2]. وقد ابتدأ عهده الذي دام ثمانية أشهر بالإساءة إلى كل من حوله ؛ فقد قتل عبد الكريم بن سلمان الذي كان وزيراً لأبيه المنصور لأول ولايته[3] كما خرج من القلعة التي يبدو أنه كان يقيم فيها بعيداً عن أبيه المنصور ، وظل فيها ـ بعد ولايته ـ إلى بجاية ، وقتل عامله وعامل أبيه من قبله عليها[4]، وامتدت إساءته إلى أخيه العزيز الذي كان والياً على مدينة الجزائر في عهد أبيهما المنصور ، فعزله عنها ، ونفاه إلى جيجل[5]. كما ألقى بأحد الصالحين إلى الأسود حياً[6]، وتوعد أمه بالقتل[7]، إلى غير ذلك مما شاكل هذه الأعمال السوداء[8].

ويكاد باديس أن يكون صورة مكرورة من محسن بن القائد الأمير الحمادي الثالث ـ في كثير من الأمور والظروف ـ وقد قدر لهذين الأميرين أن يليا أمور الدولة بعد فترة قوية من فترات الدولة ، ثم يكونا بسلوكهما انحرافاً عن خط

---

(١) العبر ٣٦١/٦ ، وأعمال الأعلام ٩٧/٣ ، والبيان ٤٣٤/١ ، والدر المكنون ، مخطوط ١٩١ .

(٢) العبر ٣٦١/٦ ، وأعمال الأعلام ٩٨/٣ .

(٣) العبر ٣٦١/٦ ، ومن الغريب أن يصف صاحب الدر المكنون « باديس » بأنه قام بالملك أحسن قيام (الدر المكنون ٤٩٨) !!

(٤) العبر /٣٦١ .

(٥) تاريخ الجزائر للميلي ٢٠٠/٢ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٧٦/١ .

(٦) أعمال الأعلام ٧٨/٣ .

(٧) أعمال الأعلام ٧٨/٣ .

(٨) تاريخ الجزائر للجيلالي ٣٧٦/١ .

الدولة القوي ، وتلحقهما نهاية متقاربة تعكس لنا طبيعة النفسية البربرية المحبة للديمقراطية والمقاومة للإرهاب .

وقد لقي باديس حتفه العاجل قبل أن يستكمل سنة من حكمه ، إذ توفي في السنة التي ولي فيها ، ثالث عشر من ذي الحجة[1] ٤٩٨ هـ (١١٠٥ م) ، ويقال إنَّ أمه قد سمته ، لأنه كان يهددها ويتوعدها[2] ـ كما ذكرنا ـ وقد تولى الأمر بعدهُ أخوه العزيز بن المنصور ـ الذي كان من جملة من شملتهم إساءته ـ حيث استدعي من منفاه بجيجل ليقود البلاد بعد أخيه باديس .

العزيز قمة عهد الاستقرار
٤٩٨-٥١٥ هـ (١١٠٥-١١٢١ م)

وبتسلم العزيز إمارة الدولة الحمادية ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، عادت سياسة الناصر بن علناس تقود الدولة من جديد ، ويكاد العزيز أن يكون مجرد امتداد لأبيه وجده الناصر في تحديد علاقة الدولة بجاراتها ، وفي النمو بها . لقد كان العزيز « حازماً ماهراً عارفاً بتسيير الدول والممالك[3]، حسن الخلق ، معتدل الطريقة ، وقد كاتب ملوك زمانه وسالمهم ، وكانت أيامه أعياداً لحسنها وجمالها »[4]. وكان يلقب بالميمون ، لولادته ليلة ولاية أبيه[5].

ويبدو أن الظروف كانت مضطربة عند تولية العزيز الأمور ، نتيجة سياسة أخيه باديس ، ونتيجة نفيه في جيجل ، بعيداً عن مسرح الحكم ؛ ذلك أننا نلمح دوراً معيناً قام به « علي بن حمدون » قائد الأسطول الحمادي نحو تولية العزيز مقاليد الأمور ؛ إذ أنه قد أرسل إليه من أحضره ، وحفظ الأمور إلى

---

(١) تاريخ الجزائر للهلالي ٢/٢٠٠ .
(٢) أعمال الأعلام ٣/٩٨ .
(٣) تاريخ الجزائر العام ١/٣٧٧ .
(٤) أعمال الأعلام ٣/٩٩ .
(٥) المكان السابق .

حضوره ، وكان أول من بايعه[1] ، وتبعه الناس بعد ذلك . ومنذ هذا التاريخ ونحن نلمس الدور البارز الذي بدأت تضطلع به هذه الأسرة في حكم الدولة وفي حمايتها ... ثم في إسقاطها .

لقد بدأ العزيز يتقرب لكل الأطراف الموجودة بالمغرب العربي ، فقد صالح زناتة ، واتّبع نفس الأسلوب الذي اتبعه أبواه معها من قبل ، فأصهر إلى ماخوخ ، فأنكحه ابنته[2]، كما أنه تقرب من أبناء عمومته في المهدية ، ولم يَرِد أي خلاف بينهما طيلة حكمه ، ولم تمض عدة سنوات على إصهاره ببنت ماخوخ ، حتى عمق علاقة السلم التي تربطه بيحيى بن تميم ملك المهدية بعد أبيه « تميم » منتصف رجب سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)[3] فأصهر إليه في ابنته بدر الدجى ، ودخل بها سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م)[4].

وفي الجانب المرابطي كانت ثمة ظروف قد ساعدت على إحلال السلام بين الطرفين إحلالاً دائماً ، ففي يوم الاثنين مستهل المحرم من سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) مات عن ١٠٠ سنة كاملة يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الكبير[5]، بعد مرض استمرَّ عامين كاملين .

وعلى الرغم من الجهود الضخمة التي بذلها ابنه وخليفته « علي بن يوسف » ، لكي يحتفظ بالدولة الممتدة من تلمسان[6] شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن نهر التاجة في قلب أسبانيا شمالاً إلى بلاد السودان ونهر النيجر جنوباً[7] على الرغم من جهوده تلك ، فلم تلبث أحوال الدولة أن اختلّت اختلالاً شديداً

---

(١) العبر ٣٦٢/٦ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٠/٢ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٧٧/١ .
(٢) العبر ٣٦٢/٦ .
(٣) الحلة السيراء ١٨٩/٢ .
(٤) البيان ٤٤٠/١ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٧٧/١ .
(٥) عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ، عنان ٥٤ .
(٦) ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أنها تمتد من تونس شرقا ، ولو صح قوله لما كان هناك شيء اسمه الدولة الحمادية (المرجع السابق ص ٥٥) .
(٧) عصر المرابطين والموحدين ، عنان ، القسم الأول ٥٥ .

« فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يُصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه »[١] ، فضلاً عن كثير من المفاسد الأخرى[٢]، وفضلاً عن العناء الذي بدأ المرابطون يلاقونه في حكم الأندلس ، وفي حمايتها من النصارى .

... ونتيجة لكل هذه الظروف ، فإن الجانب المرابطي لم يعد يفكر في خلق ظروف الاصطدام بجيرانه لا سيما الحماديون ، وإنما كان كل همه أن يحتفظ بالأرض التي تحت يده ، وأن يحفظ لها وحدتها .

لقد كان من حسن حظ العزيز أنه لم يواجه بتلك المشكلات الكبرى التي كانت تمتص قوى سابقيه ، وبالتالي فقد اتجه إلى الأطراف المهددة لأمن الدولة الخارجة عليها ، فاتجه إلى تونس ، حيث كان بنو خراسان ـ الولاة من قبل الحماديين أصلاً ـ قد خرجوا عليهم ، ونازل المدينة ، واضطر صاحبها أحمد بن العزيز بن عبد الحق الخراساني إلى الدخول في طاعة العزيز ، واصطلحا على ذلك[٣].

كما اتجهت أساطيل العزيز إلى « جربة »[٤] ، وتمكنت من إخضاعها وإدخالها في طاعة الحماديين[٥]. وقد حاولت القبائل العربية إحداث الفوضى في بلاد العزيز ، فاستغلت استيطانه الدائم في بجاية ، إذ أن العزيز هو الحاكم الحمادي الذي استوطن بجاية من أول ولايته[٦]، دون أن يبدأ باستيطان القلعة ، فكبست هذه القبائل القلعة ، واكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها ، وعظم

---

(١) المعجب للمراكشي ٢٤١ .
(٢) انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٣) العبر ٣٣٥/٦ .
(٤) جربة (GERBA) جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس (الواقعة في الساحل التونسي الآن) ـ قال البكري : وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة وفيها بساتين . وأهلها مفسدون في البر والبحر . انظر (معجم البلدان ، مادة جربة) ، وانظر دائرة المعارف ٣٢٢/٦ .
(٥) العبر ٣٦٢/٦ .
(٦) انظر أعمال الأعلام ٩٩/٣ .

عبثهم ، وقاتلتهم الحامية ، التي كانت أقل منهم ـ فلم تنجح في هزيمتهم ، واضطرت إلى الخروج من البلد[1]، ثم ارتحلت هذه القبائل عن القلعة مخلفةً وراءها آثارها السيئة .

وعندما بلغ الخبر العزيز بادر بتجهيز عسكر أمرّ عليه ابنه « يحيى » وقائده « علي بن حمدون » فوصلا إلى القلعة ، وتمكنا من تسكين الأحوال ، ورأيا اللجوء إلى السلم ، فأمنا العرب ، واستعتبوا فاعتذروا ، وانكفأ يحيى راجعاً إلى بجاية في عسكره [2].

ولعل هذه هي المعارك التي خاضها العزيز طيلة عهده .

وهكذا كان عهده سلماً وأمناً لم تشبه من الحروب والمنازعات إلا شوائب محدودة لا تذكر بالنسبة لسابقيه ، وبالنسبة لأجواء الصراع المحيطة به ، وبالتالي فقد نعم المجتمع الحمادي في عهده بنوع من الترف في الوقت والثروة والفكر ، أدى إليه الاستقرار والرخاء والأمن ، دون أن يوجد تحد خارجي أو داخلي قوي يستنفد الطاقة التي تكدست منذ الناصر وإلى نهاية عهد العزيز .

ولئن كان هناك ـ في الحقيقة ـ تحد خارجي قوي يتمثل في النورمان الذين كانوا قد استولوا على صقلية سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، وبدأوا يدقون أبواب الدولة الزيرية في المهدية ، إلا أن السياسة الإقليمية المحدودة ، التي انتهجها الحماديون ، فضلاً عن وجود الزيريين بينهم وبين النورمان ، قد صرفتهم عن التفكير في هذا التحدي ، وعن محاولة الاستجابة له ـ كما سنبين فيما بعد .

ومن الملحوظ أن الدولتين الكبيرتين في المغرب (المرابطين والحماديين) قد بدأتا معاً ـ وفي وقت واحد ـ تميلان نحو الدعة والحياة السهلة ، متجاهلتين الأحداث الكبرى المحيطة بالعالم الإسلامي والتي تهدد المغرب في الصميم .

ولقد بدا من خلل رماد الحياة السهلة التي استسلمت لها الدولة الحمادية (والمرابطون) وميض نار توشك أن تندلع مغيرة من صورة الحياة في هذا الجزء

---

(١) العبر ٣٦٢/٦ .

(٢) العبر ٣٦٢/٦ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٨/١ .

من بلاد الإسلام ... هذا الجزء الذي كانت توحي تربته ، بأنه لم يزل لديه ما يعطيه للوجود الإسلامي .

وقد شهدت السنوات الثلاث الأخيرة من حكم العزيز انبعاث هذا الوميض في هيئة رجل من أهل سوس في أقصى المغرب ، من قبيلة تسمى هرغة ـ إحدى بطون مصمودة ـ كان عائداً من المشرق بعد رحلة علمية دينية قضى فيها عشر سنوات (٥٠١-٥١٢ هـ) فنزل بجاية[1] ، ووجد بها مظاهر الحياة الرخيصة المبتذلة التي تنبئ عن تدهور قريب ... فقد شهد محمد بن تومرت ـ وهو الرجل الذي لم يكن لين العريكة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] ـ شهد ببجاية الصبيان في زي النساء بالضفائر والأضراس والزينة وشواشي الخز ، وألفى الأرذال قد فتنوا بذلك ، وانهمكوا ثم حضر عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين والمتكحلين ما لا يحل[3] .

وقد حاول ابن تومرت الوقوف في وجه هذه الفوضى الخلقية بأسلوبه العنيف الواضح ، فزجر الناس وغيَّر أحوالهم ، فوقعت لأجل ذلك نفرة استطال فيها الشر وسُلبت النساء حليها ، وقام الهرج ، فلما بلغ « العزيز » الأمر ، وتحرَّى عن أسبابه ، عرف أنه لا سبب له إلا ذلك الفقيه السوسي ، فغاظ ذلك العزيز وأغضبه .

وقد جرت مناقشات بين ابن تومرت وبين بعض فقهاء بجاية انتصر فيها عليهم .... وقد حاول كاتب بجاية « عمر بن فلفول » ملاطفته ، وراوده على ترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلم يستجب له[4].

---

(١) انظر المعجب ٢٤٥ وما بعدها ، وانظر الدولة الموحدية بالمغرب ، د. عبد الله علام ٤٤، ٥١ .

(٢) الدولة الموحدية بالمغرب ٥٥ .

(٣) نظم الجمان لابن القطان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ٤١ ، وقد جعل ابن القطان ذلك في حوادث سنة ٥١٦ والصحيح ما ذكره ابن خلدون ، وغيره ، من أنه كان في سنة ٥١٢ .

(٤) نظم الجمان ٤١، ٤٢ ، والمعجب للمراكشي ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، وعصر المرابطين والموحدين القسم الأول : عنان ١٦٥ .

ثم خاف العزيز من اجتماع الناس عليه وميل قلوبهم إليه ، فأمر بإخراجه من بجاية ، فخرج منها متوجهاً إلى المغرب حيث نزل بضيعة يقال لها « ملالة » على بعد فرسخ من بجاية ، فأقام بها أشهراً في كنف « بني ورياكل » من صنهاجة ، يدرس العلم ويعقد مجالس الوعظ ، ويشعل نيران الثورة ضد الحماديين والمرابطين بالطرق التي أجاد ابن تومرت استغلالها .

وقد أحس العزيز بالخطر الذي يكمن على بعد فرسخ منه ، وحاول القبض على ابن تومرت ، إلا أن « بني ورياكل » منعوه ، وقاتلوا دونه ، لكن المهدي لم يطمئن إلى البقاء في هذا المكان فرحل إلى المغرب[1].

وفي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) مات العزيز بن المنصور[2] فورث الحكم بعده ابنه « يحيى » الذي مثل عهده فترة انهيار الدولة وقبولها للأفول ، وكان حكمه آخر أيام الدولة الحمادية .

٤ - الدور الأخير :

يحيى بن العزيز وبداية الاضمحلال

٥١٥-٥٤٧ هـ (١١٢١-١١٥٢ م)

عندما تولى يحيى أمور الدولة الحمادية ، كان الجو المغربي والإسلامي ملبداً بغيوم كثيرة ، وكان المرابطون الذين حموا الأندلس ، وظلوا قوة مرهوبة في المغرب طيلة عهد يوسف بن تاشفين ، قد بدأوا يدخلون طور الانحدار سواء في الأندلس أو في المغرب ، وقد منوا بالهزيمة على يد النصارى في موقعة سرقسطة سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) فزالت هيبتهم من نفوس الأندلسيين ، وبدأوا يتعرضون لثورات متلاحقة ، أبرزها ثورة قرطبة سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م)[3].

---

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٤٨ .

(٢) العبر ٣٦٢/٦ ، وتاريخ الجزائر للميلي ٢٠٢/٢ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٧٨/١ ، والمغرب العربي لبونار ١٢٣ ، وقد جعل ابن القطان وابن عذاري موته سنة ٥١٨ (نظم الجمان ص ١٠١ ، والبيان ٥١٨/١) أما استانلي بول فقد ذكر أنه مات سنة ٥٠٠ ويبدو أنه خطأ مطبعي (طبقات سلاطين الإسلام ٤٤) .

(٣) انظر الدولة الموحدية بالمغرب ١٤٥ .

وكان محمد بن تومرت الذي أصبح يلقب بالمهدي ، قد نجح بعد ذهابه إلى المغرب الأقصى في أن يجمع حوله جموعاً كثيرة من المصامدة وغيرهم ، وبدأ يدخل طور الالتحام بالمرابطين ، ومحاولة السيطرة على المغرب ، وقد جهَّز جيشاً عظيماً في سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) وجَّهه لحرب المرابطين[١].

وكان الزيريون في عاصمتهم المهدية بقيادة الحسن الذي تولى بعد أبيه « علي ابن يحيى » سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م)[٢] يتعرضون لغزو النورمان الزاحفين من صقلية ، التي كانت قد ضاعت من يد المسلمين ، ويستنجدون بكل القوى الإسلامية فلا يجدون مجيباً ، باستثناء المرابطين الذين استجابوا لهم سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)[٣]، لكنهم سرعان ما امتصت مشاكلهم الخاصة طاقتهم أمام ظهور الموحدين فانصرفوا إلى أنفسهم ، واضطر الزيريون إلى أن يُروضوا النورمان في محاولات يائسة للبقاء ! !

هل كان يحيى بن العزيز الحمادي على مستوى هذه الأحداث المحيطة بالدولة ، والتي توشك أن تبتلعها من كل جانب ؟

يرسم لنا كل من ابن خلدون وابن الخطيب صورة ليحيى على نحو يكاد يكون واحداً ، فابن خلدون يصفه بأنه كان « مستضعفاً مغلباً للنساء مولعاً بالصيد على حين انقراض الدولة وذهاب الأيام بصنهاجة »[٤]. وابن الخطيب يرسم صورته على نحو أوضح وأشمل ، فيرى أنه كان « فاضلاً ، حليماً ، فصيح اللسان والقلم ، مليح العبارة ، بديع الإشارة ، مولعاً بالصيد ، مغرماً به ، كلفاً بالملهين يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة من شيوخ وعجائز حمقى ، ويستلقي في بيته على الفرش الوثيرة الحشايا ، ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد ، فيختبر هذا البازي ، ويتفقد هذا الكلب ، ويستنهض هذا المضحك في النوع

---

(١) المعجب ٢٥٩ .
(٢) وفيات الأعيان ٢٦١/٥ ، ٢٦٣ .
(٣) تاريخ غزوات العرب ، شكيب أرسلان ٣٠٢ ، ودائرة المعارف ٥٩/٦ ، مادة تونس .
(٤) العبر ٣٦٢/٦ ، ٣٦٣ .

الذي سلكه فيلهيه ويضحكه ، فلا يزال كذلك إلى أن ينام ، ثم يغتدي إلى الصيد ـ هكذا انقضت أيامه »[1].

ويبدو لنا أن نعت ابن الخطيب له بالفضل والحلم ، ليس إلا من باب الإسراف اللفظي ، ومع التسليم بوجود هاتين الصفتين في يحيى ، فهما لا يعدوان أن يكونا نوعاً من الرقة واللباقة اللتين يمتاز بهما بعض أبناء الطبقة العليا في معاملاتهم مع نظرائهم أو القريبين منهم ، لكننا لا نعتقد أن هاتين الصفتين قد لازمتا يحيى في معاملته لرعيته ، بل نحن نعتقد أنه كان متعالياً مغروراً « فظاً قاسياً »[2] تنقصه الرؤية الواعية للأجواء المحيطة به .

وثمة قصة يحكيها عبد الواحد المراكشي تعكس لنا غروره وصلفه ، فإن عبد المؤمن بن علي بعد استيلائه على الدولة الحمادية — كان يركب يوماً مخترقاً بجاية ، ويحيى يمشي بين يديه ، فاستدعاه وقال له : « أتذكر يوماً خرجت إلى بعض متنزهاتك ، فأذكر أني جمعني وإياك هذا الباب ، فوطئت دابتك عقبي ، فلما نظرت إليك أمرت بعض عبيدك ، فوكزني وكزة كدت أقع منها لي » . فاستحيا يحيى ، وظن أنه الشر ، فلما رأى عبد المؤمن ذلك منه قال له : « إنما ذكرت لك ذلك على طريق الاعتبار ، ولتذكر وتنظر كيف تقلب الأيام بأهلها »[3].

ويؤكد ابن خلدون حقيقة غروره ، حين يذكر أنه قد استحدث السكة ، ولم يحدثها أحد من قومه أدباً مع خلفائهم[4]. كما نؤكدها الرسالة الموحدية السابعة التي صدرت بعد استيلاء الموحدين على بجاية ، ومهما تكن مبالغتها ، فإنها تحمل قدراً كبيراً من الصحة ، لا سيما وهي تخاطب أقواماً عاشوا مع يحيى ،

---

(١) أعمال الأعلام ٩٩/٣، ١٠٠ ، وانظر عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٢ ، والدولة الموحدية بالمغرب ٢٠٢ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ص ١٦٥ .

(٣) المعجب ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) العبر ص ٣٦٣/٦ .

كما أنها تتكلم عن يحيى حال حياته ، وفي هذه الرسالة يصف عبد المؤمن حكام بجاية قبله بأنهم من « الجبابرة والطغاة والكفرة [1]، وبأنهم من زعماء الخسار والبدار ورؤساء الاستعلاء الجاهلي والاستكبار » [2].

وأما عن قصور رؤياه ، فهي تتجلى في انغماسه الواضح في ملذات يومه دون اهتمام بما يحيط به ، كما تتجلى في عدم وقوفه مع أبناء عمومته الزيريين في محنتهم الثانية التي واجهوا فيها النورمان ، بعد محنتهم الأولى مع القبائل العربية ، بل محاولته الدخول معهم في صدام ، مستغلاً ظروفهم الكئيبة دون أدنى تبصّر بالعواقب الوخيمة لتصرفاته تلك .

لقد وجه يحيى قائده مطرف بن حمدون لحماية حدوده مع أبناء عمومته في المهدية ، ولانتهاز أية فرصة لضم مدن تونس الواقعة تحت سيطرة العرب أو سيطرة الزيريين ، وقد جهز مطرف جنده لحرب ابن مروان « بتوزر » فافتتحها « عنوة » وقبض على ابن مروان وأرسله إلى بجاية فسجن بالجزائر إلى أن هلك في معتقله ، وقيل قتله [3].

وكان الزيريون في المهدية يعانون من النورمانيين الذين ملكوا جميع البلاد الإسلامية في جنوب أوربا ، ويعملون منذ استيلائهم على صقلية ومالطة على الاستيلاء على المهدية والقضاء على بني زيري ، ومنذ سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، وهو تاريخ أول هجوم على المهدية ، وقد تم بتحريض البابا « بنقليون » الأملقي [4]، وهم يتابعون غاراتهم على المهدية ، ويتابعون اهتبالهم لكل فرصة تسنح بالإغارة عليها .

وقد حاول الحسن بن علي الذي ولي أمر المهدية سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) [5]

---

(١) مجموع رسائل موحدية ، الرسالة السابعة ص ١٨ .
(٢) مجموع رسائل موحدية ، الرسالة السابعة ص ١٩ .
(٣) العبر ٣٦٣/٦ .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٥٩/٦ .
(٥) إتحاف أهل الزمان ١٤٢/١ .

الوقوف في وجههم وندب المرابطين[1] ـ كما ذكرنا ـ لذلك ، ونجح المرابطون في ضرب النورمانيين على شاطئ الجنوب الأوربي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ولكن النورمان لم يلبثوا سنة ٥١٧ هـ أن أغاروا على المهدية للانتقام ، لكنهم « أبيدوا عن آخرهم وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم »[2].

ومع ذلك لم يكف النورمان عن متابعة الغارة ، مما اضطر الحسن معه بعد أن يئس من وجود قوة إسلامية تعينه ، إلى أن يهادن النورمان ويتفق معهم . ووسط هذه الظروف الصعبة التي يتعرض لها الزيريون ، تحرك يحيى لمهاجمتهم ، بدلاً من أن يمد يد العون لهم .

وتضطرب المراجع في تحديدها للغزو الحمادي للمهدية ، وهي تتأرجح بين سنوات ٥٢٢ و ٥٢٩ و ٥٣٠[3]، وبما أن السنوات متقاربة ولا توجد قرينة مرجحة واضحة ، فبالتالي لم نجد مرجعاً يرجح تاريخاً من هذه التواريخ ، حتى إن الهلالي الميلي والجيلالي قد سجلا تاريخي ٥٢٢ ، ٥٢٩ معاً دون أن يرجحا أحدهما على الآخر[4] كما أن ابن خلدون جعل الهجوم على تونس والمهدية قد تم في حملة واحدة[5].

والذي نرجحه ونميل إليه أن ثمة هجومين قد حدثا : أحدهما على مدينة

---

(١) يرى ابن خلدون أن علي بن يحيى هو الذي هدد النورمان بالمرابطين ، ولا مانع من أن يكون علي قد هدد ، ولم يستجب المرابطون إلا أيام الحسن ، وهو يرى أن ضرب المرابطين للشواطئ الصقلية النورمانية كان اتفاقاً ، ونحن نستبعد أن يكون اتفاقاً لأن ظروف المرابطين لم تكن مواتية لمثل هذا ، إلا أن يكون هناك باعث قوي (العبر ٣٣٠/٦) وبدليل ما ذكره ابن خلدون بعد ذلك من أن المرابطين قاموا عند الهجوم على المهدية بالهجوم على صقلية وواضح دلالة الربط بين الحديثين (٣٣١/٦) .

(٢) تاريخ غزوات العرب ٣٠٢ الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى الحلبي ١٣٥٢ هـ .

(٣) انظر الكامل ٣١/١١ ، والبيان المغرب ٤٤٧/١ ، والمؤنس لابن أبي دينار ٩٢ ، ودائرة المعارف ٣٩٨/٧ مادة الحسن بن علي آخر حكام المهدية .

(٤) تاريخ الجزائر ٢٠٤/٢ ، وتاريخ الجزائر العام ٣٨٠/١ .

(٥) العبر ٣٦٣/٦ .

تونس ، التي كانت قد خضعت لبني زيري منذ أخضعها علي بن يحيى بن تميم حوالي سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م)[1] ، فالهجوم الأول كان على تونس ، وقد اعتبره الزيريون هجوماً عليهم حتى وإن كان حكمهم لتونس صورياً ، وابن أبي الضياف يذكر هذا الهجوم ، ويذكر أنه كان سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) ، وفيه تمكن مطرف بن علي بن حمدون ـ القائد الحمادي ـ من إخراج والي المدينة أحمد ابن عبد العزيز بن عبد الحق بن خراسان ، وخضعت المدينة للحماديين[2]. وقد اختلط الأمر عند ابن عذارى فذكر غزوتين على المهدية ، إحداهما سنة ٥٢٢ هـ والأخرى سنة ٥٣٠ هـ[3]، ويبدو أنه لم يفرق بين وضعيتي تونس والمهدية ، واعتبرهما معاً هجوماً على بني زيري .

ونحن نرجح أن تاريخي ٥٢٩ ، ٥٣٠ تاريخ لهجوم واحد امتد عبر السنتين ، فلا تناقض إذن بين هذه التواريخ الثلاثة .

ويعتبر ابن الأثير ، وابن أبي دينار ، من أوضح المصادر في التأريخ لهجوم الحماديين على المهدية ، ويضاف إليهما ـ في ذكر تفصيلات الهجوم ـ ابن عذارى .

في سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) سير يحيى عسكراً بقيادة مطرف بن علي بن حمدون لحصار المهدية وصاحبها الحسن بن علي بن تميم .

وتختلف الآراء حول أسباب تلك الغزوة ، فيرى ابن الأثير وابن عذارى أن القبائل العربية هي التي أوقعت بين الطرفين ، فقد كان الحسن محباً لميمون ابن زياد أمير إحدى طوائف العرب الكبيرة ، فحسده بقية العرب ، وسار أمراؤهم إلى يحيى بن العزيز بأولادهم وجعلوهم رهائن عنده ، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليملكوا له المهدية ، فأجابهم إلى ذلك وهو متباطئ ، وقد اتفق

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١/١٤٢ .
(٢) إتحاف أهل الزمان ١/١٤٨ .
(٣) البيان المغرب ١/٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

أن وصلته كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك ، فقوّى ذلك من عزمه ، ووثق بما قال العرب[1] .

ويضيف ابن الأثير أن الحقد التاريخي الكامن في نفس يحيى ونفوس آبائه ، كان أحد الأسباب التي دفعته إلى غزو المهدية[2]. وإلى قريب من هذا يذهب صاحب التذكار[3] .

وتتّجه بعض الآراء اتجاهاً آخر ، فيرى ابن أبي دينار أن يحيى قصد أخذ المهدية لأنه سمع أن الأمير الحسن صالح روجار الرومي صاحب صقلية ، مخافة شره[4]. ويؤيده في هذا الاتجاه « الجيلالي » الذي يذهب إلى أن الوفد الذي جاء إلى يحيى شكا إليه سوء حالة البلاد مع النورمان ، وسوء سلوك الأمير الحسن ، ومصادفة ذلك لهوى في نفس يحيى[5]. كما يذهب إلى هذا التفسير الدكتور إبراهيم العدوي ، الـذي يحمل الحسن تبعـة الخلاف مـع الحماديين ، ويأخذ عليه أنه « أثبت عجزه التام عن فهم أهداف النورمان ، وقصر نظره أمام بني عمومته من حكام دولة بني حماد »[6]، بل يذهب الدكتور إلى أن الوفد الذي شكله سكان المهدية وقابل يحيى ، كان لطلب مساعدته في طرد النورمان وإغاراتهم الوحشية[7].

---

(١) انظر الكامل ٣١/١١ ، والبيان ٤٤٩/١ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٤/٢ .
(٢) الكامل ٣١/١١ .
(٣) التذكار في من ملك طرابلس ، ص ٥٠ لابن غبوش .
(٤) المؤنس ٩٢ .
(٥) تاريخ الجزائر العام ٢٨٠/١ .
(٦) المجتمع المغربي ٢٨٣ للدكتور إبراهيم العدوي .
(٧) يذهب الدكتـور العدوي إلى أن غزو المهديـة هذا كان سنة ٥٢٢ ، ويتسق مع هذا التاريخ قوله : بأن الوفد طلب المساعدة وهذه حقيقة لكنها ليست مساعدة لطرد النورمان ـ أولاً ـ ، وليس الوفد مهدياً ، وإنما تونسياً ـ ثانياً ـ فالثابت أن أهل تونس هم الذين استدعوا منه النظر إلى مدينتهم ، كما أن يحيى قام ـ فعلاً ـ بالاستيلاء على تونس ، تغييراً للمنكر سنة ٥٢٢ هـ (إتحاف أهل الزمان ١٤٨/١) .. لكن مع توضيحنا للأمر وتفريقنا بين حملتي تونس والمهدية يزول كثير من الغموض الذي لابس هذا الموضوع ويتجلى موقف يحيى .

وسوف نلجأ في تفضيلنا لواحد من الرأيين السابقين إلى مجموعة من الحقائق والأحداث التاريخية ، وهي من شأنها ــ وحدها ــ أن تكشف لنا الرأي الأولى بالأخذ والاعتبار .

وأول هذه الحقائق أن الصراع بين النورمان والزيريين كان على أشده في فترة طويلة سبقت محاولة الحسن الصلح معهم ، وكان لجوء الحسن إلى مداراتهم نوعاً من الاستسلام أملته عليه ظروف قاهرة ، ولم نسمع عن محاولة حمادية للوقوف إلى جانب الزيريين ، بل يرى الأستاذ الهلالي والميلي أن الحماديين رأوا في توهين النورمان لبني عمومتهم إعانة لهم على امتلاك مملكتهم يوماً ما ، وأن النورمان رأوا ــ في المراحل الأولى ــ ألا يهيجوا الحماديين بسوء ، فظلت العلاقات بينهم حسنة ، ولم يتغير عليهم النورمان إلا بعد أن رأوهم ملكوا جربة وطمعوا في المهدية [1]، أي أن الخلاف الذي وقع بين الحماديين والنورمان في الفترة الأخيرة من حياة الدولة ومن حكم يحيى ، كان مجرد صراع على ميراث الدولة الزيرية ، وهذا بالطبع موقف مؤلم لبني زيري .

والحقيقة الثانية أن الحسن لم يكن بهذه النعوت التي أوردها الكاتبان المعاصران ، الجيلالي والدكتور العدوي ، بل الذي يذكره ابن الخطيب أن الحسن كان « حسن السيرة ، ذا قريحة وقادة ، وفطرة سليمة ، وإدراك لطيف »[2] بينما كان يحيى كما ذكرنا في وصفه ــ وكما نعته ابن الخطيب نفسه ــ لاهياً عابثاً منصرفاً إلى ملذات نفسه .

وبينما كانت مشاكل الحسن تتكالب عليه في الداخل وفي الخارج ، كان الحماديون يستغلون الفرصة وينقضون على الدولة الزيرية من أطرافها ــ تماماً كما يفعل النورمان .

ولئن كان الناصر بن علناس والمنصور والعزيز قد حاولوا تعميق علاقتهم بأبناء عمومتهم عن طريق المصاهرة ــ وهي الظاهرة الوحيدة التي تقربوا بها إلى أبناء

---

(١) تاريخ الجزائر ، الهلالي الميلي ٢/٢١٠ .
(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب ٣/٨٣ .

عمومتهم الزيريين ـ فإن يحيى لم نجده يقدم على أية محاولة للتقارب مع أبناء عمومته .

بل أثبتت الأحداث أنه في غير موقف كان الزيريون أكثر إنسانية مع الحماديين ، كموقف تميم بعد موقعة سبيبة ، وكموقف الحسن هذا مع الأسطول الحمادي الذي غزاه عقب الموقعة التي نتحدث عنها الآن ـ كما سنذكر فيما بعد ـ وكموقف المعز مع حماد سنة ٤٠٨ هـ ، ومع القائد سنة ٤٣٢ هـ . ولم تبد مثل هذه المواقف من جانب الحماديين ، وحتى عندما سقطت المهدية بيد النورمان سنة ٥٤٣ هـ ولجأ الحسن إلى يحيى بجاية ، عـامله يحيى بصلف وغرور ، ورفض أن يقابله ، أو يجتمع به في مدينة ، وفرض عليه نوعاً من الأسر النفسي والمادي .

على أن ابن أبي دينار ـ الذي ذهب إلى أن يحيى قصد أخذ المهدية عندما سمع أن الأمير الحسن صالح روجار الرومي ، قد ذكر لنا أن ذلك الصلح من الحسن لم يكن إلا « مخافة شره » ، مما يوعز بأن موقف الحسن كان موقف المضطر ، وقد ذكرنا سلفاً أن الحسن استعان بالمرابطين ، والذي نرجحه أنه ما كان ليرفض أية مساعدة حمادية تأتيه من جانب أبناء عمومته ، لولا ما بدا له من سياستهم الإقليمية الذاتية ، ورغبتهم في التوسع على حسابه ، أكثر من رغبتهم في الوقوف معه ضد النورمان .

وإنه ليبدو لنا ـ لكل هذا ـ أن الرأي الأول وهو الرأي الذي قال به ابن الأثير وابن عذارى والهلالي ، هو الرأي الجدير بالأخذ والاعتبار والتفضيل .

وعلى أية حال فلم تؤت هذه الحملة ثمارها ، على الرغم من أن قائدها « مطرف » قد بذل كل وسائله في الاستيلاء على المدينة « فتظاهر بالتقشف والتورع عن الدماء ـ بناء على أمر يحيى ـ وأشاع أنه إنما جاء ليتسلم البلد من غير قتال »[1] ، لكنه عندما يئس من استسلام المدينة بعد أيام من الانتظار ، نزل بظاهر « زويلة » ـ إحدى ضواحي القيروان ـ وباشر القتال ، فظهر أهل المدينة عليه وعلى جنده ، وقُتل من جنده جم غفير ، فأمر « مطرف » بالزحف الشامل

(١) الكامل لابن الأثير ٣١/١١ .

براً وبحراً على المدينة ، وقاتل شر قتال ، حتى اقترب من السور ، فأمر الحسن بفتح الأبواب ، وأشرك أسطوله في المعركة ، وخرج الحسن يقود الناس من باب المدينة ، ووصلت نجدة بحرية من « رجَّار » الفرنجي صاحب صقلية في عشرين قطعة ، فحاصرت مراكب « مطرف » ، وأراد النورمان إغراقها ، لكن الحسن منعهم من ذلك ، وأمرهم بالكف عن قتال أبناء عمومته ... ففعلوا ... كما وصل ميمون بن زياد ـ حليف الحسن من العرب ـ في جمع كثير لنصرته .

واستولى الحسن على غرابين[1] من أسطول بجاية – وعندما رأى مطرف كل ذلك فر عائداً خائباً[2] .

وكان من أبرز نتائج هذه المعركة أنها جنت على يحيى نفسه[3] وأقفلت باب التفاهم والود أبدياً بين فرعي زيري ووقف كل منهما للآخر بالمرصاد في أحلك ظروف كانا يحتاجان فيها إلى التعاون ، يؤكد لنا ذلك استيلاء الزيريين على المركبين الغيطاني والعجزي اللذين أرسلهما الفاطميون في القاهرة إلى يحيى سنة ٥٣٦ هـ كنتيجة للعلاقات السيئة التي تسود بينهما[4] .

ومن آثار هذه المعركة كذلك أنها فتحت على الحماديين باب الصراع مع النورمان ، وقضت على فترة السلام العرفي بينهما ، ولم يعد النورمان يخشون المرابطين الذين كانوا يحتضرون بدورهم ، فقلت أهمية الحماديين الذين كانوا يقفون كحاجز بين المرابطين وبينهم ، فلم تأت سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) إلا وكان « روجار » ينازل جيجل الحمادية ، وقد نجح في أخذها عنوة وسفك دماء أهلها وسبي حريمها وأحرقها بالنار[5] ولم ينج من أهلها إلا من تعلق بالجبال ،

---

(١) الغراب اسم لنوع من السفن معروف لا سيما لدى المغاربة ، لأن مقدمتها على شكل رأس الغراب (انظر تاريخ الأسطول العربي لمحمد الحموي ٣٩) .
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٣٢/١١ ، والبيان المغرب لابن عذاري ٤٤٩/١ ، ٤٥٠ ، والمؤنس لابن أبي دينار ٩٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٣٩٩/٧ مادة الحسن ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٤/٢ .
(٣) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٧٧ .
(٤) البيان المغرب ٤٥٠/١ ، ٤٥١ ، ونظم الجمان لابن القطان ٢٣٣ ، حاشية ٢٣٤ .
(٥) انظر المؤنس ٩٣ .

وفي سنة ٥٣٩ هـ فتحوا برشك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين[١]. كما أن روجار فتح بونة وصفاقس وسبي أهليهما[٢].

وقد اطمأن النورمان بعد هذه الموقعة إلى اختلاف الزيريين مع الحماديين ، فتقدموا يغيرون على شواطئ المغربين الأوسط والأدنى دون خشية ، وأصبحوا من ذلك الحين ، وإلى ظهور الموحدين واستيلائهم على المغرب كله ، سادة الساحل الممتد عبر ليبيا وتونس والجزائر حتى بونة (عنابة) في الساحل الشرقي الجزائري[٣]، وكانت هذه أكبر حجة شرعية وجدها الموحدون ، بل أملت نفسها على الموحدين ، كي يتقدموا للسيطرة على المغرب العربي[٤]. وبخاصة وأنه في سنة ٥٤٣ هـ (١١٣٨ م) سقطت المهدية في يد النورمان ، وفر الحسن إلى بجاية ذليلاً بعد أن يئس من وجود ملاجئ أخرى ، وهناك رفض يحيى أن يقوم بمجرد استقباله[٥].

وفي سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) كان الموحدون يتقدمون إلى بجاية ، ليلعبوا معها الدور الذي فرضت عليهم المقادير القيام به ، وقد شق عبد المؤمن بن علي الموحدي طريقه من سبتة إلى بجاية في صفر سنة ٥٤٧ هـ ، دون أن يعرف الذين معه خط سيره ومقصده الحقيقي ، وأسرع في السير وطوى المراحل ، فلم يشعر أهل بجاية إلا والموحدون في أعمالها[٦].

---

(١) تاريخ الجزائر للهلالي ٢١٠ .
(٢) البيان المغرب ٤٥٢/١ .
(٣) الكامل حوادث سنة ٥٤٣ ، والعبر ٣٣٢/٦ .
(٤) انظر الدولة الموحدية بالمغرب ٢٠٢ ، وانظر عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٠ .
(٥) انظر أعمال الأعلام ٨٣/٣ ، والعبر ٣٣١/٦ ، ٣٣٢ والبيان ٤٥١/١ ، وإتحاف أهل الزمان ١٤٣/١ .
(٦) انظر الكامل ١٥٨/١١ .

الفصل الثاني

السّياسة الخارجيّة للدّولة

١ - الحماديون والفاطميون
٢ - الحماديون وبنو زيري
٣ - الحماديون وبنو خراسان
٤ - الحماديون وزناتة
٥ - الحماديون والقبائل العربية
٦ - الحماديون والمرابطون
٧ - الحماديون والأندلسيون
٨ - الحماديون والمسيحيون

١ – الحماديون والفاطميون :

لم يكن حكام صنهاجة يشعرون بولاء كبير نحو الفاطميين ، بل كانوا يحسون أنهم وحدهم الحقيقون بزعامة المغرب . ولم يكن ولاء صنهاجة لهم إلا عملية انتصار بقوة كبرى ضد أعدائهم من زناتة وضد مشاكلهم الداخلية في المغرب ولئن كان بلكين بن زيري الذي استخلفه المعز لدين الله الفاطمي على المغرب لم يظهر الخلاف للفاطميين ، فإن ذلك لم يكن إلا مداراة سياسية أملتها ظروفه في المغرب ليواجه كتامة وزناتة وغيرهم .

لقد كان بلكين داهية عرف كيف يسبح في هذه البحار الصعبة ! !

ومع أن ابنه وخليفته المنصور قد آثر السير على درب أبيه ، لكنه مع ذلك قد أظهر روح الاستقلال ، وعدم الولاء للفاطميين ، وقد ظهر ذلك في قوله لمهنئيه بالولاية بعد وفاة أبيه « ولست ممن يولى بكتاب ، ويعزل بكتاب ، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي »[١]. ولقد شعر الفاطميون بروح المغرب تجاههم ، وبروح المنصور فحاولوا إثارة كتامة ضد صنهاجة ... ضماناً لبقاء الصنهاجيين على الولاء لهم . وعلى الرغم منْ نجاح المنصور وابنه باديس ــ بمساعدة حماد ــ في السيطرة على المغرب ، فقد كانا يحسان بأن الوقت ليس صالحاً للانقضاض على الخلافة الفاطمية .

لكن المغرب العربي شهد في سنة ٤٠٥ أول خروج رسمي علني ضد زعامة الخلافة الفاطمية ، وكان بطل هذا الخروج « حماد بن بلكين »[٢]. فانفتح

---

(١) سياسة الفاطميين الخارجية ، دكتور جمال الدين سرور ٢٢٥ ، والمغرب الكبير ج ٢ ص ٦٥٣ ، دكتور السيد عبد العزيز سالم .

(٢) العبر ٦/٣٥٠ ، La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 7. ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢/١٩٠ .

بذلك باب الخروج عليهم وانقطع ذلك الخيط الرفيع الذي كان يمنحهم هيبةً رمزية ، ولم تحل سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) إلا كان المعز بن باديس يحذو حذو حماد ـ على الرغم من اختلافهما السياسي القائم ـ ويسمح بقتل الشيعة « إذ كان ذلك شهوة العسكر والعامة وأتباعهم »(١). كما أن المعزّ خطا خطوة أخرى إذ فرض المذهب المالكي ، وأخرج ما عداه من المذاهب من المغرب(٢).

والحق أن المغاربة على وجه العموم لم يتشربوا عقائد الفاطميين ، ولذا لم تجد حركات نبذ الفاطميين أي مقاومة .

لقد كان الفاطميون ـ من جانبهم ـ يحرصون على بقاء هذا الخيط الرفيع ، ويتغاضون عن كثير من مظاهر الخروج ، بل كانوا يقابلونها بإرسال مزيد من الهدايا ، ولعل ذلك هو الذي أرجأ الخروج الرسمي عليهم من جانب المعز أكثر من ثلاثين سنة بعد خروجه الأول سنة ٤٠٧ هـ . لكن القائد بن حماد حاول من جانبه سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) الخروج على الفاطميين .

ويبدو أن الخروج على الفاطميين كان الشعار الذي يرفعه كل ثائر في المغربين الأوسط والأدنى يريد لنفسه استقطاب الجماهير والحصول على ولائها . وذلك لأن هذا الخروج يرضي المغاربة ويتمشى مع ميولهم(٣).

لقد كانت علاقة الفاطميين بالحماديين مجرد لعبة سياسية تُستغل وفق الظروف ولم يكن ثمة ولاء حقيقي يشعر به الحماديون نحوهم .

وعندما هاجمت القبائل العربية المغرب بإيعاز من الفاطميين بعد خروج المعز عليهم سنة ٤٤١ هـ ، راح القائد بن حماد ـ الذي كان قد خرج على الفاطميين يتظاهر بالولاء لهم تقيَّةً ، واستجلاباً لرضا القبائل المغيرة حتى جاءه لقب

---

(١) الكامل ٢٩٤/٩ حوادث سنة ٤٠٧ .

(٢) انظر وفيات الأعيان جـ ٢ / ١٣٧ ، والنجوم الزاهرة ٧١/٥ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٤٠/١ ، وسياسة الفاطميين الخارجية ٢٢٧ ، وقد نسب أستاذنا الدكتور إبراهيم العدوي ذلك لحماد (المجتمع المغربي ٢٧٣) .

(٣) انظر : ورقات من الحضارة المغربية ٤٤٤/١ (حسن حسني عبد الوهاب) .

تشريفي منهم ، و لم يزد الأمر في بقية أيام الدولة عن هذا المستوى ، لا سيما والفاطميون أنفسهم قد بدأوا يدخلون طور الاضمحلال منذ أواخر القرن الخامس الهجري [١] .

ويبدو أن الفاطميين لم يفقدوا الأمل في عودة المغرب إلى حظيرتهم ، وأنهم كان يرضيهم أن تؤدي لهم مظاهر الولاء الشكلية ، فمع اقتناعهم برفض المغرب لهم ولآرائهم ، نراهم يسارعون عند أية بادرة ، إلى بذل الهدايا وتقديم الألقاب ، ونحن نقرأ عن مركب فاطمي رحل عن الإسكندرية ببضائع عظيمة وهدية إلى صاحب بجاية سنة ٥٣٢ هـ - أي على عهد يحيى [٢] .

* * *

ومع هذه السياسة القائمة على أسس واهية بين الحماديين والفاطميين ، كانت ثمة صلات أخرى بعيدة عن مجال السياسة والصراع المذهبي تربط بين المغاربة والمشارقة في الشام ومصر ، ويبدو أنها شبه تقليد حرص المغاربة على عدم قطعه ، ويحدثنا ناصر خسرو الذي زار الدولة الفاطمية بين سنوات ٤٣٧-٤٤٤ هـ عن مشاهدته لأفواج من البربر في عرض عسكري عام يبدو أنهم كتائب عسكرية مغربية تقيم في القاهرة الفاطمية رمزاً لهذه التبعية التي كانت موجودة أيام المعز الفاطمي . ويقدر ناصر خسرو عدد أفراد الكتائب المغربية [وقد ذكر أنهم ثلاث كتائب ـ إحداهـا كتامية من كتامة ، والأخرى تدعى باطلية مغربية ـ ذكر أنها دخلت مصر قبل مجيء المعز الفاطمي إليها ، فهم من المغاربة المهاجرين أصلاً ـ والثالثة مصمودية من المغرب الأقصى] وهو يقدر مجموع هذه القبائل بخمسة وثلاثين ألف فارس [٣] . ولفترة ليست قصيرة من عمر الدولة الفاطمية في مصر كان الخلفاء الفاطميون يستمدون قوتهم من عنصرين من الأجناد : العنصر المغربي والعنصر المشرقي . وقد كان المعزّ لدين الله يقرب العنصر المغربي

---

(١) العبر ٣٥٢/٦ .

(٢) نظم الجمان ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، والبيان ٣١٢/١ .

(٣) انظر : سفرنامة ٥٢ .

إليه ، وقد وجدت قبائل أخرى مغربية غير تلك التي ذكرها ناصر خسرو كالجوزية وزويلة[1]. وكانت لهذه القبائل المغربية حارات في القاهرة تنتسب إليهم كحارة زويلة (اسم ضاحية في القيروان) وحارة الجوزية ، وحارة الباطلية ، وحارة كتامة ، وحارة المصامدة[2]. وقد بقي هؤلاء قوة ذات شأن ، ففي السجلات المستنصرية يرد المغاربة في الرسالة الثالثة والأربعين ، كإحدى القوى الكبرى التي يعتمد عليها الجيش الفاطمي[3]. وفي الرسالة السادسة والخمسين يقص المستنصر قصة دعاة ومروجي الفتنة الذين يوحون إلى المشارقة بأنه يقوي عليهم المغاربة وإلى المغاربة بأنه يقوي عليهم المشارقة[4]، مما يؤكد نفس المعنى .

٢ – الحماديون وبنو زيري :

عندما أقر الصلح بين المعز وحماد سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) كان واضحاً أن الدولة الحمادية مدينة بوجودها لدولة الزيريين ... وقد استمرت سياسة الحماديين معتدلةً نحو الزيريين ، على الرغم من الخلاف الذي وقع بين القائد والمعزّ سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) حتى السنوات التي أغارت فيها القبائل العربية على القيروان وتونس وبدأت تزحف نحو الجزائر الحمادية .

والحق أن الحماديين والزيريين معاً قد فشلا في أن يشكلا صفاً واحداً في مواجهة القبائل العربية ، ولئن كان الحماديون يتحملون العبء الأكبر في هذا الخطأ ، فإن الزيريين يتحملون كذلك قسطاً كبيراً منه في الحقيقة .

ومنذ عهد الناصر بن علناس والسياسة الحمادية تبدو متجهة نحو ذاتها ، بعيدة عن محاولة الالتقاء الجدي مع أبناء عمومتها ، ولم تكن محاولات التقرب بالمصاهرة إلا لعبة سياسية للتهدئة ، استعملها الحماديون مع الزيريين ومع غيرهم ...

---

(١) نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، الدكتور عبد المنعم ماجد ، الجزء الأول ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، وانظر الدولة الفاطمية في مصر وسياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، الدكتور محمد جمال الدين سرور ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) نظم الفاطميين ورسومهم ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) انظر السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق الدكتور عبد المنعم ماجد ص ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٨١ .

لكنهم لم يشعروا بأن التعاون مع الزيريين يمثل ضرورة حياتية في مواجهة أعتى خطرين واجهاهما معاً وهما النورمان والقبائل العربية ، فضلاً عن زناتة العدوّ التقليدي .

لقد وقف الطرفان وجهاً لوجه ، وبينما تمالأ الحماديون مع الأعراب من أجل الحصول على بلدان أبناء عمومتهم فضلاً عن تواطؤهم معهم في سبيبة سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) ، كذلك وقف الزيريون وراء ثورة أبي يكنى ضد المنصور الحمادي ، وكان لهم بدورهم أنصارهم من العرب بعد تفوقهم في المهدية وخراب القيروان .

وكانت مدينة تونس ومنطقتا صفاقس وجربة ، تمثل مناطق نزاع بين الدولتين ، وقد تبادلا إخضاع هذه المناطق لسيادتيهما ، كما خضعت القيروان ـ إلى حد ما ـ لنفس الصراع .

لقد كان ثمة عامل مهم يتحكم في سياسة الحماديين نحو أبناء عمومتهم ... ويتلخص هذا العامل في أن الحماديين قد أحسوا بأن دولة الزيريين هي المتصدرة للسياسة الخارجية للمغرب ـ هكذا كان الأمر إلى قدوم الهلاليين ـ فقد كان حماد وابنه القائد يخضعان للزيريين ، وقد جرَّ هذا إلى رد فعل عنيف ؛ إذ رأى الحماديون في الغارات الهلالية فرصتهم ليتصدروا المغرب[1] ، وليرسموا سياستهم الخارجية التي فشلوا في الاستقلال بها قبل الهلاليين ، وقد ورطهم تحقيق هذا الأمل في خطأ التخلي عن أبناء عمومتهم دون تبصر بالعواقب التي تضر بالمغرب العربي كله ، ويصور لنا ابن الأثير والنويري هذه القضية أوجز تصوير وأعمقه في قولهما : « وكان القائد يضمر الغدر وخلع طاعة المعز ، والعجز يمنعه من ذلك ، فلما رأى القائد قوة العرب ، وما نال المعزّ منهم ، خلع الطاعة واستبد بالبلاد ، وبعده ولده محسن وبعده ابن عمه بلكين وبعده ابن عمه الناصر »[2].

ومن الممكن القول بأن بعض هذه المدن الزيرية كانت تدخل في طاعة الحماديين لتأمن على نفسها ، أو أن الحماديين كانوا يستولون عليها ، أو يشترونها

(١) نهاية الأرب للنويري جـ ٢٢ ص ٦٦ (الجزء الثاني) مخطوط .
(٢) الكامل ٢٥٧/١٠ ، ونهاية الأرب جـ ٢٢ ص ٦٦ (الجزء الثاني) .

من القبائل العربية[1] ، لكن من الجليّ أنهم كانوا يهاجمون هذه المدن كذلك حين تعود إلى الزيريين ، كما فعلوا مع تونس وجربة . فضلاً عن هجومهم المباشر على أبناء عمومتهم في المهدية ، وفضلاً عن عدم مساعدتهم له .

ومما لا شك فيه أن من حق الزيريين – في ظل النكبات التي توالت عليهم أن يطمعوا من أبناء عمومتهم الحماديين – الذين كان لهم فضل بروزهم – في موقف أكثر خضوعاً للوشائج التي تربط بينهم ، في مواجهة عدو أجنبي مشترك ، سواء في مواجهة الهلاليين أو النورمان .

وعلى أية حال ، فقد اتسمت سياسة الحماديين بالإقليمية المحضة ، ولم يتركوا فرصة للتوسع على حساب أبناء عمومتهم إلا استعملوها ، ولم يستطيعوا تخطي العوامل النفسية المحدودة ، كي تتحقق لهم – في سياستهم تجاه الزيريين – نظرة بعيدة شاملة .

ولعل هذا هو الذي جعل علاقة الزيريين تتسم في أكثر فتراتها بالتفكك والعداء والفتور .

٣ – الحماديون وبنو خراسان :

كانت مدينة تونس من جملة المدن التي خضعت لعبث القبائل العربية الزاحفة على المغرب ، ولم يستطع تميم بن المعز ، الذي خلف أباه ، في حكم المهدية ، أن يقرّ النظام والأمن في هذه المدينة ، لا سيّما وهو منجحر في المهدية ، يدفع عنه القبائل العربية بوسائل التفريق بينها والتحالف مع بعضها .

وكانت الدولة الحمادية ، كما ذكرنا من قبل قد بدأت تتمتع منذ عهد الناصر باستقرار نسبي ، وبتفوق على مملكة الزيريين المتداعية .

وقد دفع هذا وجوه أهل تونس إلى اللجوء إلى الناصر ، مذعنين إليه بالطاعة ، ومستغيثين به من هؤلاء الخرّاب . مستدعين منه النظر إلى مدينتهم ، فولي عليهم

---

(١) انظر البيان المغرب ٤٥٤/١ ، ٤٥٥ ، وانظر دائرة المعارف ، مادة تونس ٣٤/٦ ، وإتحاف أهل الزمان ١٤٧/١ ، وديوان ابن حمديس الصقلي ، إحسان عباس ١٣ ، وابن حمديس رسالة ماجستير ، دكتور سعد شلبي ٩٧ .



عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان[1].

وقد تقلبت أمور هذه المدينة بين خضوع للحماديين في فترات متقطعة قصيرة (٤٥٥ ، ٥٢٢ هـ)[2] ، وبين خضوعها للزيريين في فترات تتخلل هذه الفترات ، وبين استقلالها التام تحت حكم بني خراسان الصنهاجيين[3].

لقد سمحت الظروف المضطربة في المغرب لعبد العزيز بن عبد الحق بن خراسان ، الذي ولاه الناصر بن علناس على مدينة تونس ، أن يستقل بحكم المدينة ، وأن يورث حكمها لأبنائه من بعده ، وقد استمر حكم بني خراسان لمدينة تونس إلى ما بعد سقوط الدولة الحمادية ، ولقد خضعت المدينة لحكم النورمان الذين تركوا بني خراسان يحكمونها نيابة عنهم[4]، ولم يسقط بنو خراسان ، إلا على يد الموحدين سنة ٥٥٤ هـ[5]، أي بعد سقوط الحماديين بسبع سنوات .

لقد كانت علاقة الحماديين ببني خراسان علاقة تقوم على الرغبة في تبعية بني خراسان المطلقة لهم ، وقد نافسهم في تحقيق هذه الرغبة بنو زيري في المهدية ، وبالتالي ، كانت مدينة تونس مجالاً لتنافس بين فرعي صنهاجة ، وعاملاً من عوامل توتر العلاقة بينهما .

بيد أن هذا كان فرصة لبني خراسان ، فاستقلوا بحكم المدينة ، وقد استبدّ بعضهم بها استبداداً مطلقاً ، كعبد العزيز بن عبد الحق بن خراسان (٤٨٨-٥٢٢ هـ) الذي اتخذ شارة الملك وبنى قصراً باسم بني خراسان واستمال العرب[6]، إلى أن نازلته عساكر العزيز بن المنصور الحمادي سنة ٥١٤ هـ فعاد إلى طاعته ، ثم خرج

---

(١) انظر العبر ٦/٣٣٤ .

(٢) انظر العبر ٦/٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، وانظر إتحاف أهل الزمان ـ ١/١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) المراجع السابقة ـ نفس الصفحات .

(٤) انظر المعجب للمراكشي ٢٩٨ .

(٥) انظر المعجب ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وإتحاف أهل الزمان ١/١٥٠ ، وانظر الدولة الموحدية بالمغرب ص ٢٠٨ .

(٦) انظر العبر ٦/٣٣٥ ، ٣٣٦ .

على طاعة الحماديين مرة ثانية ، فأعاد يحيى بن العزيز غزو تونس سنة ٥٢٢ هـ ، وأخرجه منها ، ونقله إلى بجاية هو وأهله[١].

وقد رأى يحيى ، ضماناً لاستمرار تبعية مدينة تونس ، تغيير الأسرة الخراسانية ، وتولية بعض أبناء الأسرة الحمادية ، فولى على المدينة عمه « كرامة بن المنصور » الذي بقي عليها إلى أن مات ، فخلفه عليها أخوه « أبو الفتوح بن المنصور » فساءت سيرته ، فعُزل ، وولي مكانه عمه « معد بن المنصور » الذي حكم المدينة ، إلى سنة ٥٣٤ هـ (١١٤٨ م)[٢].

وفي تصورنا أن هذه السنوات التي لا تزيد عن اثنتي عشرة سنة (٥٢٢-٥٣٤ هـ) ، هي فترة السيطرة الحقيقية الوحيدة التي تصرف فيها الحماديون في حكم هذه المدينة ، وهذه الفترة جزء من حكم يحيى ـ آخر أمراء الحماديين ـ وقد دخلت المدينة بعد ذلك في حكم العامّة ، ورجع إليها بنو خراسان إلى أن سقطت بيد الموحدين كما ذكرنا .

إن عبد الحق بن خراسان ، الذي ولاه الحماديون على مدينة تونس لأول الأمر ما إن تولى حتى أعلن استقلاله بالأمر ، وجاهر بالعصيان والاستقلال عن بني حماد[٣]، ثم تبعه في الاستبداد بالأمر ابن عبد العزيز الذي حكم المدينة لأكثر من ثلاثين سنة ، كما أن الأمر قد خرج عن أيدي الحماديين بعد سنة ٥٣٤ هـ ولم يعد إليهم ، بتأثير دخول دولتهم مرحلة التحدي المباشر لقوى الموحدين ، وانشغالها بمشكلاتها الأخرى التي تهددها من كل جانب .

فلم تبق إذن — كما رأينا — من استعراض حكم بني خراسان لتونس ، إلا هذه السنوات المحدودة التي ذكرناها ، هي التي تبعت فيها مدينة تونس دولة الحماديين[٤].

كان الخط السياسي الذي يربط علاقة الحماديين ببني خراسان هو خط

---

(١) المكان السابق نفسه .

(٢) انظر العبر ص ٣٣٦ ، وإتحاف أهل الزمان ١٤٨/١ ، ١٤٩ .

(٣) انظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٢/١ .

(٤) استغل كثير من الكتاب هذه الفترة المحدودة فأعطوا الدولة أكثر من حقها ، وعممت =

العداء الدائم ، فبنو خراسان في نظر الحماديين ولاة خارجيون ، منشقون على طاعة ملوكهم الذين ولوهم ، وفي كل ظروف سنحت للحماديين ، لم يتورعوا عن الهجوم عليهم ، هاجمهم الناصر والعزيز ويحيى ، فلما تمكنوا من خلعهم لم يترددوا في ذلك .

لقد شكلت تونس الخراسانية منطقة صراع على امتداد هذه الفترة ، وكانت مجالاً للمساومة مع الأعراب ، ونموذجاً من تلك المدن الزيرية التي آل أمرها إلى الفوضى بعد خراب القيروان ، وكانت هذه المدن تبحث عن الاستقرار تحت أي حكم .

وبفعل الفوضى الدائمة التي كانت تحدثها القبائل العربية التي تحولت إلى جماعات مرتزقة بالحروب ، وكذلك بتأثير المشكلات التي واجهت الحماديين والزيريين معاً ، عاشت هذه المدن في فوضى دائمة ـ تحت ظروف غير مستقرة ، ولم ينجح الحماديون في أن يكونوا القوة التي تقرّ الأمن في هذه المدن . لكن نفوسهم – مع ذلك كانت تطمح إلى حكمها .

وكانت هذه الخصيصة في السياسة الخارجية الحمادية ـ إلى جانب انصرافهم عن مواجهة التحديات التي تواجه المغرب من جانب النورمان ، وموقفهم من بني زيري ـ من أبرز السمات التي تحدد معالم سياستهم الخارجية .

٤ – الحماديون وزناتة :

منذ اليوم الأول لميلاد الدولة الحمادية ، واتجاهها العدائي واضح تجاه زناتة ، بل إن قيام الدولة الحمادية وظهورها كدولة مستقلة كان نفحة من نفحات هذا العداء !!

وزناتة ، التي كانت تحتل القطاع الشرقي من الجزائر إلى قريب من تاهرت ،

= بعض الكتابات حدود الدولة ، لا سيما الكتابات المدرسية ـ فجعلتها تضم تونس وجربة وصفاقس والقيروان وغيرها ... مع أن حكم الدولة لهذه المدن لم يكن حكماً حقيقياً أو مستقراً ، ولم يكن لأكثر من فترات محدودة جداً ، ربما كان أكبرها حكم الحماديين لمدينة تونس .

والقطاع الغربي من المغرب الأقصى حتى فاس وضواحيها ، زناتة هذه كانت بطوناً كثيرة تتنازع الرئاسة والنفوذ ، وكان من أشهر بطونها مغراوة ويفرن وبني ومانو وبني يلومي وبني مدين وبني مادين .

وإلى قيام الدولة المرابطية كانت تلمسان ووهران وضواحيها خاضعة لمغراوة الزناتية[1] ، ثم قلص المرابطون من نفوذ زناتة ، وتفرق الزناتيون بددا ، لا سيما بعد استيلاء المرابطين على فاس ، ودخولهم لها عنوة وقتلهم أهلها ، وفرار معنصر ابن حماد المغراوي الزناتي أمامهم[2].

ونحن نستطيع القول بأن سياسة الحماديين تجاه زناتة ، كانت تختلف باختلاف الظروف ، على الرغم من العداء الموروث بين الطرفين ، لكن السياسة التي لا تقوم على مبدأ لا تعرف الثبات ! !

وقد استطاع حماد والقائد وبلكين إخضاع زناتة ، وفي فترة حكمهم كان ثمة ما يشبه الاستقرار في العلاقات ؛ إذْ أصبحت هناك حدود متعارف عليها بينهم ، ولم يمنع هذا أن تطمع زناتة في الاستيلاء على الجناح الغربي للجزائر في هذه الفترة ، فقد شهدت أيام القائد هجوماً زناتياً بقيادة حمامة بن زيري أمير فاس ، لكن القائد نجح في هزيمة حمامة بالقتال والرشوة ، وتمكن من إعادته إلى الخضوع للدولة[3].

لقد اتبع الحماديون مع زناتة عدة وسائل سياسية ، وصولاً إلى إخماد ثوراتهم المتلاحقة ، ومن أبرز هذه الوسائل التفريق بين بطونهم المختلفة . وقد آثر الحماديون من بطون زناتة بني ومانو ، واستمالوهم[4]، كما اتبعوا وسيلة المصاهرة – التي استعملوها مع أبناء عمومتهم – فتزوجوا من أخوات ماخوخ رئيس بني ومانو ، بل إنهم استعملوا معهم الرشاوى ـ كما ذكرنا في أمر حمامة بن زيري ـ واستعملوا وسيلة التآمر والاغتيال ، كما فعل الناصر مع المنتصر بن خزرون بن سعيد الزناتي

---

(١) أعمال الأعلام ١٥٤/٣ .

(٢) المراجع السابقة ٢٣٥/٣ ، ٢٣٦ .

(٣) المغرب العربي ، رابح بونار ٢٠٨ ، وتاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٧/٢ .

(٤) تاريخ الجزائر للهلالي ٢٠٧/٢ .

صاحب طرابلس الغرب[1].

وعلى هذا النحو ، فلم يترك الحماديون وسيلة من الوسائل إلا اتبعوها مع زناتة ، الثائرة أبداً ، وبالمثل لم تترك زناتة فرصة للانقضاض والثورة إلا اهتبلتها ؛ فمع أن الحماديين كانوا يستقبلون اللاجئين منهم هرباً من المرابطين[2] ، لكن ما إن أتيحت لهم فرصة التواطؤ مع الأعراب في سبيبة ضدهم حتى انتهزوها ، بل إنهم تواطئوا مع المرابطين ضد بني حماد .

وعلى هذا النحو بدأت وانتهت السياسة التي تربط بني حماد بزناتة إلى أن انتهى نفوذهما معاً أمام الموحدين .

٥ - الحماديون والقبائل العربية :

كان دخول الهلاليين وإخوانهم إلى أرض المغرب حدثاً ضخماً ترك آثاره على تكوين المغرب الحضاري كله ، ولقد كان السبب المباشر لهذا الغزو خروج المعز بن باديس على الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقطعه الخطبة للفاطميين ، ولعنه الفاطميين على المنابر ، فضلاً عن إغراء العامة بأتباعهم ، وخلافه مع وزير المستنصر المعروف باليازوري ، وقد انتهى الدكتور حسن محمود إلى أن سبّ المعز للفاطميين على المنابر كان سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ثم كان ضرب السكة باسمه بعد ذلك[3]. ونستطيع أن نطمئن إلى أن سنة ٤٤٢ هـ ، وهي السنة التي ذكرها ابن الأثير ، هي تاريخ زحف القبائل العربية على المغرب[4].

وقد اختلف المؤرخون في تقدير عددهم ، فذهب بعضهم إلى أن عددهم كان يزيد على المليون ، وهو تقدير مبالغ فيه ، وقد ذهب بعضهم إلى أن عددهم

(١) تاريخ الجزائر للميلي ٢٠٦/٢ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٧/١ .

(٢) قيام دولة المرابطين ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣) بنو زيري وسياستهم الداخلية ٢٧٩ (نقلاً عن الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، دكتور عبد الحميد يونس ص ٦٥) .

(٤) الكامل ٥٦٦/٩ ، وتاريخ الجزائر ٤٨/٢ للهلالي الميلي .

يتراوح بين مائتي ألف ونصف مليون[1]. ولعله التقدير الأقرب إلى الصواب .

ومن المؤكد أن هذه القبائل لم تصل إلى مشارف الجزائر إلا بعد عدة سنوات من زحفها لإفريقية (تونس) ؛ ذلك لأنهم وقفوا عند مملكة الزيريين هذه السنوات ، إلى أن انتصروا انتصارهم الحاسم على المعزّ في معركة « حيدران » بين قابس وصفاقس ، وتم تخريب القيروان[2]. ووجدوا الطريق مفتوحاً إلى جزائر بني حماد ، فتقدموا في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، لكن لم يحدث زحف تدميري شامل كما حدث للزيريين إلا بعد موقعة سبيبة التي كانت أكبر أخطاء الناصر بن علناس سنة ٤٥٧ هـ[3].

ويمكن القول بصفة عامة بأن ضرر الزحف الهلالي بالجزائر كان أقل من ضرره على تونس وطرابلس ؛ لأن الجزائر لم تكن المقصودة بهذه الحملة ، ولم تطل بها مدة الحرب[4].

والحق أن سياسة الحماديين نحو القبائل العربية ، كانت سياسة ناجحة إلى حد بعيد ، وأثبتت الأحداث أنها أفضل من سياسة أبناء عمومتهم بني زيري الذين يتحملون قسطاً كبيراً من نتائج هذه الحملة التي غالى فيها الكثيرون[5].

لقد استطاع الحماديون ـ على وجه العموم ـ ترويض هذه القبائل ، لدرجة استغلالهم لهم في حروبهم ضد بني زيري ، وضد زناتة ، وعن طريقهم حصل الحماديون على مدن زيرية ـ كما ذكرنا ـ واستعملوهم في قتال المرابطين ، وقد استعملوا معهم السياسة الوحيدة الناجحة مع العرب ، وهي سياسة التفريق

---

(١) انظر موجز التاريخ العام للجزائر ، الكعاك ٣٠٤ ، وحضارة العرب : لوبون ٣١٦ .

(٢) أعمال الأعلام ٧٥/٣ ، وإتحاف أهل الزمان ١٣٩/١ .

(٣) تاريخ الجزائر للجيلالي ١٥٢/٢ .

(٤) تاريخ الجزائر للجيلالي ١٥٣/٢ .

(٥) راجع ما ذكره ابن خلدون ٣٥٧/٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، وراجع تاريخ التمدن الإسلامي ، جورجي زيدان الجزء الرابع ٥٣ ، وهامش الدكتور حسين مؤنس في نفس الصفحة ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٤٢/١ ، والكعاك موجز التاريخ العام ص ٢٠ ، وانظر مناقشة ذلك في الهلالي تاريخ الجزائر ، والمغرب العربي لبونار ١٩٩ .

فالثوا بعضهم على بعض ، لدرجة جعلت العرب يحسون بولاء عظيم لدولة الحماديين كما ظهر من ثوراتهم ضد الموحدين بعد سقوط بجاية[1].

ولا يغيّر من طابع هذه السياسة العامة حدوث بعض المعارك بين الحماديين والعرب ، فإن هذه المعارك تنتمي إلى الطابع الذي سيطر على هذه القبائل العربية بفروعها المختلفة بعد انتصارهم واكتساحهم الأمصار المغربية ، وهو طابع الفوضى والارتزاق والانقسام[2]. ولعل هذا الطابع هو الذي جعلهم ـ مع تغلبهم على صنهاجة الزيرية ـ لا يؤسسون ملكاً ولا يشيدون دولة[3].

ولقد بقي بنو حماد بالجزائر محتفظين بقوتهم ، معتدين بانتظام شملهم . (وقد انتفعوا عرضاً بهزيمة بني زيري حيث تقوى نفوذهم في المناطق المجاورة لهم ، وصارت القلعة ـ ثم بجاية ـ وريثة لأمجاد القيروان)[4].

٦ - الحماديون والمرابطون :

عندما بدأ المرابطون يظهرون على مسرح الأحداث بعد خروجهم من الصحراء ، كان المغربان الأوسط والأدنى يتعرضان لغزو كبير يتمثل في القبائل العربية ، وكان الحماديون في موقف لا يحسدون عليه بين زحفين كبيرين يتّصفان بالقوة والشراسة والاكتساح ، وإذا كان الزيريون يعانون ـ في الدرجة الأولى ـ من الأعراب فإن المرابطين كانوا بالنسبة للحماديين يحتلون مكانة العدوّ الأول ، ولئن كان المرابطون قد عبروا البحر واستغرقتهم الأندلس ، ومشاكل ملوك

---

(١) انظر مجموع رسائل موحدية ، الرسالة التاسعة ص ٢٨ ، ٢٩ وما بعدها .

(٢) انظر الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، د. عبد الحميد يونس ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ٧٤ وقد ذكر أنهم تغلبوا على صنهاجة كلها وزناتة ، وهو ما يتنافى مع الواقع التاريخي ، فالحماديون كانوا في قمة ازدهارهم في النصف الثاني للقرن الخامس الهجري وطيلة الربع الأول من القرن السادس الهجري . ولم يقضِ عليهم بسبب الهلاليين بل كان الهلاليون من جنودهم في كثير من الأحايين ، وقد أيّد ذلك الدكتور حسين مؤنس في تعليقه على جورجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي ٥٣/٤) ونقله عنه الجيلالي دون مناقشة (تاريخ الجزائر العام ٣٤٤/١) .

(٤) المغرب العربي لبونار ١٩٨ .

الطوائف ، فلقد بقي الاستيلاء على المغرب الأوسط ، يمثل عاملاً من عوامل أمن الدولة المرابطية[1].

لقد كان لدى المرابطين أكثر من حجة يتذرعون بها للانقضاض على المغرب الأوسط ، فبعض البطون الزناتية قد لجأت إليه ، لا سيما بعد الاستيلاء الأخير على فاس[2] ، كما أن القبائل العربية التي كانت تعيث في بلدان المغرب الفساد ، كانت بدورها حجة بقيت في أيديهم ، يضاف إلى هذا شخصية يوسف بن تاشفين القوية التي بقيت على مسرح الأحداث قرابة نصف قرن بكل ما تمثله شخصيته من رغبة في التوسع والتوحيد .

ويشير الدكتور حسن محمود إلى نظرة المرابطين للجزائر الحمادية حين يذكر أن « أهمية المغرب الأوسط تفوق أهمية غيره ـ بالنسبة للمرابطين ـ فقد كان يحرس المغرب الأقصى ، ويوقف بني حماد وخلفاءهم عند حدهم ، ويرد كيدهم عن المغرب الأقصى »[3] .

وقد برزت مطامع المرابطين ـ في غير موقف ـ نحو الجزائر الحمادية . وبالطبع لم يكن الحماديون ليقفوا في وجهها مكتوفي الأيدي ـ بل قاوموا المرابطين بكل قواهم ، واستعانوا بكل القوى الممكن الاستعانة بها ، ولم يتورعوا عن استخدام القبائل العربية[4] ، بل وزناتة ضدهم ، واستطاعوا أن يحرسوا أكثر ملكهم من زحف المرابطين[5]، ونجحوا في ذلك لدرجة جعلت يوسف بن تاشفين يتراجع عن مطامحه ، ويميل إلى السلم ، وإن كان ذلك لم يحدث إلا في مرحلة متأخرة من حياته ، بيد أن هذا السلم بقي السمة البارزة للأمراء المرابطين الذين حكموا بعده .

---

(١) المغرب العربي ، رابح بونار ١٩٨ .
(٢) انظر قيام دولة المرابطين ٢٠٥ .
(٣) المرجع السابق ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
(٤) قيام دولة المرابطين ٤٢٥ .
(٥) انظر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، دكتور أحمد شلبي ج ٢٤٤/٤ ط ٣ .

ويورد لنا الفتح بن خاقان نص رسالة كتبها عن يوسف بن تاشفين كاتبُه ووزيره أبو بكر بن قبطرنة (قصيرة) موجهة إلى صاحب قلعة بني حماد . وهو وإن كان لم يورد اسم صاحب القلعة إلا أننا نرجح أن يكون المقصود « المنصور بن الناصر » ، وتوضح لنا هذه الرسالة الصراع السياسي الذي كان دائراً بين الطرفين لأنها كانت رداً على رسالة بعث بها صاحب القلعة ، ومن أسلوبها نستطيع القول بأن العلاقة بينهما لم تكن طيبة بمحض إرادة المرابطين ، بل لأن الحماديين ، ومجموعة الظروف المرابطية الأخرى ، قد جعلتهم يجنحون ـ لا سيما بعد يوسف بن تاشفين ـ إلى السلم ...

يقول كاتب الرسالة موجهاً حديثه إلى صاحب القلعة :

« وصل كتابك الذي أنفذته من وادي منى ، صادراً عن الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك ، وأجحفت بطاردك وتلادك . وأخفقت فيها من مطلبك ومرادك ، فوقفنا على معانيه ، وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه . ووجدناك تجعل سيئك حسناً ، ونكرك معروفاً ، وخلافك صواباً ، وتقضي لنفسك بفلح الخصام ، وتوليها الحجة البالغة في جميع الأحكام ، ولم نتأول أن وراء كل حجة أدليت بها ما يدحضها ، وإزاء كل دعوى أبرمتها ما ينقضها ـ وتلقاء كل شكوى صححتها ما يمرضها .

ولولا استنكاف الجدال واجتناب ترديد القيل والقال ، لقصصنا فصول كتابك أولاً فأولاً ، وتقريناها تفصيلاً وجملاً ، وأضفنا إلى كل فصل ما يبطله ، ويخجل من ينتحله حتى لا يدفع حجته دافع ، ولا ينبو عن قبول أدلته راء ولا سامع ، وها نحن ننشدك الله الذي لا تقوم السماء والأرض إلا بأمره ... ألم تكن عندما نزغ الشيطان بينك وبين فلان ، وتفاقم الشنآن ، قد توقدنا على ما كان بالحالة من إفلاق ، وتأخرنا عما كانت النصبة تستقدم إليه من بدار أو سباق ، ولم نمد الجبهة حق إمدادها ، ولا كثرنا وفق ما كان يلزم من جماهير إعدادها ، ولا عنانا غير جهاد المشركين ، ولا أقبلنا إلا على ما يحوط حريم المسلمين ، رجاء أن يثوب استبصار ، أو يقع إقصار ، وأنت خلال ذلك تجفل وتحتشد ، وتقوم وتقعد ، وتبرق غيظاً وترعد ، وتستدعي ذؤابات العرب ـ وصعاليكهم من مبتعد ومقترب ، فتعطيهم ما في خزائنك جزافاً ، وتنفق عليهم ما كنزه أولئك

إسرافاً ، وتمنح أهل العشرات مئين ، وأهل المئين آلافـاً ... كل ذلك لتعتضد بهم ، وتعتمد على تعصبهم ، وتعتقد أنهم جُنّتك من المحاذير وحُماتك من المقادير ، وتذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير[1].

وهي رسالة وافية تستعرض جانباً كبيراً من سياسة الحماديين تجاه المرابطين ، وتبرز الملامح العامة لهذه السياسة ، ويبدو أن ما أشارت إليه الرسالة من نزغ الشيطان ، إنما يقصد به ثورة « أبي يكنى » على المنصور ، واستنجاده بالمرابطين الذين منعتهم ظروفهم في الأندلس وظروفهم الداخلية في المغرب الأقصى من التدخل .

على أن روح الرسالة العامة كافية الدلالة على الحرب الباردة القائمة بين الطرفين ، كما أنها تشير – بوضوح – إلى وقوف الحماديين بقوة في وجه المرابطين واستغلالهم للعرب في صراعهم معهم .

ومع ذلك فإن الحماديين لم يغلقوا أبواب التفاهم مع المرابطين ، بل حاولوا – كعادتهم – تهدئة الصراع بوسائل مختلفة ، فقد صاهر المنصور المرابطين ، كما عفا عن تلمسان خضوعاً لصلات القربى [2]، ولكن المرابطين الذين تمركزوا في تلمسان ، وهي جزء من المغرب الأوسط ، يناوئون الحماديين كلما أتيحت لهم فرصة ، كان لا بد أن يتخذ الحماديون في مواجهتهم سياسة أكثر حزماً ، لا تعدو أن تكون مجرد دفاع عن النفس ؛ ولم يكن من المقبول عقلاً أن يستسلم الحماديون أمامهم ، لمجرد القرابة القومية ، وإلا لكان الزيريون أولى بهذا الكرم الذي لا وجود له – غالباً – في السياسة ! !

لقد تحكمت في علاقة المرابطين بالحماديين المصالح وظروف الامتداد المرابطي ، ولقد خفت صوت الوشائج القبلية في هذه العلاقات بدليل الحروب التي وقعت بينهما ، وكانت سياسة الحماديين تجاه المرابطين متميزة بفهم عميق للتوسع المرابطي ، وبالتالي بحذر منه ووقوف ضده .

---

(١) قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، نسخة مصورة عن طبعة باريس – تصحيح محمد العناني – المكتبة العتيقة ١٩٦٨ ص ١١٩ سلسلة من تراثنا الإسلامي .

(٢) موجز التاريخ العام للجزائر : الكعاك ٢٧٣ .

فلما بدأ المرابطون بعد موت يوسف بن تاشفين على رأس المائة الخامسة يحدّون من مطامحهم ، ووجد الحماديون أنهم لم يعودوا خطراً كبيراً عليهم ، تحسنت علاقاتهم بهم إذ لم يعد هناك ما يثير الخلاف ، فضلاً عن شعورهم المشترك بخطر الانبعاث الموحدي الذي بدأ يظهر مع مطلع العقد الثاني للقرن السادس الهجري .

٧ – **الحماديون والأندلسيون** :

تقلبت أحوال الأندلس الإسلامية في عهد بني حماد تقلبات عدة ، بيد أن السمة العامة التي سيطرت على كل تقلباتها في هذه الفترة الممتدة من أول القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السادس الهجري ، كانت سمة الضعف والفرقة الداخلية ، وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري كانت سياسة الحماديين مجرد تابع لسياسة بني زيري ، وبالتالي فنحن لا نتوقع علاقات خارجية يمكن أن تمتد خيوطها بين الحماديين وغيرهم بصورة مستقلة واضحة وكل ما نتوقعه أن تكون ثمة علاقات أخرى حضارية اقتصادية أو عمرانية .

على أن ثمة عاملين آخرين يساعدان في الكشف عن طبيعة العلاقة السياسية بينهما في هذه الفترة :

أولهما : أن الحماديين كانوا يخضعون سياسياً للفاطميين الشيعة في القاهرة ، بينما كان الخط الأندلسي العام معادياً للشيعة على كثرة تقلب حكوماته .

وثانيهما : أن زناتة التي حاولت أن تعتمد على بني عامر في الأندلس ضد صنهاجة ، قد سدّت باب الاتصال بين الأندلس والحماديين سياسياً .

فلما انتهى عصر الطوائف في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري على يد المرابطين ، صارت الأندلس مجرد تابع للسياسة المرابطية ، ولم تكد الأندلس تنفصل عن المرابطين حتى انتقل أمرها ـ لا سيما في علاقاتها الخارجية ـ من يد المرابطين إلى يد الموحدين .

فمن الملاحظ أن الأندلسيين طيلة فترة الحماديين ، لم تكن لهم سياسة خارجية ذات شأن في عهد ملوك الطوائف ، بفعل صراعاتهم الداخلية . وبعد عهد الطوائف فقدوا السيطرة ـ طيلة وجود الحماديين ـ على سياستهم الخارجية سواء

لخضوعهم لسيطرة المرابطين أو الموحدين .

لكن هل يعني هذا عدم وجود اتصالات سياسية بالمرة بين الأندلس وبني حماد ؟

إنه ، وإن لم تكن هناك صلات مباشرة ، فإن الحماديين قد مثلوا ـ بالنسبة للأندلسيين ـ لا سيما في فترة الازدهار الحمادي ـ ملجأ سياسياً مهماً ، وقد بقيت الجزائر وحدها تمثل لهم المرفأ الحنون في المغرب العربي ، فالمغرب الأقصى كان تابعاً للمرابطين ، ودولة بني زيري كانت منهمكة بمشاكلها مع العرب ومع النورمان .

ونحن نلمح هنا وهناك من الأحداث ما يؤكد هذه الحقيقة ... فابن خلدون يروي لنا أن « علي بن مجاهد العامري » صاحب دانية ، عندما فرَّ أمام « ابن الحاج » قائد يوسف بن تاشفين ، لم يجد أمامه ملجأ إلا بجاية . ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه[1] ، كما يحدثنا غير واحد من المؤرخين ، وعلى رأسهم « عبد الله ابن بلكين » آخر ملوك بني زيري بغرناطة ، عن لجوء معز الدولة بن المعتصم ابن صمادح ـ حاكم المرية ـ إلى بجاية بإشارة أبيه عليه أن ينجو بنفسه إلى القلعة ، إذا استولى يوسف بن تاشفين على المريّة ، وعندما وصل معز الدولة هذا إلى الجزائر أكرمه صاحب القلعة « المنصور » ، وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكنى ، فاختار « تدلس » على البحر[2] وكان ذلك في رمضان سنة ٤٨٤ هـ .

ولقد كانت بجاية ـ على وجه الخصوص ـ بموقعها الساحلي والمركز الممتاز الذي احتلته في الدولة الحمادية ، باباً لخلق علاقات متنوعة مع أسبانيا [3]، لا سيما في مجالي الاقتصاد والعمران . وبديهي أنه من الصعب أن نفرق تفرقة

---

(١) العبر ٣٨٣/٦ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة ، تحقيق ونشر ليفي بروفنسال ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، والكامل ٢٩٢/٩ ، والحلة السيراء ٨٩/٢ ، ٩٠ ، والعبر ٦/ ٣٦١ ، ٣٨٤ .

(٣) الإسلام في المغرب والأندلس ليفي بروفنسال ٢٧٠ .

حاسمة بين العلاقات الاقتصادية والسياسية ، فلكل منهما بالآخر كبير صلة .

وجدير بالذكر أن العنصر البربري الذي رحل إلى الأندلس مع بروز الحكم البربري للمغرب الأوسط وإفريقية بقيادة صنهاجة ، هذا العنصر ـ الذي كان حماد مؤسس الدولة نفسه ـ سبباً في هجرته تلك ، كان أحد طرائق الاتصال بين الجانبين .

ولقد نجح البربر المهاجرون إلى الأندلس في إقحام أنفسهم في مجال السياسة وحكموا مدناً كثيرة من مدن الأندلس أيام الطوائف ، واندمجوا في المجتمع الأندلسي بوسائل شتى ، فلما اشتدت وطأة الصليبيين على ملوك الطوائف ، كانت بلاد الدولة الحمادية ، بما أُشيع عنها من أمن وتحضر نسبيين ، أكبر الملاجئ المتاحة للساخطين على ملوك الطوائف والمتوجسين خوفاً على مستقبل الأندلس .

وكانت المدن الحمادية الساحلية تضم أعداداً كثيرة من هؤلاء المهاجرين الأندلسيين الذين نقلوا إلى الجزائر خبرتهم وعلومهم ، واندمجوا في المجتمع الجزائري اندماجاً تاماً ـ كما سنوضح عند حديثنا عن المجتمع الحمادي .

ومن الواضح أنه نتيجة للظروف السياسية الأندلسية والحمادية التي سادت أيام الدولة الحمادية ، كانت العلاقة بين الأندلس وبني حماد علاقة اقتصادية واجتماعية وثقافية ، أكثر منها علاقة سياسية .

٨ – الحماديون والمسيحيون :

تعاونت عدة عوامل على تحديد نوعية علاقة الحماديين بالمسيحيين ، وكان موقع الدولة الحمادية وسط الدول الموجودة في المغرب ، وكحاجز بين المرابطين والنورمان ، أبرز العوامل في تحديد نوعية السياسة الحمادية المسيحية . وبما أن العلاقات المغربية الداخلية القائمة بين دول المغرب ، كانت علاقات تفكك وصراع في أغلب أحايينها ، لذا لم يحاول الحماديون فتح باب جديد من أبواب الصراع على أنفسهم ، حتى ولو كان هذا الباب جهاداً مقدساً ضد المسيحيين وقد استغل الغزو المسيحي هذه النقطة ، فحاول جهده تعميق علاقات الودّ بينه وبين الحماديين ، وعدم تهييجهم[1] .

---

(١) انظر تاريخ الجزائر للجيلالي ٢١٠/٢ .

ومن الملاحظ أن العلاقات بين الحماديين والمسيحيين لم تبرز واضحة قوية إلا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وحتى نهاية الدولة . أما قبل ذلك فقد كانت سياسة الدولة الخارجية تخضع بنسبة كبيرة لسياسة الزيريين والفاطميين ، كما أن هذه السياسة لم تسر على وتيرة واحدة ، فحينما وجد المسيحيون أن علاقة السلم التي تربطهم بالحماديين في غير صالحهم ، ورأوا في الحماديين منافساً في مجال الاستيلاء على المدن الزيرية التي كانوا يطمعون في الاستيلاء الكامل عليها بعد استيلائهم على مالطة وصقلية ، في هذا الوقت هاجموا الحماديين بشراسة وعنف[1] .

كان النورمانيون قد نزلوا ـ على امتداد القرنين الثالث والرابع للهجرة ـ من شمال فرنسا إلى جنوبها ، وشرعوا يتعقبون المسلمين ويناجزونهم في إيطاليا ، حتى ملكوا جميع البلاد الإسلامية في جنوب أوربا ـ وساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية إثر الزحف الهلالي سنة ٤٤٢ هـ[2] ـ كما ذكرنا من قبل .

ولم تقف أطماع هؤلاء النورمان عند محاولتهم إزالة الحكم الإسلامي من أوربا ، بل جنحوا إلى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآمنة في إفريقية[3] ، فأصبح واجب الدفاع عما بقي من سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض المتوسط على عاتق بني زيري أصحاب إفريقية وبني حماد أصحاب القلعة[4] ، لكن قدر على الزيريين في المهدية أن يتولوا وحدهم ـ في هذا الجانب ـ عبء الجهاد ضد هؤلاء الغزاة ، حتى سقطوا أمام زحفهم المستمر بعد كفاح قرابة ثلاثة أرباع قرن ، كما وقف المرابطون ـ من جانبهم ـ يكافحونهم في ميدان آخر . أما الحماديون فلم يلحّ الخطر عليهم باتخاذ موقف مماثل ، وتمكنوا من إقامة علاقات طيبة مثالية مع المسيحيين مدة طويلة .

* * *

(١) انظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٨١/١ .

(٢) انظر تاريخ غزوات العرب ، شكيب أرسلان ٣٠١ ، وقد ذكر أن الزحف الهلالي كان سنة ٤٥٢ وقد ذكرنا تاريخه الصحيح وهو ٤٤٢ .

(٣) المكان السابق نفسه .

(٤) أثر ظهور الإسلام في البحر الأبيض المتوسط ، دكتور حسين مؤنس ص ١١٧ .

لقد أقام الناصر بن علناس علاقات ودية مع البابا « جريجوري السابع » ومدن الساحل الإيطالي[1] ، وكان مما توصل إليه جريجوري والناصر إقامة أسقفية في بونة ، ترك للنصارى الموجودين في بونة حرية انتخاب أسقفهم[2] ، وقد انتخبوا أسقفاً يدعى « سرفاند » صادق الناصر على تعيينه[3]

ويحدثنا جنرال « دوبليه » أن هذا الاتفاق الودي بين الناصر والمركز البابوي (الكرسي الرسولي) هيّأ نوعاً من الأمان للقضايا المسيحية[4] ، بل إن « فرديناند جوتيه » يرى أن هذا الاتفاق منح الرعايا المسيحيين « أماناً كاملاً »[5]. ومبالغة في تعميق الودّ استغل الناصر فرصة سفر « سرفاند » إلى « البابا جريجوري » فحمله هدايا جليلة ، كما حمله رسالة ودّية إلى البابا ـ لم يحفظ لنا التاريخ نصّها ـ كما اشترى الناصر جميع الأسرى المسيحيين الذين عثر عليهم بمملكته ، وأرسلهم هدية إلى البابا ، ووعده بأن يعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد[6].

وعندما عاد سرفاند إلى بونة أرسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وهناء إلى الناصر ، وأرسل البابا أيضاً رسالة خاصة تعد أكبر رسالة وأعظمها أرسلت من بابوات روما إلى ملوك المغرب ، وذلك سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)[7]. وهي رسالة تدل على ما كان يكنّه البابا للناصر من تقدير واحترام[8] ، وقد روى لنا « مـاس لاتري » نصّ هذه الرسالة ، ونحن نترجمها عنه كاملة بنصها . تقول الرسالة :

---

(١) انظر : La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 10.

(٢) انظر : La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 10.

(٣) تاريخ الجزائر للميلي ٢١١/٢ .

(٤) انظر : La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 20.

(٥) انظر : Le passé de L'Afrique du Nord, (Les Siècles Obscures) F. Gautier, P: 373.

(٦) انظر : La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 10.

(٧) تاريخ الجزائر للهلالي ٢١١/٢ .

(٨) أثر ظهور الإسلام ١١٨ .

« من جريجوار .. خادم خدام الله ... إلى الناصر ملك موريتانيا ومقاطعة سطيف في إفريقية ... تحيات وبركات رسولية ....

« كتبتم إلينا نبالتكم تطلبون إلينا تعيين قس ، وفقاً للشرائع المسيحية وهو هذا القس الخادم (سرفاند) الذي بادرنا بتعيينه ، لأن طلبكم كان منصفاً . وفي نفس الوقت أرسلتم إلينا بعض الرسائل ، وأطلقتم سراح المسيحيين الذين كانوا أسرى لديكم ، مراعاة للطوباوي البارّ بيير ، أمير المبشرين ، وحبّا لنا . ووعدتم بإطلاق سراح كل من يوجد لديكم ثانية .

« ولا شك أن الله خالق كل شيء ، والذي لولاه لما استطعنا شيئاً على الإطلاق ، لا شك أنه قد ألهمكم هذا الحلم ، وهيأ قلبكم لهذا العمل النبيل . والله ـ القادر ـ الذي يريد لكل الرجال النجاة ، ولا يريد الهلاك لأحد ـ لا يتقبل منا شيئاً أكثر من تقبله لحبنا لمن يماثلوننا ـ بعد حبنا الواجب له ـ ومن مراعاتنا لذلك المبدأ القائل (افعل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك) . ونحن بصفة خاصة ملزمون بأن تمارس الشعوب الأخرى فضيلة المحبة هذه . ونحن وأنتم ـ بصورتين مختلفتين ـ نعبد نفس الإله الواحد ، وكل يوم نمجده ونجل فيه خالق القرون وسيد العالم . وقد أعجب نبلاء روما ـ الذين عرفوا منا نبأ الصنيع الذي ألهمكم الله إياه ـ بسمو قلبكم ، وأشاعوا الثناء عليكم . وثمة اثنان من بينهم من أكثر أتباعنا إلفة ـ وهما البيريك (AL'BERIC) وسنسيوس (CENCIUS) اللذان نشآ معنا منذ يفاعتهما في قصر روما ـ يرغبان في توثيق أواصر الصداقة والمصالح الخاصة معكم ، وسيكونان سعيدين إذا استطاعا أن يكونا من ذوي الحظوة لديكم ، وفي وطنكم . إنهما يرسلان إليكم بعض رجالهما الذين سيشرحون لكم مدى تقدير سيديهما لسعة أفقكم ، ولسموكم ، ومدى سرورهما بتقديم أية خدمة لكم هنا . ونحن نوصي جلالتكم بهم ، ونطلب منكم لهم نفس الحب ونفس الوفاء الذي سنكنه دائماً لكم ، ولكل من ينتمي إليكم ؛ ويعلم الله أن عزة الله القادر هي التي تلهمنا الصداقة التي قد نذرناها لكم ، ويعلم مدى رغبتنا في سلامكم ومجدكم ، في هذه الحياة ، وفي الحياة الأخرى . ونحن ندعوه من أعماق القلب أن يتلقاكم ـ بعد حياة مديدة ـ في أصفيائه ، في نعيم الأب

المقدس إبراهيم »[١] .

وكما نرى ، . فإن الرسالة تحمل مشاعر ودية من البابا ، ومن البيريك وسنسيوس من خدام قصر البابا الذين نشأوا به ، وتحمل رغبتيهما في تقديم خدماتهما لما يتعلق بالناصر وأن يخدماه ببلده ، وأنهما أرسلا له بعض رجالهما لتأكيد ودادهما ، كما تنص الرسالة على أن البابا مستعد لمعاملة كل من تعلق بالناصر معاملة ودية صادقة[٢].

وقد استمرت محاولات الحماديين للإبقاء على علاقة الود التي تربطهم بالمسيحيين ، وإن كان الأخيرون لم يبذلوا مثل هذه المحاولة ، ففي سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) سمح العزيز بن المنصور بإنشاء كنيسة في القلعة دُشنت باسم كنيسة مريم العذراء ، وكان كاهنها المسمى « عزون » يطلق عليه العامة لقب (خليفة) تأثراً بالطابع العربي واللغة العربية ، وكان يسكن في بيت مجاور للكنيسة ، ويؤكد « جوتيه » أننا لا نستطيع أن نماري في وجوده[٣].

وفي نفس العام ١١١٤ م ، وقع حادث تدل نتائجه على رغبة الحماديين الملحة في إرضاء المسيحيين ، فقد وقع بعض رهبان « مون كاسان » في أيدي القراصنة المنتمين للحماديين أثناء عودتهم من سردينيا إلى صقلية ، وبعد فترة وجيزة رمت عاصفة على سواحل صقلية بالرهبان الذين كان قد أرسلهم المطران

---

(١) فيما نعلم فإن هذه أول ترجمة كاملة للرسالة إلى العربية ، ولم يترجم منها من قبل ـ حسب علمنا ـ إلا ما لا يزيد على سطرين ، أو بعض الفقرات المبعثرة التي لا تلتزم بتسلسل فقرات الرسالة . انظر :

Relation et commerce de L'Afrique Septentrionale au Magreb avec les nations chretiennes ou Moyen âge-De Mas Latrie, P: 42,43 & 44.

(٢) ومن الملاحظ أنه بعد ذلك بسنوات قليلة كان البابا يمرس على غزو المهدية ، وقد أحدث الصليبيون فيها ـ ببركة البابا ـ ذريعة وحرقوا وخربوا معالم المهدية المشهورة وسبوا النساء والزراري واضطر تميم إلى أن يدفع لهم مائة ألف دينار ويقبل تجارتهم بلا مكسب !! (راجع دائرة المعارف ٥٩/٦ ، وتاريخ غزوات العرب ٣٠١ شكيب أرسلان) .

(٣) Le passé des L'Afrique du Nord P: 372 and Encyclopedia of Islam Vol. II, Part 2, P: 680 and also La Kalaa de Beni Hammad P: 13.

الأكبر لافتداء إخوانهم ، وقد بادر الكونت روجيه ـ حاكم صقلية ـ بإرسال مبعوثيه الخاصين إلى العزيز ملك القلعة ، فرحب العزيز بمساعي روجيه وقبل وساطته[1]

وقد استقبل الحماديون أعداداً غفيرة من المسيحيين خلطوهم بأنفسهم واستعانوا بهم في بعض أعمالهم ، لا سيما العمرانية[2].

لقد غلب على سياسة الحماديين تجاه المسيحيين روح التسامح والود ، ولم يتركوا فرصة إلا استغلوها لتعميق هذه العلاقة ، لكن المسيحيين كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة مصلحية محدَّدة ، فما إن استوجبت ظروفهم المصلحية الانقضاض على الحماديين حتى بادروا إلى ذلك ، دون نظر إلى أية خدمات حمادية سابقة أو أية عهود أو مواثيق .

وقد حاولوا إغراق الأسطول الحمادي أمام المهدية سنة ٥٢٩ هـ ـ كما ذكرنا ـ كما شهدت سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) هجومهم على جيجل ، وتتابع هجومهم على المدن الحمادية الساحلية ، وبدءوا بعد استيلائهم على المهدية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) محاولة الاستيلاء على الجزائر الحمادية ، وهاجموا مدينة بونة لهذا الغرض ، ولم يمنعهم عن التوغل في الأرض الحمادية إلا ظهور الموحدين ، الذين وضعوا حداً لأطماعهم وتوسعهم .

ومع ذلك فإن بقية من هذه الروح التي تمسك بها الحماديون في علاقتهم مع المسيحيين ظلت باقية إلى آخر أيامهم ، فعندما سقطت بجاية ، واستسلم يحيى آخر ملوك الحماديين ، لحق أخوه الحارث صاحب بونة بصاحب صقلية « روجيه الثاني » واستصرخه فأنجده بأسطول غلب به على بونة ، وظل بها غير ملتفت إلى سلطة الموحدين ، وبمساعدة النورمان ، إلى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٦ م) ، حين استولى الموحدون على بونة وقتلوا صبراً ، فاعتُبر هذا سقوطاً لآخر معقل حمادي[3]

---

(١) انظر : La Kalaa des Beni Hammad P. 13.

(٢) انظر : La Kalaa des Beni Hammad P: 20.

(٣) العبر ٣٦٤/٦ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٤ مادة بونة ، وتاريخ الجزائر العام ، الجيلالي ٥٩٤/١ .

الفصل الثالث

سقوط الدولة الحمادية

١ – الموحدون في الجزائر .
٢ – استسلام يحيى (آخر أمراء الحماديين)
٣ – عوامل سقوط الدولة

١ – الموحدون في الجزائر :

كان لدى الموحدين غير سبب لكي يتقدموا نحو بجاية .

وأكبر هذه الأسباب أن وحدة الدولة الموحدية الناشئة وأمنها يتطلبان ألا تبقى دولة بجاية والقلعة بيد يحيى الحمادي الذي أثبت أنه غير كفء للوقوف في وجه النورمان الذين احتلّوا المهدية وسيطروا على الساحل المغربي الشرقي الممتد عبر ليبيا وتونس ، وقد راح المسلمون في الثغور الواقعة على هذا الشاطئ يستغيثون بالخليفة عبد المؤمن ، ولم يكن هناك من سبيل إلى إنقاذ هذه الثغور من النورمان إلا بالاستيلاء على مملكة الحماديين التي تفصل الموحدين عن تونس التي استأسد بها النصارى[١] ، بل إن الدولة الحمادية في ظل يحيى لم تعد قادرة على حماية نفسها من خطر النورمان ، وكان الموحدون يذكرون ليحيى تدخله في الصراع الذي دار بينهم وبين المرابطين سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وإمداده لتاشفين بن علي ابن يوسف المرابطي بجيش يقوده ميمون بن حمدون[٢] ، ولعل يحيى لم يقدم على ما أقدم عليه في هذا الوقت إلا استشعاراً منه بالخطر الذي تمثله قوة الموحدين الزاحفة ، كما أنه كان يحس بأن المرابطين الذين دخلوا في طور الاضمحلال ولم يعودوا ذوي بأس يخشى منه ، إنما يمثلون سداً يحول بينه وبين القوة الموحدية . فأقدم على هذا العمل الذي أحنق الموحدين . وكان لدى الموحدين أسباب أخرى – بعد هذه الأسباب – منها أن بقايا المرابطين بعد ذهاب دولتهم والمتعاطفين معهم كانوا ينظرون إلى دولة الحماديين نظرتهم إلى ملجأ يمكن أن يتجمعوا فيه ، ويكيدوا منه للدولة الموحدية[٣] ، ومنها أن القبائل العربية المنتشرة في تونس والجزائر

(١) الدولة الموحدية بالمغرب ٢٠٣ – دكتور عبد الواحد علام .
(٢) انظر أخبار المهدي بن تومرت للبيذق ٩٧ ، وأعمال الأعلام ٢٦٤/٣ .
(٣) الدولة الموحدية بالمغرب ٢٠٣ .

بإغاراتها التي لا تنقطع ، وعبثها في أراضي إفريقية والمغرب ، تحدث للموحدين قلاقل واضطرابات تخل بأمن المغرب[1]. ولعل من الأسباب كذلك أن الموحدين كانوا شبه مطمئنين إلى انتصارهم على الدولة الحمادية دون جهد كبير ، نظراً لمعرفتهم بأحوالها الداخلية القلقة ، ولمعرفتهم بسلوك يحيى ، ولأنهم كانوا قد دبروا الأمر وخططوا له سلفاً ، حيث نجحوا في اصطناع قائد الجيش الحمادي والمتصرف في الدولة ميمون بن حمدون منذ سنة ٥٣٩ هـ ، حين هُزم أمامهم أثناء معاونته لتاشفين بن علي المرابطي[2].

وحين اتخذ عبد المؤمن قراره بالاستيلاء على بجاية ، ويبدو أنه استشار فيه كبار رجاله كالشيخ أبي حفص عمر الهنتاني وأبي إبراهيم وغيرهما[3]، أعد للغزو خطة ذكية تكبده أقل الخسائر ، فخرج من عاصمته مراكش أواخر سنة ٥٤٦ هـ (١١٥٣ م) متجهاً إلى سلا ، ثم عرج منها إلى سبتة حيث أقام بها مدة يعمر أسطوله[4] ويجمع العساكر القريبة منه ، متظاهراً بشروعه في الجواز إلى برّ الأندلس ، وإمعاناً في إخفاء قصده استدعى إليه في سبتة وجوه الأندلس وفقهاءها وقوادها ، فحادثهم في مسائلهم وألقى عليهم توصياته ، ثم صرفهم[5] ، وتحرك من سبتة – مرة ثانية – في صفر سنة ٥٤٧ هـ ، متظاهراً بالعودة إلى مراكش ، فمرّ بالقصر الكبير ، ثم عاد إلى سلا ، ومن سلا تحرك إلى مكناس ، ومن مكناس إلى فاس ، ومن فاس اتّجه إلى تلمسان[6] حيث أقام بها يوماً واحداً ثم خرج منها إلى سيوسيرات[7]

---

(١) انظر الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ١٠٧/٢ ، وعصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٠ .

(٢) أخبار المهدي بن تومرت ٩٧ .

(٣) انظر الاستقصا ١٠٧/٢ .

(٤) الكامل ١٥٨/١١ .

(٥) عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٠ .

(٦) انظر أخبار المهدي ١١٣ ، وانظر الاستقصا ١٠٧/٢ ، وعصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٠ .

(٧) المعجب ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(السيق) ومن سيوسيرات أخذ طريقه مسرعاً إلى الشرق فملك لمدية وطرق مدينة الجزائر (جزائر بني مزغنة) على حين غفلة ، وكان واليها ليحيى أخاه القائم بن العزيز [1] الذي أذهلته المفاجأة فلم يجد سبيلاً إلا الفرار إلى أخيه ببجاية يخبره الخبر [2] .

ولم يفت عبد المؤمن أن يجعل على الطريق أمناء يمنعون السابلة من السير حتى لا يعلم أحد بقصده ، وتسبقه الأخبار إلى بجاية [3]، ومنع جنود جيشه من أن يسألوا إلى أين يتجهون ، وتوعد من سأل إلى أين السفر بأن جزاءه السيف [4]، ولهذا فعندما وصل القائم بن العزيز إلى أخيه يحيى في بجاية ، لم يكن يملك الأخير أي استعداد للقاء الموحدين ، ولم يكد يبدأ في الاستعداد للمقاومة حتى كان الموحدون حول أسوار بجاية على الرغم من أنهم واجهوا مقاومة صنهاجية محدودة في « أم العلو » تمكنوا من القضاء عليها دون جهد [5] ، وقد حاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق [6] ، وقد أخرج يحيى أخاه سبعاً ، وقائده ميمون بن حمدون المتعاون مع الموحدين [7]ـ للقاء عبد المؤمن ، لكن ما إن التقى الجيش بالموحدين حتى انهزم ميمون من غير قتال يُذكر ، ثم فتح أبواب

---

(١) يرى ابن خلدون وابن الخطيب ويتبعهما الجيلالي والهلالي الميلي وبونار أن القائم كان أخاً ليحيى (العبر ٣٦٣/٦ ، وأعمال الأعلام ٨٣ ، وتاريخ الجزائر العام ٣٩٢/١ ، وتاريخ الجزائر ٢١٩/٢ ، والمغرب العربي ٥١٣) وقد جنحنا إلى هذا الرأي نظراً لأن هؤلاء أكثر اتصالاً في الزمان والمكان بالجزائر وتاريخها ، وقد ذهب صاحب الاستقصا والأستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور عبد الله علام إلى أنه ابنه (السلاوي ١٠٧/٢) ، عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٠ ، والدولة الموحدية بالمغرب ٢٠٤ .

(٢) تاريخ الجزائر للهلالي ٢١٩/٢ ، والدولة الموحدية ٢٠٤ .

(٣) أخبار المهدي ١١٣ .

(٤) تاريخ الجزائر للهلالي ٢١٩/٢ .

(٥) الاستقصا ١٠٨/٢ .

(٦) المعجب ٢٧٣ .

(٧) عن خيانة بني حمدون ، انظر مجموع رسائل موحدية ، الرسالة السابعة ٢٠ ، ونظم الجمان ١٠١ ، والبيان المغرب ٤٤٦/١ .

بجاية فدخلتها جيوش عبد المؤمن من ذي القعدة من سنة ٥٤٧ هـ[١] وتفرقت جيوش يحيى براً وبحراً[٢].

وقد أحدث سقوط العاصمة الحمادية ردّ فعل عنيف في المغرب ، لأنه كان يمثل سقوط آخر عاصمة تملكها أكبر قبيلة بربرية حكمت المغرب خلال هذه القرون قبل الموحدين وهي صنهاجة ، ولهذا فقد جمعت القبيلة حشودها واستعانت بالقبائل المجاورة ككتامة ولواتة وغيرهم ، وقدم الجميع عليهم « أبا قصبة » من بني زالدوي ، وقد لقيهم الموحدون في عرض الجبل شرقي بجاية ، بقيادة « أبي سعيد يخلف » فهزموا صنهاجة وحاصروها وقتلوا كثيراً من جيشها[٣].

وفي هذه الأثناء تقدمت جيوش عبد المؤمن بقيادة ابنه عبد الله نحو « قلعة بني حماد » التي كانت من أحصن القلاع ، وكانت تحتل مكانة العاصمة الثانية ، كما أنها ارتبطت تاريخياً بالحماديين ، وأصبحت رمزاً لوجودهم ، وقد دارت فيها بين الموحدين وسكان المدينة ـ ومعظمهم من القبائل العربية ـ ملحمة شديدة ، واضطر السكان إلى أن يجلو عن القلعة إلى رؤوس الجبال عندما دخلها الموحدون يضرمون النار في مساكنها ، ويقومون بعملية تخريب شملت كل المدينة حتى اعتبر هذا الغزو آخر عهد المدينة الحضاري ، فقد أسرف الموحدون في قتل الأهالي فقتلوا بها نحواً من ثمانية عشر ألف نسمة ، وكان فيمن قُتل جوشن

---

(١) هذا هو التاريخ الصحيح المشهور وإن كان المراكشي قد جعل ذلك سنة ٥٤٠ ، وقد صحح المحقق ذلك (المعجب ٢٧٥) كما أن ابن الخطيب جعل وفاة يحيى سنة ٥٤٤ وأيضاً صحح المحققان ذلك . وقد ذكر التاريخ الصحيح المشهور ابن الأثير (الكامل ١٥٨/١٠) وابن كثير (البداية والنهاية ٢٢٩/١٢) وابن خلدون (العبر ٣٦٣/٦) والسلاوي (الاستقصا ١٠٨/٢) وسار على هذا المؤرخون المحدثون ، وهم كثير ، على أن العملة التي ضربها يحيى سنة ٥٤٣ هـ تقف كدليل مادي يؤكد التاريخ المشهور .

(٢) الاستقصا ١٠٨/٢ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٢٩٣/١ ، وتاريخ الجزائر للميلي ٢١٩/٢ .

(٣) انظر الكامل ١٦٩/١١ ، ١٦٠ ، والبداية والنهاية ٢٢٩/١٢ ، وعصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ٢٨٥ .

(جشم) بن العزيز أخو يحيى ، وامتلأت أيدي الموحدين منها بالغنائم والسبي[1].

وكما كان سقوط بجاية سبباً في إثارة صنهاجة ، فقد كان سقوط القلعة سبباً في إثارة القبائل العربية من الأثبج ورياح وزغبة وغيرها . ويبدو أن القلعة كانت واقعة تحت نفوذهم في الحقبة الأخيرة من الدولة ، وأنهم كانوا مستقرين فيها وحولها ، وهذا هو التفسير الذي نميل إليه لدفاعهم عنها ولحربهم الموحدين بعد سقوطها ، إذ لم يكن دفاعهم منبعثاً عن ولاء للحماديين أو عاطفة نحوهم ، بالدرجة الأولى . وقد جهز عبد المؤمن لقتالهم جيشاً جعل على قيادته صهره « عبد الله بن وانودين » فهزمه العرب وقتلوا قائد الجيش وصهر عبد المؤمن ، فاستشاط عبد المؤمن غضباً لذلك ، وحشد كافة الموحدين لقتالهم ، فنشبت معركة شديدة بينهم دامت يوما وليلة ، هزم العرب في نهايتها شر هزيمة ، ومزقت جموعهم ، وقتل ألمع زعمائهم « هلال بن عامر » واستولى الموحدون على غنائمهم من العتاد والدواب ، وانتهى الأمر ببعضهم إلى الاستسلام ، ونجح الموحدون في القضاء على معظم فلولهم في ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ (يونيو ١١٥٣ م)[2] ، فحققوا بذلك نجاحاً كبيراً في السيطرة على الجزائر الحمادية .

٢ – استسلام يحيى (آخر أمراء الحماديين) :

وفي أثناء ذلك كان يحيى يقضي أياماً بائسة قلقة منذ خرج من بجاية هارباً في أسطولين كان قد أعدَّهما لذلك ، واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله ، عازماً على السير بهما إلى صقلية ليجوز منها إلى بغداد[3]، لكنه عدل عنها إلى بونة ، حيث نزل على أخيه الحارث ، الذي أساء مقابلته ، وأخذ يتأفف منه ، ويظهر له اللوم على تسليمه بجاية[4] ، مما اضطره إلى أن يخرج عنه إلى قسنطينة ، وبها إذ ذاك أخوه

---

(١) انظر العبر ٣٦٤/٦ ، والاستقصا ١٠٨/٢ .

(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ــ الرسالة التاسعة ص ٢٩ ــ وما بعدها .

(٣) العبر ٣٦٤/٦ ، والتذكار لابن غبوش ٥٤ .

(٤) العبر ٣٦٤/٦ ، والتذكار ٥٤ .

الحسن بن العزيز ، فاستقبله استقبالاً كريماً وتخلى له عن ولايته إكراماً له ، وقد تحصن يحيى بقلعة قسنطينة استعداداً لهجوم الموحدين المتوقع ، ولم يمهله عبد المؤمن ، فسرعان ما حاصره بها ، وضيق عليه الخناق ، حتى اضطر يحيى إلى التفاوض على الاستسلام ، فأرسل أخاه الحسن ، وبعض شيوخ صنهاجة وقسنطينة إلى عبد المؤمن يعلنون خضوعه ، وإذعانه للتسليم ، ويطلبون الأمان ، وقد سارع عبد المؤمن بإجابتهم إلى ما طلبوا [1].

وأما أخواه الحارث ـ الذي كان يحكم بونة ـ وعبد الله ، فقد فرّا أمام الزحف الموحدي إلى صقلية ، في محاولة للاستنجاد بالنورمان ، وقد أنجدهما النورمان بأسطول قاده « فليب المهدوي » حاصرا به بونة ، وأعانهم العرب على فتحها [2]، وقد مكث الحارث ببونة إلى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) حين استولى الموحدون على المدينة ، وقتلوه صبراً [3]، ويعتبر الاستيلاء على بونة ـ من الناحية العملية ـ بمثابة تحقيق الاستيلاء الموحدي التام على كل ما ضمته الجزائر الحمادية من بلاد ، كما أن استسلام يحيى في قسنطينة يعتبر ـ من الناحية السياسية ـ إعلاناً لسقوط الدولة الحمادية ، وإبعادها عن مسرح التاريخ ، وبهذين الاستسلامين طويت صفحة هذه الدولة ، ودخلت الجزائر في طور جديد من أطوار تاريخها الطويل .

٣ – عوامل سقوط الدولة :

منذ اليوم الأول الذي استقلت فيه الدولة الحمادية عن الزيريين ، وهي تُواجَه بتحديات خطيرة ، توجب عليها يقظةً واستعداداً شديدين . ولقد واجهت

---

(١) الكامل ١٥٨/١١ ، والاستقصا ١٠٨/٢ .

(٢) انظر العبر لابن خلدون جـ ٦ ص ٣٦٤ ، وانظر خريدة القصر ـ قسم شعراء المغرب ١٧٩ . وقد أورد ابن الأثير قصة الغزو النورماني لبونة ومساعدة العرب له ، ولم ينص على ذكر الحارث (حوادث سنة ٥٤٩) لكن سير الحوادث تؤكد هذه الخيانة فضلاً عن شهادة ابن خلدون ، وانظر الدولة الموحدية بالمغرب ص ٢٠٥ .

(٣) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢٢٠/٢ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٩٤ .

الدولة عديداً من القوى التي كانت تعتقد أن امتدادها الطبيعي هو في أرض الدولة الحمادية .

لقد واجهت الدولة في فترة ما قبل الناصر ـ زناتة والزيريين اللذين استمر تحديهما للدولة إلى آخر أيامها ، وإن كانت حدة تحديهما قد خفّت في المرحلة الثانية من حياة الدولة ، نتيجة بروز قوى جديدة أكثر شراسة ، وأكثر خطراً بالنسبة للقوى الثلاث الكبرى (زناتة وبني زيري وبني حماد) التي كانت تتنافس فوق أرض المغرب العربي إلى ذلك الوقت .

ومنذ السنوات القريبة من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) ، بدأت تظهر على مسرح المغرب قوى جديدة تختلف عن القوى السابقة في استراتيجيتها الواضحة القائمة على التوسع ، وفي كونها خطراً حقيقياً هدفه الابتلاع والسيطرة ، بل القضاء التام على الوجود الحضاري الموجود في المغرب ، وفرض وجود حضاري آخر ، ولعل أخف هذه القوى وطأة ، في الحقيقة ، هم المرابطون الذين دقوا أبواب الجزائر بعنف ، واستقرت قوة لهم في تلمسان تقف على الحدود الشرقية للدولة ، تهدد الحماديين بين الحين والحين .

وكان في مواجهة الحماديين غير زناتة وبني زيري المنافسين التقليديين ، وغير المرابطين ، تحديان آخران قويان يمثلان خطراً داهماً ، وكانت القبائل العربية تمثل التحدي الأقرب الذي انساب كالدم في جسم المغرب كله ، ولم تنته من القضاء على القيروان إلا لتبدأ في الاتجاه غرباً نحو الجزائر لتدخل مع الحماديين ـ بأشكال مختلفة ـ في صراع ، ولتوقع بهم مع أبناء عمومتهم الزيريين الذين قضت عليهم ، ولتفرض عليهم أنواعاً من الإذلال المادي والمعنوي .

ثم كان النورمان الذين استولوا على مالطة وصقلية ، وسيطروا على الشاطئ المغربي المطل على البحر الأبيض المتوسط ، وهددوا الزيريين في المهدية ... كان هؤلاء هم الخطر الذي يبدو بعيداً بالنسبة للسياسة الحمادية ، لكنه في الحقيقة أكثر التحديات خطراً وتهديداً للدولة .

* * *

لقد كان على أُمراء الدولة الحمادية أن يرسموا لأنفسهم سياسة واضحة تجاه هذه القوى ، سياسة تعتمد على الثبات والمبدأ أو على المصلحة العليا للمغرب العربي وللإسلام ، لكن الشيء الثابت ، وإن كانت الأطراف الأخرى في المغرب تتحمل قسطاً كبيراً من التبعة في ذلك ، أن الحماديين لم تكن لديهم مثل هذه الرؤية السياسية الواسعة الواضحة . لقد حاولوا الحفاظ على أنفسهم ، مرحلياً ووقتياً ، دون شمول في الرؤية ، ودون اعتماد على استراتيجية واضحة طويلة ، وبذا ظلوا يخبطون طول أيامهم في تقلبات سياسية جعلت أيامهم ـ في مجملها ـ يسودها القلق والحذر ، وفي كل يوم كانوا يفقدون في الحقيقة بعض وجودهم وإن لم يشعروا .

لقد اصطدم الحماديون بكل القوى ، وعاشوا في نزاع دائم مع زناتة ومع الزيريين ، وإذا كان لموقفهم من زناتة ما يسوغه ، فإن موقفهم من أبناء عمومتهم الزيريين كان نقطة الضعف الكبرى في سياستهم الخارجية وهي النقطة التي أودت بهم ... لقد تركوهم يتداعون أمام القبائل العربية بل حاولوا الاستفادة من تداعيهم ، واستعانوا بهذه القبائل المغيرة في سبيل التوسع على حساب أبناء عمومتهم . ولقد تركوهم يسقطون أمام النورمان ، وحاولوا إقامة علاقات ودية مع النورمان ، نجاةً بأنفسهم ، وجهلاً بالخطر الضخم الذي يمثله هؤلاء النورمان الصليبيون ، بل إنهم بموقفهم السلبي من أبناء عمومتهم ، كانوا أكبر عامل على سقوطهم أمام النورمان ... ولربما تحمل الزيريون بعضاً من التبعة ، وهذا صحيح ، لكن الشيء الذي نميل إليه أن بني حماد يتحملون القسط الأكبر من التبعة في ذلك[1] .

ولست أميل إلى ما مال إليه بعضهم من أن القبائل العربية الوافدة على المغرب ، تعتبر عاملاً كبيراً من عوامل سقوط الدولة[2] ، فلقد عاشت الدولة أخصب

---

(١) يميل إلى هذا الرأي ستانلي بول في طبقات سلاطين الإسلام ص ٤٥ ، ورابح بونار : المغرب العربي ٢١٤ .

(٢) دائرة المعارف ٥٠٦/٣ .

سنواتها وأطولها بعد وصولهم إلى الجزائر . كما أن الجهد الذي امتصته القبائل من الدولة ، إنما كان نتيجة من نتائج سياسة ملوكها تجاه بني عمومتهم ، ومظهراً من مظاهر هذه السياسة ، وهو جهد يعكس كذلك مظهراً من تهاونهم وضعفهم[1] بعامة .

كما أني لا أميل إلى أنَّ ترف يحيى وفساد سلوكه ـ وهو أمر ثابت ـ عامل مهم من هذه العوامل[2]، وإنما هو عامل ثانوي مباشر ، كان من شأنه ـ لو لم يكن ـ أن يؤخر عملية استيلاء الموحدين على الجزائر ، لكنه ما كان يستطيع منع هذا الاستيلاء ، فروح الدولة وطبيعة سيرها التاريخي كانت تميل إلى هذا السقوط نتيجة عدم قدرتها على الاستجابة للتحديات بأسلوب يتلاءم وطبيعة هذه التحديات ومستوى خطورتها .

والأمر نفسه يقال في خيانة وزير يحيى « ميمون بن حمدون » وتعاونه مع الموحدين[3]، إمَّا بحثاً عن جاه أكثر لدى الموحدين [4]، وإما ثأراً لكرامته التي كان « يحيى » أو ابنه يعبث بها وبهينها[5]، وإما – وهذا احتمال قوي – استشرافاً منه لآفاق سياسية عالية ، ليست متعلقة بمستقبل المغرب العربي[6] ، فحسب ، وإنما متعلقة كذلك بفهمه لنواحي الخلل الموجودة في الدولة ، وبالنجاح الذي ستلاقيه قوة الموحدين الزاحفة .

إننا نعتقد أن خيانة ميمون لم تفعل أكثر من زيادة حدة السقوط ، وتسهيل مهمة الموحدين . ولو لم يظهر الموحدون ، لكان حتماً أن يظهر النورمان الذين كانوا قد استولوا على دولة بني زيري ، في المهدية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨) ،

---

(١) انظر : الجزائر مرآة التاريخ ٦٩ ، وكتاب الجزائر ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الجزائر للميلي ٢٢٠/٢ .

(٣) مجموع رسائل موحدية ، الرسالة السابعة ص ٢٠ ، وأخبار المهدي ٩٧ ، والبيان المغرب ٤٤٦/١ .

(٤) تاريخ الجزائر للهلالي ٢٢٠/٢ .

(٥) البيان المغرب ٤٤٦/١ ، والجيلالي : تاريخ الجزائر ٣٩٢/١ .

(٦) المجتمع المغربي ، الدكتور إبراهيم العدوي ٢٥٨ .

لا سيما وأنهم زحفوا فعلاً على كثير من المدن الجزائرية ـ كما ذكرنا ـ بعد أن استنفد تظاهرهم بالمسالمة للحماديين أغراضه ، ولم يعد هذا السلم المزيف يتفق مع مصالحهم وأطماعهم .

على أن هناك عاملين آخرين مهمين في سقوط الدولة :

أولهما : أن الحياة الاقتصادية للدولة قد تعرضت للخطر من جانب البحر الأبيض المتوسط الذي سيطر عليه النورمان ، وعملت فيه أساليبهم في القرصنة عملها في تدهور موانئ هامة كعنابة (بونة) وجيجل والقل وشرشال وتنس ، وهي الموانئ التي خرَّبها الوندال .

والعامل الآخر المهم في سقوط هذه الدولة ، هو أن الدولة التي أقامها حماد كان ينقصها الباعث على الوجود والاستمرار ، فقد كانت دولة أسست بهدف أن يحكمها شخص وذووه من بعده ، ولم تكن تحمل في يدها رسالة إنقاذ ، أو دعوةً لأفضل ، أو حميةً من نوع ما ، وذلك على العكس من القوى الكبرى التي تحدَّت الدولة وواجهتها ، كالمرابطين والموحدين والنورمان ، ومعظم معارك الدولة كانت بين أبناء جنسها وعقيدتها من البربر المسلمين . سواء مع الفرع الصنهاجي الآخر ـ الزيريين ـ أو مع زناتة ، بل كثيراً ما كانت هذه المعارك داخل البيت الحمادي نفسه .

* * *

ومع كل ذلك يصعب الزعم بالإلمام بالظروف والعوامل التي تساعد على سقوط دولة ما ، وذلك لسبب بسيط ، هو أن عوامل السقوط الخفية ، تعمل في جسم الدولة ، مع عوامل البقاء ، لمدة طويلة ، وعندما يبدأ جسم الدولة في الاعتلال تبدأ أعراض هذه العوامل في الظهور ... والشيء البارز في الدولة الحمادية أنها لم تتح لجسمها ظروفاً ملائمة لتطول فترة ما قبل اعتلاله .

وعندما بدأ يميل للاعتلال ساعدته عوامل كثيرة على السقوط .

البَابُ الثَالِث

النظام السِيَاسِي وَالإداري وَالمَالي

الفصل الأول : النظام السياسي والإداري والمالي
الفصل الثاني : الحياة الاقتصادية
الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية
الفصل الرابع : الحياة الثقافية

الفَصْل الأول

١ – النظام السياسي
٢ – النظام الإداري
٣ – النظام المالي

١ – **النظام السياسي :**

لا شك في أن للصراع السياسي والعسكري الذي بذله حماد خلال ما يربو على عشرين سنة ، والمقاومة التي أبداها باديس والمعزّ في وجه مطامحه ... لا شك أن لهما دوراً كبيراً في تحديد نوع الدولة التي نجح حماد في الاستقلال بها .

لقد كان نظام الحكم في الدولة الحمادية وراثياً منحصراً في أُسرة بني حماد ، فحماد يُورث الحكم لابنه القائد ، والقائد يورثه لابنه محسن ، والناصر يورث الحكم لابنه المنصور ، والمنصور يورثه لابنه باديس ، والعزيز يورث الحكم لابنه يحيى .

ولم يتغير هذا النهج إلا في ظروف قاهرة تشبه الانقلاب العسكري ، كما حدث لمحسن الذي قُتل ، وتولى بدلاً منه بلكين بن محمد بن حماد ، وكما حدث لبلكين ـ حين قتله الناصر وتولى مكانه ، ولباديس ـ الذي مات في جو مشبع بالكراهية نحوه ، قبل أن يستكمل سنة ، والذي يبدو لنا أنه لم يترك ذرية . ومع كل ذلك ، فقد كانت هذه الانقلابات كلها داخل إطار الأسرة الحمادية ، مما يدعم أصالة النظام الوراثي الذي تدين به الدولة ، ويدعم معنى سيطرة الأسرة الحمادية – وحدها – على جهاز الحكم ، على النحو الذي عرف في كثير من الدول الإسلامية كالأموية – والفاطمية مثلاً .

وكان الحكم أَقرب ما يكون إلى الاستبداد[1] ـ إن لم يكن « أُوتوقراطياً »

---

(١) انظر كتاب الجزائر للمدني ٢٩ ، المغرب العربي ٢٠٧ ، موجز التاريخ للكعاك ٢٦٥ (ويدل على هذا الأسلوب حكاية يحيى مع عبد المؤمن بن علي التي أسلفنا ذكرها ـ المعجب ٣٠١ ، ٣٠٢) .

« أُوتوقراطية » كاملة . وقد مال إلى « الدموية » في بعض فتراته ، كبعض أيام حماد ، وأيام بلكين وباديس ... وإن كان قد مال إلى لون من الترف والتحضر اللذين يمنحان قدراً من الحرية منذ الناصر – وكان يطلق على الحاكم : الأمير أو الملك ، واللفظان استعملا في التعبير عن الحاكم والدولة في سائر الكتابات المعاصرة للدولة دون ترجيح لأحدهما عن الآخر .

وقد اعترفت الدولة إلى قدوم الهلاليين بالولاء لبني زيري وللفاطميين في القاهرة ، لكنها اعترفت في فترات متقطعة بالولاء للعباسيين[1].

وقد تبادلت القلعة وبجاية المكانة الأولى كعاصمة سياسية ، وكانت الأولى مقر الحكم إلى عهد المنصور ، ثم احتلت بجاية مكانتها السياسية فيما بقي من أيام الدولة .

أما جهاز الدولة أو شئون الحكم « الخارجية والداخلية » العامة ، فكان يتولاها وزراء . ويبدو أن هؤلاء كانوا يُختارون لكفاءتهم بالدرجة الأولى ، لارتباط مصير الدولة بهم ، ولذا فأكثر هؤلاء من غير الحماديين ، ومن أبرزهم « أبو بكر بن الفتوح » الذي استوزره الناصر[2] ، و « خلف بن حيدرة » ، وزير بلكين الذي قتله الناصر بسعاية صنهاجة ، و « أحمد بن جعفر بن أفلح » وزير الناصر و « عبد الكريم بن سليمان » وزير المنصور[3]. ولعل أبرز هؤلاء الوزراء على الإطلاق « بنو حمدون »[4] اللذين استبدوا بالدولة طيلة عهد يحيى ، وكان لهم دور كبير في سقوطها .

وإلى جانب هؤلاء كانت بعض الأسر تحكم بعض الولايات في ظل الحكم الحمادي ، ومن هؤلاء « بنو رمان » وكانوا يتوارثون حكم الجنوب في عاصمتهم

---

(١) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ١٩٣/٢ ، وقد جاء اسم القائم العباسي على العُملة التي اكتشفت في بجاية سنة ٥٤٣ هـ على عهد يحيى .
(٢) العبر ٣٥٣/٦ .
(٣) انظر تاريخ الجزائر للهلالي ١٩٨/٢ ، ١٩٩ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٩٤/١ ، وموجز التاريخ ٢٦٦ .
(٤) العبر ٣١١/٦ .

بسكرة قاعدة الزاب تحت النفوذ الحمادي[1] ، كما خضع لهم « بنو خراسان » في مدينة تونس وضواحيها ـ في فترات متقطعة .

٢ - النظام الإداري :

انقسمت الدولة الحمادية إلى مجموعة من المدن ، لكل مدينة حاكم يخضع للحاكم العام في العاصمة سواء كانت القلعة أو بجاية ، وكان للمدن الحمادية كالجزائر « جزائر بني مزغنان » وبونة ، وقسنطينة ، وجيجل وأشير وحمزة وغيرها ، عمال يغلب أن يكونوا من الأسرة الحمادية . وقد عرفنا من هؤلاء كثيرين ، كالقائد أيام أبيه حماد ، والعزيز أيام باديس ، ويوسف بن حماد أيام بلكين ، وبلكين أيام محسن القائد ، ويلباز وكباب ورومان وخزار ـ إخوة الناصر ـ أيام حكمه ، وعبد الله ويوسف ابني الناصر ، وكرامة بن المنصور أيام أبيه ، والقائد والحارث والحسن وحبوش ـ إخوة يحيى ـ وعماله كذلك أيام حكمه[2] . وبجاية العاصمة كان لها وال ، فعلى عهد باديس بن المنصور عرف لها وال اسمه « سهام » كان من جملة من نكل بهم باديس[3] .

ومن الجلي أنه في داخل هذا التقسيم الكبير لمدن الدولة كانت تتدرج أقسام أخرى كحكام المدن الصغيرة والقرى الذين كانوا يخضعون لهؤلاء العمال ، وغالباً ما كانوا يعينون من قبلهم[4] . وكانت القرى التابعة للمدن الكبرى تسمى كورا .

وكان القضاء من أعظم وظائف الدولة ، وذلك لصلته بالدين والشرع ، وكان شأنه شأن القضاء في المشرق ، ينظر في الأيتام والمواريث والوصايا والأحباس ويؤم المصلين[5] ـ فضلاً عن وظيفة تحقيق العدالة التي هي مهمته الأولى ـ وكان

---

(١) تاريخ الجزائر العام ٣٦٥/١ .
(٢) العبر ٣٥٣/٦ ، ٣٦٤ .
(٣) تاريخ الجزائر العام ٣٩٦/١ .
(٤) انظر المعز لدين الله الفاطمي : دكتور حسن إبراهيم ١٥٥ .
(٥) انظر الفنون الإسلامية ، د. حسن باشا جـ ٢ ص ٨٥٧ .

مستقلاً عن الحكم ، ويظهر أنه كان على المذهب المالكي الغالب على أهل المغرب والأندلس[١] وكان القاضي يعين من قبل الأمير ، ولم تكن جهة خارجية تتدخل في تعيينه .

وكان البريد متقدماً أيام الدولة ، وقد أصبحت العلائم النارية الجبلية مبنية على طريقة حكيمة ، ذلك أن المرايا العاكسة كانت تتخذ بالمنارات فتعكس الأضواء وتقذف بها إلى بعيد ، فتتلقى المراكز الموالية إشارتها ، وتتناقلها سائر المراكز على هذا النحو [٢]، وكانت المنارة المقامة بالقلعة ، والتي لا زالت آثارها باقية من أكبر هذه المنارات .

* * *

وقد اعتمدت الدولة في إقامة دعائمها وحماية كيانها على ركنين مهمين هما الأسطول والجيش ، وقد لعبا دوراً مهماً في تحقيق السياسة الداخلية والخارجية الحمادية .

وقد اعتمد الحماديون في بناء أسطولهم على دور الصناعة ببجاية وبعض المدن الأخرى ، فقد كان ببجاية ــ كما يحدثنا الإدريسي ــ دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي[٣] .

وقد استطاعوا تكوين أسطول يحمي شاطئهم الطويل ، ومدنهم الساحلية المتعددة ، وكانت هذه المدن بمرافئها التي اعتنى بها الحماديون تمثل حماية جيدة للأسطول . ومن أبرز هذه المدن الساحلية ذات الموانئ المهمة : الجزائر ومرسى الدجاج وبجاية وبونة وجيجل .

وقد نجح أسطول الحماديين في أن يضرب بسهم وافر في التجارة العالمية [٤]،

---

(١) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢/١٩٤ .
(٢) موجز التاريخ للكعاك ٢٦٧ .
(٣) صفة المغرب ٩٠ .
(٤) كتاب الجزائر للمدني ص ٢٩ .

وكان ميناء بجاية يلعب دوراً عظيماً في تاريخ البحر الأبيض في هذا العصر[١]، كما اشتهر أهل ميناء بونة بأعمال القرصنة حتى احنقوا عليهم النصارى[٢]. مما أوجب تدخل الدولة وفكها لبعض الأسرى .

كان العصر الذي ظهرت فيه الدولة الحمادية يمثل بالنسبة للبحرية الإسلامية فترة انتقال من عصر السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، إلى عصر الحروب الصليبية والسيطرة البيزنطية على هذا البحر ، ومع أن سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط لم تكن قد انتهت بعد ، إلا أن الصراع مع البيزنطيين ومع إيطاليي البندقية وبيزا كان قد دخل في طور جديد[٣].

لقد بذل بنو حماد ، جهوداً كبيرة حقيقية في سبيل النهوض بالبحرية الحمادية ، لكنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا شأواً بعيداً في هذا المجال[٤] ، بالنسبة لظهور بحرية أوربا الغربية . ولربما كان انقسام البحرية نفسها ـ في هذا الجزء ـ إلى أساطيل (صقلية ـ تونس ـ الجزائر ـ طرابلس) بعد أن كانت موحدة تحت راية الفاطميين ـ عاملاً من عوامل تفوق البحرية المسيحية في ذلك الوقت .

ونحن نرجح أن يكون الأسطول الحمادي قد اتخذ من الجبهة المسيحية موقف الحماية والدفاع ـ ولم تكن له مبادرات هجومية ، في هذا الجانب ربما نتيجة المعاهدات مع المسيحيين . والمعروف أن الساحل الجزائري هوجم غير مرة من القوى المسيحية .

أما في مواجهة الزيريين فقد هاجم الأسطول الحمادي تونس والمهدية . وقد برز دور الأسطول واضحاً في هذين الهجومين ، ومع أن القوى المسيحية في النصف الأخير من عمر الدولة كانت تشن هجوماً عاماً على الجزر الإسلامية والساحل الإسلامي ، فإننا لم نستطع العثور على أية جهود للأسطول الحمادي

---

(١) أثر ظهور الإسلام ، دكتور حسين مؤنس ص ١١٨ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٤ .
(٣) انظر القوى البحرية والتجارية : أرشيبا لدلويس ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ .
(٤) انظر المرجع السابق ٣١٨ .

في صد الزحف الصليبي على جزر البحر الأبيض الإسلامية التي تساقطت واحدة تلو الأخرى ، حتى وصل الصليبيون إلى طرابلس وقابس وجربة وصفاقس والمهدية[1] وضربوا المدن الساحلية الحمادية .

وكان الركن الثاني من أركان حماية الدولة هو الجيش ويبدو أنه كان للدولة جيش نظامي متفرغ ، بالإضافة إلى الرصيد الموجود لدى القبائل العربية المناصرة ، والحلفاء المختلفين ، علاوة على ما كانت عليه الأمة من الاستعداد الطبيعي للقتال .

ولا نستطيع أن نصل إلى تحديد قاطع لعدد الجيش الحمادي ، فثمة أرقام مختلفة في مراحل مختلفة وظروف مختلفة وردت إلينا ، ففي عهد حماد كان الجيش الذي وقف معه في مراحل طموحه الأولى « ثلاثين ألفاً » ـ وفي موقعة سبيبة كان عدد من قتل فقط من جيش الناصر « أربعة وعشرين ألفاً » ، وعندما هاجم المنصور تلمسان كان معه عشرون ألفاً ، وقد بلغ عدد فرسان القلعة وحدها أيام الناصر « اثني عشر ألف » فارس صنهاجي[2] ، فضلاً عن الجنود الموجودين في بقية المدن ، والمشاة ، والجنود الآخرين من غير صنهاجة ... فليس من المبالغة أن يستنتج المرء أن هذا الجيش كان يزيد على خمسين ألفاً ، بالإضافة إلى الرصيد الشعبي الموجود دائماً .

وقد برز من قواد هذا الجيش كثيرون وصلتنا بعض أسمائهم ، فعلى عهد حماد ، كان من قواده « عباد بن صادق »[3] و « عبد الله بن سكر » الصنهاجيان ، وفي عهد الناصر كان قائد جيوشه أخاه القاسم بن علناس[4] ، وعلى عهد يحيى كانت قيادة الجيش إلى طاهر بن كباب ، وإلى الفقيه مطرف بن علي بن حمدون[5] ـ

(١) انظر المقدمة ، الجزء الثاني لابن خلدون ص ٦٣٠ .
(٢) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ١٩٤/٢ ، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٦٥/١ .
(٣) العبر ٣١١/٦ .
(٤) تاريخ الجزائر للجيلالي ٣٩٥/١ .
(٥) نفس المكان السابق .

الذي كان والده « علي بن حمدون » قائداً لأسطول باديس والعزيز . بالإضافة إلى ما هو معلوم من أن معظم الأمراء الحماديين كانوا قادة جيوشهم في حروبهم الكثيرة .

ومن الجدير بالذكر أن مواقف الجيش الحمادي ، برزت على نحو أكبر من بروز الأسطول ، وقد لعب دوراً مهماً في تثبيت أركان الدولة وحمايتها ، وفي ترويض القبائل الهلالية ، وتحقيق الأمن والاستقرار في البلاد .

ولم تصلنا معلومات وافية عن تكوين الجيش الحمادي أو أسلحته ، بيد أننا نستطيع أن نستنتج أن الجيش كان ينقسم إلى فرق لكل فرقة وظيفتها ، فهناك الفرسان ، وهناك المشاة وتحت هاتين الفرقتين تتدرج فرق أخرى .

كما تدلنا موقعة سبيبة الشهيرة على وجود عمامة للقائد كرمز للقيادة ، فضلاً عن وجود راية مميزة للدولة .

وأما الأسلحة فمن المحتمل كذلك أن تكون هي الأسلحة المتداولة في العالم الإسلامي المعاصر للدولة في ذلك الوقت ، سواء في مصر الفاطمية أو لدى المرابطين أو بني زيري . ولم يعرف عن الحماديين إبداع مستقل في هذه المجالات .

٣ – النظام المالي :

تعددت مصادر الدخل لدى الخزانة الحمادية . وتدل الحياة الحربية التي عاشتها الدولة ، وكانت السمة الغالبة عليها ، على أن الغنائم كانت تشكل مصدراً مهماً من مصادر دخل الدولة . فالحروب مع زناتة ، ومع المدن التابعة للمرابطين على الحدود الجزائرية كتلمسان ، هذه وتلك كانت هدفاً لكثير من الغزوات الحمادية على عهد معظم الأمراء الحماديين .

وكانت الدولة تجبي الخراج وتعتمد في جمعه على ولاة تعيّنهم . وحين تغلب العرب على بعض ضواحي الجزائر تركت لهم مهمة جباية الخراج . ويحدثنا البكري عن مستخلص مدينة بونة (الضرائب الجمركية) ، فيذكر أنه كان عشرين ألف

دينار[1] ، غير جباية بيت المال . أما مرسى الخرز فكان جباية بيت مالها عشرة آلاف دينار[2] .

ومن الواضح أن المدن التابعة للدولة والتي يعيش فيها الزناتيون أو غيرهم كانت تلتزم كذلك بدفع إتاوة معينة ، كالمدن التي يسكنها بني رمان في الجنوب ، أو تونس في الشرق . ويغلب على الظن وجود أنواع أخرى من الضرائب ، فعندما أراد حماد تعمير القلعة أعفي السكان من الضرائب ، وكذلك فعل الناصر عندما أراد تعمير بجاية ، وهذا يرجح أن هناك أكثر من ضريبة واحدة ، تغري الناس بالهجرة من مكان إلى مكان آخر . وتدلنا أكثر من واقعة على ثراء عظيم تمتعت به الخزينة الحمادية ، ففي سنة ٤١٥ هـ جرى زواج عبد الله بن حماد من « أم العلو » بنت باديس ، فظهر من البذخ والترف ما ينم عن ثراء الدولة ، فقد حمل المهر على عشرة أحمال على عشرة بغال ، وعلى كل حمل جارية حسناء ، وجملة المهر مائة ألف دينار عيناً[3]. ولا شك في أن القصور التي بنوها ـ وكانت من أروع ما تركوه من آثار حضارية ـ دليل بحد ذاته على عظم الدخل الذي كان يرد إلى الخزانة الحمادية .

وليست النعوت الكثيرة التي يطلقها البكري والإدريسي حول ثراء الحماديين ومدنهم ، كقول الإدريسي عن القلعة « من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساكن »[4] ونعته لبجاية بما لا يقل عن مستوى وصفه للقلعة[5]... ليست هذه النعوت إلا تصويراً للحالة

---

(١) المغرب للبكري ص ٥٥ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بونة . وقد أخطأ محرر المادة ، فزعم أن هذا المقدار كان يدفع للخزانة الحمادية أيام ابن حوقل ، فالمعروف أن ابن حوقل لم يعاصر الحماديين قط .

(٢) المكان السابق نفسه .

(٣) تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٤٨/١ .

(٤) صفة المغرب ص ٨٦ .

(٥) انظر المرجع السابق ص ٩٠ .

الاقتصادية التي كانت تتمتع بها الدولة الحمادية وتنعكس بالتالي على مشاريع الدولة وإمكانات ازدهارها .

* * *

كان الدينار هو العملة الرسمية المستعملة في الدولة الحمادية ، وكان يطلق عليه « الدينار المغربي »[1]. ونحن نجد هذا المصطلح مستعملاً في كثير من الكتابات المعاصرة للدولة ، فناصر خسرو يحدثنا أنه أثناء وجوده في القاهرة – سمع من بزار ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشتريه بثلاثة دنانير مغربية ، وهي تساوي ثلاثة دنانير ونصف نيسابورية[2] ، ويحدثنا في موضع آخر أن يهودياً غنياً قتل يدعى أبو سعيد ، وقد خشي أخوه على نفسه فكتب للسلطان أن يقدم للخزانة مائتي ألف دينار مغربي حالاً[3]. كما ذكر أن قاضي القضاة يتقاضى ألفي دينار مغربي في الشهر ، وأن خراج الجيش الذي يرافق السلطان في رحلة الحج ألف دينار مغربي في اليوم[4] ، ونفقات حرس الرحلة إلى الحج ستون ألف دينار مغربي في مدة الشهرين[5] .

وحين كان ناصر خسرو في البصرة ، كان مديناً لحمال أعرابي في ثلاثين ديناراً مغربياً سنة ٤٤٣ ﻫ (١٠٥١ م)[6]هذا بالإضافة إلى الحقيقة التي تشبه أن تكون ثابتة ، وهي أن الدول التي كانت تابعة للدولة البيزنطية ، كان الدينار عملتها الرسمية الأولى[7]وتسمى منطقة الذهب[8].

---

(١) القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٢) سفرنامة ٦٠ .
(٣) سفرنامة ٦٥ .
(٤) نفس المكان السابق .
(٥) سفرنامة ٦٦ .
(٦) سفرنامة ٩٦ .
(٧) تاريخ الإسلام السياسي ٤١٨/٤ ، والخراج والنظم المالية ، د. ضياء الدين الريس ٣٧٣ ٣٧٣ .
(٨) الخراج والنظم المالية ٣٧٣ .

ونحن لا نستطيع أن نصل إلى تحديد قاطع لقيمة هذا الدينار ، لكننا يمكن أن نطمئن إلى أن سعره كان مرتفعاً ، ويبدو لنا من شيوع تعامله في مصر والعراق وغيرهما أنه كان عملة ذائعة ، تفرض نفسها كعملة عالمية متداولة ، وإذا كان سعر الدينار ليس ثابتاً ، خضوعاً لقوانين الاقتصاد المعروفة ، فنحن بالتالي لا نستطيع أن نصل إلى تحديد دقيق لقيمة الدينار المغربي ، ولئن كان صرف الدينار المعزّي (نسبة إلى المعزّ الفاطمي) الذي ضرب في القاهرة سنة ٣٦٣ خمسة عشر درهماً ونصف الدرهم[١] ، وأنه في أيام الحاكم تقرر أمر الدراهم على ثمانية عشر درهماً بدينار[٢] ، فإننا نرجح أن يكون صرف الدينار المغربي أكثر من هذا . ومن الواضح أنه نتيجة للظروف السياسية الآنفة الذكر ، فإن الحماديين قد حافظوا على ضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي ، ويذكر لنا هذا ابن خلدون حين يذكر أن يحيى بن العزيز آخر الأمراء الحماديين هو الذي أحدث السكة سنة ٥٤٣ هـ[٣] ولم يكن أحد قد أحدثها قبله تأدباً مع حلفائهم العبيديين[٤] .

ويبدو أن ما ذكره ابن خلدون يصل إلى درجة اليقين ، إذ أن الحفريات المتتابعة في القلعة ، وما وجد في بجاية ، لم تثبت لنا وجود نقود قبل سنة ٥٤٣ هـ قد ضربت في القلعة ، أو في بجاية ، التي كان الخلفاء الحماديون فيما يبدو يصرون على إطلاق اسم الناصرية عليها اعتزازاً بجدهم العظيم .

وقد نقل إلينا بيليه صاحب حفريات سنة ١٩٠٨ في القلعة صورة للنقد

---

(١) كتاب النقود للبلاذري بعناية الأب أنستاس ماري ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ٥٩ .

(٣) ذكر ابن خلدون في المقدمة (جـ ٣ ص ٦٤٠) أن صنهاجة لم يتخذوا السكة إلا آخر الأمر ... اتخذها المنصور صاحب بجاية ، ومن المعروف أن المعز بن باديس قد اتخذ السكة قبل إمارة المنصور بأكثر من ربع قرن فإذا كان غرضه بصنهاجة الحمادية ، فقد ذكر ابن خلدون نفسه أن يحيى هو الذي اتخذها . إلا أن يكون مراده بالمنصور « يحيى » إذ أن هذا لقبه لكن كلامه فيه لبس .

(٤) العبر ٣٦٣/٦ ، وانظر تاريخ الجزائر العام ٣٧٩/١ .

الحمادي المكتشف فيها . وواضح من قراءة الخط المغربي المفرَّق المعروف والموجود عليها ، أنها ضربت سنة ٥٤٣ ، وأن إحدى دوائرها تنطبق إلى حد كبير على وصف ابن خلدون لها ، فهي ـ كما ذكر ابن خلدون ـ ثلاث دوائر وعلى سطور كل دائرة كتبت العبارات التالية ... في أحد الوجهين كتب « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور » .

« ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ٥٤٣ للهجرة (الإمام أبو عبد الله المتقي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي) » . وفي الوجه التالي : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . ولا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور »[1].

ويؤكد لنا المؤرخ التونسي « حسن حسني عبد الوهاب » والدكتور « حسن إبراهيم » أن بني زيري الصنهاجيين استمروا على رسم الخلفاء الفاطميين على صنوجهم وأرطالهم ونقودهم إلا ما كان من أمر المعزّ بن باديس[2] ، وهذا يضاف كدليل ـ إذا ما نظرنا إلى التطور السياسي الحمادي ـ على أن الحماديين لم يضربوا السكة بأسمائهم إلا على عهد يحيى المذكور[3] أي قبل سقوط الدولة بأربعة أعوام .

* * *

وكانت الموازين الحمادية هي الرطل ، لكن رطل اللحم مختلف عن رطل

(١) La Kalaa Des Beni Hammad, — Beylie, P: 114.

(٢) ورقات من الحضارة العربية بإفريقية ٤٢٢/١ (نقلا عن أحسن التقاسيم للمقدسي) ، وانظر تاريخ الدولة الفاطمية ٢٥١ ، ٢٥٢ (وإن كان قد جعل تبعية الزيريين إلى سنة ٤٢٩) .

(٣) ذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أن عدداً لا يستهان به من السكة قد عثر عليه في حفريات قلعة بني حماد يرجع صنعها إلى عصر الأمراء من بني حماد الصنهاجية أصحاب القلعة أواخر القرن الخامس للهجرة ... والصحيح أنه في النصف الأول من القرن السادس كما ذكرنا (ورقات ٤١٣/١) .

بقية الأشياء ، فرطل اللحم سبع وستون أوقية[1] ، ورطل سائر الأشياء اثنتان وعشرون أوقية ، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل ، والجاري عندهم قيراط وربع درهم وصقل وحبّتان مضروبة كلها ، ودرهمهم اثنتا عشرة صقلية عدداً ، وأما كيلهم فيسمى الصحفة ، وهي ثمانية وأربعون فادوساً ، والفادوس ثلاثة أمداد بمدّ النبي عليه الصلاة والسلام[2] أو هي اثنا عشر مداً بالحفصي[3].

ومن الواضح أن ثمة تشابهاً كبيراً في كل بلدان المغرب العربي وفي الأندلس بين هذه المعايير سواء في الكيل أو الوزن ، أو في النقود . فضلاً عن التشابه في كثير من المنتجات الزراعية أو الصناعية ، مما جعل هذه المنطقة تبدو عند دراسة أي ناحية من نواحي حياتها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية منطقة متشابهة إلى حد كبير .

---

(١) يبدو أنه كان يشبه (الأقة) وإن أطلق عليه كلمة الرطل .
(٢) المغرب للبكري ص ٦٢ .
(٣) انظر صبح الأعشى ١١٤/٥ .

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية

١ – تطور الحياة الاقتصادية
٢ – الزراعة
٣ – الصناعة
٤ – التجارة

١ - **تطور الحياة الاقتصادية :**

لقد استطاعت الدولة الحمادية أن تشق طريقها عبر منزلقات كثيرة كان يمكن أن تودي بها قبل أن تسقط على يد الموحدين ، وقد نجحت في أن تمضي ، متخطية أكثر هذه العقبات بحيث بدت مرفأ الأمن والرخاء لكل الباحثين عن هذين العنصرين في المغرب والأندلس .

ومن البديهي أن الحياة الاقتصادية للدولة الحمادية قد تقلبت بين مراحل مختلفة بتأثير العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة بها ، لكننا نستطيع القول باطمئنان - حين ننظر إلى الحياة الاقتصادية للدولة نظرة عامة أنها كانت في رقي اقتصادي انتقل الناس به من البداوة إلى الحضارة ، ومن خشونة العيش إلى الظروف وأسباب الترف . ونستطيع أن نعتبر هذه الدولة من أعظم الدول التي أكسبت المغرب حضارة مادية نادرة المثال [1].

لقد استقرت الدولة بعد إعلان قيامها فترة كانت كفيلة بإعادة الأمن إليها ، وتدلنا وقائع مختلفة على أن حماداً كان يهتم اهتماماً كبيراً بالثروة الداخلية ؛ إذ أنه كان يعتقد أن أمامه مشاكل تتطلب المال ، سواء على مستوى الصراع العسكري مع الزيريين ، أو البناء الداخلي لدولته ، ويبدو أنه نجح في تحقيق رخاء اقتصادي كبير لدولته ، فعندما هُزم أمام باديس سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) استولى الزيريون على أموال لا تحصى من جيشه ، يؤكد لنا ذلك وجود رقعتين مع رجل ، فيهما أن الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون ألف دينار وسبعمائة ، ومن الورق ألف وخمسمائة درهم ، ومن الأمتعة خمسون صندوقاً [2] ، واكتشاف

---

(١) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٦٥ .

(٢) الكامل ٣٥٥/٩ ، والبيان المغرب ٣٧٩/١ .

ثمانية آلاف دينار في حشو برذعة حمار يسوقه بين يديه رجل[1].

وعندما استقر أمر الدولة بالصلح بين حماد والمعز ، كان هذا عاملاً مهماً في تحقيق ازدهار أكثر للدولة ، وفي هذه الفترة كان دخل الدولة عالياً ، بحيث أتيح لحماد وابنه القائد أن يعيدا ترميم الدولة ومدنها الكبرى ، كأشير والقلعة من جديد .

وكان عهد القائد وبلكين بن محمد امتداداً لهذا الاستقرار الاقتصادي . ومن الواضح أن القلعة لعبت دوراً كبيراً في تحقيق هذا الرخاء . وكانت نفسها تتصدر مدن الدولة في مجال الحركة الاقتصادية ، وتتمتع برفاهية مترفة[2]. وكانت ــ كما يصفها البكري المعاصر لدورها هذا « مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب »[3].

لقد مثل العهد الذي انتقل فيه الدور الأساسي من القلعة إلى بجاية ، فترة اختبار صعبة مرت بها الدولة ، وإذا كان من نتائج هذه الفترة انتقال العاصمة نفسها إلى بجاية ، فإن الحماديين ــ مع ذلك ــ قد نجحوا في التصدي لهذا الاختبار والإفلات منه ... ولقد بدت القبائل العربية أكبر خطر يتهدد البناء الداخلي للدولة الحمادية ، باعتبارها قبائل فوضوية تحولت بعد عقدين من دخولها المغرب إلى جماعات مرتزقة ، تعمل لحساب كل القوى . وبالرغم من أن بعض الآثار المادية العامة لا بد أن تكون قد لحقت بالجزائر الحمادية من جراء الفوضى التي أحدثتها القبائل العربية ، فضلاً عن الإتاوة التي ألزم الحماديون أنفسهم بها اتقاء لشرهم . لكن مع ذلك يعتبر النجاح الذي حققه الحماديون كبيراً في الإفلات من المصير الذي وقعت فيه تونس « التي لم يقف عمل البدو فيها عند تخريب مراكز التجارة والصناعة »[4]، « فالواقع أن إمارة بني حماد ــ ومنطقة التلال (القبائل

---

(١) تاريخ الجزائر العام ٣٤٦/١ .

(٢) Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 2, P: 579.

(٣) المغرب للبكري ص ٤٩ .

(٤) القوى البحرية لأرشيبا لدلويس ، ترجمة أحمد محمد عيسى ص ٣٨٥ .

الصغرى) ـ التي كان بعضها تابعاً للحماديين كذلك ـ كانتا المنطقتين الوحيدتين في تونس والجزائر اللتين نجتا من اجتياح البدو ونهبهم »[1]، بل إن عاملاً مهماً جعل دولة الحماديين في هذه الفترة تبدأ عهد ازدهار اقتصادي ، ذلك أن دولة بني زيري قد فقدت مكانتها الأولى في المغرب ، واستطاع الحماديون احتلال هذه المكانة ، كما أن بني زيري هؤلاء أصدروا في القيروان سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) مرسومهم بمنع تداول العملة الفاطمية ، فأضر هذا التحريم بالتجارة بينهم وبين مصر والدول الشرقية الخاضعة للفاطميين ، وقلل من الوساطة التي كان يقوم بها تجار المغرب في التجارة الدولية للبحر المتوسط . لكن كان لهذا المرسوم أثره الحسن بالنسبة للحماديين ، « إذ انتقلت التجارة إلى أملاكهم »[2]... يؤكد لنا هذا تلك المكانة التجارية التي حظيت بها بجاية في هذا الدور الذي قدر لها أن تتصدر فيه مدن ومرافئ الدولة الحمادية .

٢ – **الزراعة** :

تعددت ألوان النشاط الزراعي في المجتمع الحمادي ، وتعددت المحاصيل التي ينتجها ، وقد تحقق في كثير منها الاكتفاء الذاتي ، كما تمكن من تصدير بعض المحصولات ، وبعضاً من الحيوانات التي تعيش حول الزراعة ، وكانت الأرض المحيطة بالمدن ، والقرى الحمادية مجالاً للنشاط الزراعي .

في القلعة الحمادية ـ التي مثلت دور العاصمة الأولى لفترة كبيرة « فواكه ونعم يلحقها الإنسان بالثمن اليسير ، وبلادها وجميع ما يضاف إليها تصلح فيها السوائم والدواب ؛ لأنها بلاد زرع وخصب ، وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلّت كفت »[3].

وفي الدور الثاني ـ الذي برزت فيها بجاية ـ بقيت القلعة أرضاً زراعية جيدة

---

(١) القوى البحرية ٣٦٥ .

(٢) القوى البحرية لأرشيبا لدلويس ٣٨٥ .

(٣) صفة المغرب ص ٩١ ، ٩٢ .

الإنتاج ، وإن كان العرب يقومون على جباية أموالها ، وتنظيم أمورها ، كعمال للدولة الحمادية .

أما بجاية التي احتلت المكانة الأولى لأكثر من نصف عمر الدولة ، فقد كان بها بواد ومزارع ، وكانت الحنطة والشعير كثيرين بها ، وكذلك التّين كان بها منه ما يكفي لكثير من البلاد [1] « وهي كثيرة الفواكه والثمار وجميع الخيرات » ـ كما يحدثنا صاحب الاستبصار [2] .

وقد لخص القلقشندي النباتات والمحاصيل الموجودة في مملكة بجاية ـ نقلاً عن ابن فضل الله العمري ، صاحب مسالك الأبصار ، وأبي الفدا صاحب تقويم البلدان ـ فذكر أن بمملكة بجاية « الحبوب والقمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة والبسلا ، ومن الفواكه العنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى والعنب والزعرور والخوخ والمشمش والتوت والقراصيا والزيتون والأترج والليمون والنارنج واللوبيا واللفت والباذنجان ، ومن الزهور الرياحين والياسمين والنرجس » [3] .

وليس فيما يقوله القلقشندي مبالغة ، فالأموال التي حملها المعز لدين الله معه إلى مصر تدلنا على مدى الوفرة الاقتصادية التي كان يتمتع بها المغرب . ويؤكد « أرشيبا لدلويس » هذه الظاهرة حين يتحدث عن المغرب على عهد الدولة الحمادية بقوله : « في تلك الأثناء ظل شمال إفريقية إقليما وفير الإنتاج من الناحية الزراعية . وكانت الحبوب هي المحصول الأساسي هناك . وانتشرت زراعتها حول باجة . كما غطّت أشجار الزيتون أرض الوديان الواقعة غرب القيروان بين صفاقس وتونس ، وكانت القيروان ذاتها في وسط هذه الزراعات . وصار التمر وقصب السكر من أهم حاصلات الواحات بإقليم الجريد في الجنوب ،

---

(١) صفة المغرب ص ٩٠ .
(٢) الاستبصار ص ١٣٠ .
(٣) صبح الأعشى ١١٢/٥ ، ١١٣ .

وزرع الموز وقصب السكر في قابس ، والقطن في الحضنة والمسيلة وجهات أخرى غيرها »[1] .

ونحن نجد فيما يسوقه الرحالة العبدري في رحلته ، ما يدعم هذه الصورة الاقتصادية[2] ، وإن كنا نستأنس بقوله أكثر من سوقنا إياه كحقيقة تاريخية لرسم معالم الفترة التي نتناولها من الناحية الاقتصادية .

وفي بقية المدن الحمادية . نستطيع أن نجد نشاطاً زراعياً متعاوناً مع النشاط الذي تبادلته العاصمتان ، في مدينة الجزائر (جزائر بني مزغنة) ـ بادية كبيرة وقبائل بربرية تزرع الحنطة والشعير ، وعندهم المواشي من البقر والغنم ، وعندهم عسل النحل والسمن كثير[3] ، وفي « المسيلة » مزارع ممتدة ، ولأهلها سوائم خيل وأغنام وأبقار وجنان وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع قطن وقمح وشعير وعسل نحل وسمك وبساتين[4]، وفي « تنس » الفواكه والحنطة وسائر الحبوب والسفرجل[5] . وفي تاهرت البساتين والفواكه والسفرجل[6] وفي « تدلس » الفواكه والأغنام والأبقار[7] . وفي ورقلة « ورقلان » الكروم والبصل والحناء والكمون[8] . وفي قسنطينة الحنطة والعسل والسمن[9] وفي مرسى الدجاج والقمح والفواكه والشعير والتين والتمر[10] وفي بونة الفاكهة والقمح والشعير والكتان والغنم والحوت والصوف

---

(١) القوى البحرية التجارية ص ٣٢٩ .

(٢) رحلة العبدري ص ٢٦ .

(٣) صفة المغرب ٨٩ ، وصورة الأرض لابن حوقل ص ٧٧ .

(٤) صفة المغرب ٨٦ ، وانظر الاستبصار ١٧١ ، وصورة الأرض لابن حوقل ص ٧٨ .

(٥) صفة المغرب ٨٣ .

(٦) المسالك والممالك للإصطخرى ص ٣٤٠ ، وصبح الأعشى ١١١/٥ ، وآثار البلاد للقزويني ١٦٩ .

(٧) صفة المغرب ٩٠ .

(٨) صفة المغرب ٨٤ .

(٩) صفة المغرب ٩٦ ، وصبح الأعشى ١١٠/٥ .

(١٠) صورة الأرض ٧٧ .

والعسل[١] وفي غير هذه المدن من المدن التابعة للدولة الحمادية كانت توجد أنواع مشابهة من المنتوجات الزراعية التي تعكس حياة اقتصادية نشطة[٢].

٣ - الصناعة :

توفرت لدى الدولة الحمادية أسباب قيام صناعات متعددة . فهناك ثروة زراعية وأخرى حيوانية ، وهناك معادن متعددة في المدن الحمادية ، كما أن الشاطئ الساحلي الذي تتمتع به الدولة ، كان بدوره عاملاً من عوامل قيام بعض الصناعات .

لقد وُجد الخشب في بجاية كما وجد الحديد بها أيضاً[٣] وفي مرسى الخرز توفر المرجان[٤] وقد توفر الخشب والحديد ببونة[٥] وتوفر الملح ببسكرة[٦] عاصمة الجنوب . كما وجد البرونز والفضة اللذان أمكن استغلالهما في صناعات كثيرة .

ووجد القطن وقصب السكر والكتّان وغيرها من المحصولات الزراعية القابلة للتصنيع .

ولم تكتف الجزائر الحمادية بالمواد الخام التي كانت متوفرة لديها والتي قامت معظم الصناعات على أساسها ، بل إن أهل ورقلان كانوا يرحلون إلى بلاد السودان فيخرجون منها التبر أو يستوردونه من أهل البلد ثم يقومون بضربه في بلادهم باسم بلادهم[٧].

ويبدو أن المرجان كان من أبرز النباتات التي اشتهرت بها الدولة ، فقد كان كثيراً بمرسى الخرز ، وكان معدنه « مخدوماً بها ويعمل به كثيرون ،

---

(١) صورة الأرض ٧٦ ، والمغرب للبكري ص ٥٥ .
(٢) انظر المغرب للبكري ٦٦ ، صفة المغرب للإدريسي ، صفحات ٨٧ ، ٩٨ ، والاستبصار صفحات ١٢٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ .
(٣) صفة المغرب ص ٩٠ ، ٩١ .
(٤) المغرب للبكري ص ٥٥ ، وصفة المغرب ١١٦ .
(٥) صفة المغرب ١١٧ .
(٦) المغرب ص ٥٢ .
(٧) صفة المغرب ص ١٢١ .

وكان يصاد بآلات ذوات ذوائب ، فتدار الآلة في أعلى المركب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان ، فيجذبه الرجال إلى أنفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير »[1].

لقد وُجدت في المدن الحمادية المختلفة ألوان من النشاط الصناعي ، وكان للقلعة وبجاية دورهما الكبير في الحركة الصناعية .

ولقد كان بالقلعة أنواع من الصناعات ، ففيها لبابيد الطيلقان جيدة غاية الجودة ، وبها معامل لنسج الأكسية القلعية الصفيقة النسج الحسنة المطرزة بالذهب[2] والسجاجيد والملابس الفاخرة[3]، ومن الأجزاء التي وجدت أثناء حفر حديث في القلعة يتضح أن صناعة الخزف والقيشاني والبلاط والتحف الفنية ، كانت موجودة فيها[4]. وقد وجد في الخرائب كذلك بعض أوعية البلسم وزجاجات العطور والصحاف وبعض القصاع المختلفة الدقيقة الصنع ، مما يوضح أن صناعة الزجاج والفخار كانت مزدهرة في القلعة[5] كما ازدهرت صناعة الزجاج في بجاية أيضاً[6]. وجورج مارسيه ـ المدرس الفرنسي بقسنطينة ـ الذي صحب بيليه في حفرياته وساعده سنة ١٩٠٨ ـ يؤكد هذا في حديثه عن القلعة بقوله : « ويظهر أن صناعة الفخار يومئذ بلغت مبلغاً عظيماً ، كما يظهر عليها تأثير الفرس ومصر ، فناً وعملاً ، ووُجد بها من آثار ذلك كثير »[7]. و « بيليه » نفسه يؤكد هذا في المقدمة الهامة التي كتبها وصفاً لرحلته الأثرية في القلعة[8].

وفي بجاية ، شهدت الحركة الاقتصادية ـ لا سيما بعد ترويض القبائل

---

(١) صفة المغرب ص ١١٦ .

(٢) معجم البلدان ، مادة القلعة ، المجلد السابع ١٤٩ .

(٣) تاريخ الجزائر العام ٣٨٦/١ .

(٤) انظر كتالوج بجاية ص ٦٢ .

(٥) كتالوج بجاية ص ٦٢ .

(٦) القوى البحرية والتجارية ص ٣٣٠ .

(٧) نقلا عن تاريخ الجزائر للهلالي ٢٩٢/٢ .

(٨) La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 3.

العربية ، والتخلص من آثار موقعة سبيبة ـ ازدهاراً فاق رقي القلعة بلا شك .

لقد كانت بجاية نشيطة صناعيا ، لا سيما في الصناعات التي تتعلق بالبحر ، نظراً لكونها أهم مرفأ حمادي ، ويحدثنا عن صناعاتها الإدريسي الذي انتهت حياته ، بعيد نهاية الدولة الحمادية بقليل ـ فيذكر أنه كان ببجاية دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي[1] ، كما قامت صناعة السفن أيضاً بمرسى الخرز[2] .

وبواسطة الفضة والبرونز قامت صناعات كثيرة ، كالمصابيح وحاملات الشموع والأباريق ودلال القهوة وزينات الأبواب والأثاث ومقابض الأبواب ومطارقها[3]. ونتيجة لوجود الخشب الذي تمتلئ بأشجاره جبال بجاية والمدن التي تحيط بها ، كانت توجد صناعة النجارة ، يدلنا على هذا ذلك الصندوق الخشبي المحفور ذو القفل البرونزي الذي يمثل تقليداً شائعاً في كل أنحاء بلاد القبائل ، والذي يعود إلى أقدم صفحات التاريخ[3]، ولا شك أن ثمة صناعات أخرى متناثرة كانت تقوم في العاصمتين الحماديتين من نوع تلك الصناعات اليدوية الخفيفة التي تسد حاجات أساسية للناس ، والتي لا زال لها صدى في المدن المغربية[4].

٤ – **التجارة** :

كانت التجارة أبرز الأنشطة الاقتصادية في الدولة الحمادية على الإطلاق . ولقد ساعدت ظروف سياسية وجغرافية واقتصادية على أن تزدهر التجارة الحمادية ، فالظروف السياسية المحيطة بالدول المجاورة لهم كالزيريين والمرابطين ، وسياستهم في المسالمة سواء مع العرب أو المسيحيين والموقع الذي يتمتعون به والشاطئ الطويل على البحر الأبيض ، والمرافئ والأسواق والاتصالات التجارية التي نشطوا فيها .. كل هذه العوامل مكّنتهم من مزاولة تجارة ناجحة ، سواء في داخل المغرب أو خارجه .

---

(١) صفة المغرب ص ٩٠١ ، وانظر الاستبصار ص ١٣٠ وقد جعلهما دارين للصناعة .
(٢) المغرب للبكري ص ٥٥ .
(٣) انظر كتالوج بجاية ٦٤ .
(٤) كتالوج بجاية ٦٤ ، ٦٥ .

ولقد كان لقدوم جيش مغربي إلى مصر مع المعز لدين الله الفاطمي أثر كبير في فتح نوافذ علاقات تجارية مع المشرق العربي ومصر بالذات ، فقد توافد على مصر عدد كبير من البربر أقاموا في الإسكندرية وما حولها ، ثم كان للطرق البرية التي أصبحت منتظمة وواضحة منذ رحلة المعز إلى مصر أثر في تسهيل العمليات التجارية .

وقد منح الأمن الذي توفر للمجتمع الحمادي فرصة لازدهار الزراعة وبعض ألوان الصناعة ، وكان للعلاقات التجارية مع المشرق ـ أيضاً ـ أثرها في إدخال بعض النباتات الشرقية ـ كالقطن وقصب السكر والزعفران[1] ـ التي أصبحت أدوات تجارية فيما بعد ، ولم تكن التجارة مع الأندلس أقل من التجارة مع المشرق ، فقد كانت المدن الساحلية الجزائرية زاخرة بمجموعة من التجار الأندلسيين ، وبخاصة تجار مدينتي بونة وتنس[2] .

وفي داخل البلاد الحمادية قامت تجارة نشيطة ، نعتقد أنها كانت تتناقل داخلياً وخارجياً ، ففي مدن الجزائر[3] ، وقسنطينة[4] ، والمسيلة[5] ، وغيرها قامت أسواق عامرة ـ كما يحدثنا الجغرافيون ـ وبين هذه المدن وبعضها كانت تتوفر طرق مواصلات متنوعة كثيرة ، تساعد على إحداث تكامل اقتصادي داخلي للدولة[6] ، وهي تتبادل فيما بينها منتجاتها المختلفة ، فالإدريسي يذكر أن بجاية « يجلب إليها من أقاليمها الزيت البالغ الجودة والقطران »[7] وأن مدينة الجزائر

---

(١) القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٤ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٣٠ .
(٣) انظر صفة المغرب ٨٩ ، وتقويم البلدان لأبي الفدا ص ١٢٥ .
(٤) انظر الاستبصار ١٦٦ .
(٥) انظر المغرب للبكري ٥٩ .
(٦) أفاض في ذلك البكري والإدريسي والمراكشي (عبد الواحد) وصاحب الاستبصار وأبو الفدا والقلقشندي وغيرهم وقد ذكروا المراحل التي تمتد بين معظم المدن الحمادية لا سيما بجاية والقلعة .
(٧) صفة المغرب ٩٠ .

« يتجهز بسمنها وعسلها إلى سائر البلاد »[1]، وأن سمك المسيلة « يصطاد منها ويحمل إلى قلعة بني حماد »[2].

وهكذا استطاعت الجزائر الحمادية أن توفر للشعب الجزائري حياة تمتاز بالسهولة والهدوء والرخاء ، وتتوفر للإنسان فيها حاجياته الكمالية ، فضلاً عن الضرورات الاقتصادية الأولية[3]، ويبدو لنا أن المعاملات الاقتصادية كانت تتمتع بكثير من الحرية ، ولا تفرض عليها قيود إلا في حدود الواجبات التي تفرضها الشريعة الإسلامية ، وفق مذهب الإمام مالك ، الذي كان من الناحية العملية المذهب الذي يحتكم إليه الأفراد والمجتمع ، وفي حدود الضرائب الجمركية التي من شأنها أن تمنح قدراً من الحماية للمنتجات المحلية أمام منافسة البضائع الوافدة ، وفي بلاد المغرب كانت الضريبة الجمركية المشهورة ، والتي ربما سار عليها الفاطميون في مصر ـ كما يرجح الدكتور راشد البراوي ـ كان حدها الأدنى ١٠ ٪ على الواردات و ٥ ٪ على الصادرات ، أما الحدّ الأقصى فقد كان أحياناً يصل إلى ٣٥ ٪ ، وإن كان يؤخذ من كلام القلقشندي « أن الرسوم كانت تتراوح بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪ ، وهذا بطبيعة الحال ، فضلاً عن الرسوم الإضافية التي تدفع عند استخدام المترجمين والحمالين وعمليات الوزن وحق الرسو بالموانئ »[4].

ومن الطبيعي أن تحاول الدولة الحمادية إيجاد صلات تجارية بينها وبين الأقطار التي يمكن أن تفتح فيها أسواقاً لتصريف منتجاتها ، وفضلاً عن الزراعة التي يمكن أن تكون أنواع منها قد دخلت في إطار الصادرات الحمادية كالحبوب

---

(١) صفة المغرب ٨٩ .

(٢) صفة المغرب ٨٥ .

(٣) ترد نعوت الرخص والرخاء في معظم ما سرده الجغرافيون في وصف الحالة الاقتصادية للمدن الحمادية ، ومن الصعب اتهام هذه النعوت بالكذب ، حتى وإن بولغ فيها لأننا نجد هؤلاء الجغرافيين أنفسهم قد وصفوا لنا بصدق حالة الشدة والمجاعات التي تعرضت لها تونس ومصر وغيرهما في هذا العصر .

(٤) حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ٢٦٨ ، ٢٦٩ (وقد نقل التعريفة الجمركية عن ماس لاتري) .

المختلفة[1]، وفضلا عن الثروة الحيوانية التي اشتهرت بها الجزائر في تاريخها كله ، وكانت من أهم صادراتها في العصر الحمادي[2]... فضلاً عن الزراعة والحيوانات المأكولة ، كانت الصناعة الحمادية أبرز الصادرات إلى العالم الخارجي ، فصناعة المعادن التي كانت تعتمد على ما يستخرج من الحديد والزئبق من جبال أرذاو ، وعلى ما يستخرج من النحاس من جبال كتامة ، والمرجان المستخرج من مرسى الخرز (القالة)[3]- والصناعة الحرفية كمصنوعات النجارة والخراطة والحدادة والحياكة التي كانت في أرقى منازلها[4]، كل هذا قد احتاج إلى مصارف تروج بها وتنفذ ، فكانت التجارة الخارجية إحدى الضرورات الاقتصادية للدولة الحمادية .

ويتفق الجغرافيون والمؤرخون على أن الحماديين قد نشطوا في باب التجارة الخارجية ، فالإدريسي يذكر أن أهل بجاية كانوا « يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة »[5]. وصاحب الاستبصار يصف مرساها بأنه « مرسى عظيم تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم وسفن المسيحيين من الإسكندرية وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها »[6].

ويحدثنا الإدريسي عن أهل مدينة انكلارس بغانا فيقول : « إن أهلها يتجولون حتى ينتهوا في جهة المشرق إلى مصر وينصرفون في جهة الغرب فيصلون بلاد وارقلان »[7] ، ومن مرسى الخرز كان يصدر المرجان إلى الشرق واليمن

---

(١) صفة المغرب ٨٣ . والاستبصار ١٣٣ (حول مدينة تنس) .
(٢) انظر صفة المغرب ٩٠ (حول تدلس) .
(٣) انظر ملحق نخب الذخائر في أحوال الجواهر للسنجاري المعروف بابن الأكفاني بتعليق الأب أنستاس الكرملي ص ٨٨ .
(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٥) صفة المغرب ٩٠ .
(٦) الاستبصار ١٣٠ ، وانظر معجم البلدان ٢/٦٢ .
(٧) صفة المغرب ٣٩ .

والهند والصين[1]. وقد شاهد ناصر خسرو في القاهرة سنة ٤١٥ معلمين مهرة ينحتون بلوراً غاية في الجمال يحضرونه من المغرب[2]. على أن علاقة الفاطميين التجارية بالجزائر الحمادية، لم تنقطع، بل إنها ازدهرت على حساب أبناء عمومتهم الزيريين، نتيجة توطيدهم علاقتهم مع الفاطميين، وإبقائهم على العملة تابعة لهم إلى آخر عهد يحيى، آخر أمرائهم، على عكس الزيريين الذين ضربوا العملة باسمهم وحرم الفاطميون تداول عملتهم، فكان هذا لحساب الحماديين في التجارة المغربية والمشرقية ـ كما ذكرنا من قبل.

وإذا كانت المواصلات البحرية بين الفاطميين والحماديين تكاد تكون مشهورة حيث تشتهر مجموعة من الموانئ كتنس ومرسى الخرز وبجاية وغيرها، وفي مصر الإسكندرية ورشيد[3]، فإن طرق المواصلات البرية التي تربط بين المغرب ومصر كانت موجودة ومعروفة كذلك، وهي تتلخص في أربعة طرق: الطريق الساحلي وهو أكثر أمناً وراحة للقوافل. وطريق جنوبي الطريق الساحلي يبدأ من الفسطاط، ويتجه غرباً إلى القيروان والسوس. وطريق يمر بالواحات الداخلية، ويتجه إلى السودان الغربي متجهاً إلى غانة ثم يعدل عنه إلى سجلماسة. وطريق من مصر إلى البهسا، ثم سجلماسة، وهو غير مطروق[4]. وفي الطريق الأول غالباً كانت تفد قوافل التجارة البرية أو قوافل الحجاج، كما أن سفن المغاربة كانت تفد إلى مصر تحمل الحجاج تارة، وتقدم أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند[5]، تارة أخرى. ولم يقف النشاط التجاري الحمادي عند بلدان المشرق، «فقد عقدت الدول البحرية الأوربية مع حكام بجاية الحمادية معاهدات تجارية وقنصلية دقيقة»[6]. وقد كانت إيطاليا ـ بمدنها المختلفة ـ أبرز الدول الأوربية

---

(١) ملحق نخب الذخائر ٨٨.
(٢) سفرنامة ٦٠.
(٣) انظر حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، دكتور راشد البراوي ٢٩٤.
(٤) انظر حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ٢٩٥.
(٥) تاريخ الإسلام السياسي، دكتور حسن إبراهيم ج ٤ ص ٤٠٩.
(٦) انظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٩٢/١، وكتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني ١٨٤.

البحرية التي أقام الحماديون معها علاقات تجارية واسعة النطاق[1]

وهكذا استمرّ رقي الدولة الحمادية الاقتصادي ، ولم يبدأ اقتصاد الدولة في الاضمحلال إلا منذ بدأ الصدام يبرز واضحاً بين الحماديين والنورمان ، ففرض النورمان المسيطرون على البحر الأبيض المتوسط حصارهم على الحماديين ، كما فرضوه ــ من قبل ــ على معظم التجارة الإسلامية البحرية .

(١) القوى البحرية والتجارية لأرشيبا لدلويس ٣٨٦

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

١ – الطبقات والأجناس

٢ – العادات الاجتماعية (العادات والتقاليد ـ الملاهي ـ المرأة)

١ - الطبقات والأجناس :

كان المجتمع الحمادي مجتمعاً مفتوحاً ، يهضم في جسمه نماذج مختلفة الجنس والفكر ، وبصرف النظر عن أن هذه الحقيقة تكاد تكون سمة عامة في المجتمعات الإسلامية في هذه القرون ، فإنها كانت سمة بارزة ، على نحو خاص ، بالنسبة للدولة الحمادية ، فطبيعة سياستها ، وموقعها في المغرب العربي والملمات التي ألمت بالمغرب والأندلس في القرنين الخامس والسادس للهجرة ، كل هذا ساعد على أن يكون المجتمع الحمادي مفتوحاً على نحو بارز .

والذي لا شك فيه أن صنهاجة ـ لا سيما صنهاجة الحمادية ـ كانت تقف في قمة الهرم الاجتماعي في الدولة ، وإذا علمنا أن صنهاجة إنما تشكل شعباً كبيراً ، وليست مجرد جماعة حاكمة ، لتأكد لدينا أن هذه الميزة تنحصر في الطائفة الحاكمة ؛ إذ من الصعب تحويل طبقة كبيرة كصنهاجة إلى طبقة ممتازة ، وإن كان من الطبيعي أن تكون كثير من المراكز ذات الأهمية بأيديهم ، نتيجة انتمائهم الأكثر ولاء للدولة التي تحمل اسمهم وتدافع عن سيطرتهم على هذه البقعة من الأرض .

إننا نستطيع القول بأن صنهاجة الحمادية ، كانت تحتل المكان الذي تحتله بعض الأسر الكبيرة التي مارست الحكم ، كالأمويين ، والعباسيين ، والمرابطين . وإذا كان من الطبيعي أن يكون من هذه الأسر من يمارسون أعمالاً يمارسها كثير من طبقات الشعب ، فالذي لا شك فيه أن شعوراً بالفوقية يسود هذه الأسر ، يدعمه النفوذ السياسي والاجتماعي الذي تتمتع به .

على أن طبقات مختلفة من القبائل البربرية المتعددة كانت تعيش في حماية الدولة الحمادية .

وفي ظل النظام الذي تمتعت به الدولة ، أخذت هذه الطبقات تتعارف

وتمتزج على تنوع أجناسها من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب ... فاختلطت صنهاجة بكتامة وكتامة بزناتة [1] . وفي غير موضع يحدثنا صاحب الاستبصار عن وجود عديد من القبائل البربرية تعيش في المدن الحمادية الكبرى مثل عجيسة وهوازة وبني ترزال في المسيلة[2] وقبائل بربرية أخرى كثيرة في جيجل[3]. ولعل هذا الاختلاط كان بتأثير القضاء النسبي على الصراع القبائلي في ظل قيام دولة المرابطين الجامعة ، وبتأثير زحف القبائل العربية ، الذي جعل البربر يشعرون بخطر جماعي ، وبالتالي خفَّت على المستوى الشعبي حدة الشعور القبلي .

ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وهناك عنصر بدأ يأخذ مكانه بطريقة أكثر وضوحاً ورسوخاً في المجتمع الحمادي ، وهو العنصر العربي ممثلاً في قبائل بني هلال[4] التي كان لها النصيب الأكبر في أرض الدولة الحمادية ، وكان لهذا الزحف العربي أثره الكبير على الحياة الاجتماعية للعنصرين البربري والعربي ، وإذا كان من أهم النتائج التي أسفرت عنها الحملة الهلالية على الجزائر تغيير اللسان البربري ، حيث أثرت لغة التخاطب العربية لقبائل بني هلال في اللسان البربري الذي كان من قبل طاغياً على اللسان العربي في الأرياف والمدن[5]. إذا كان هذا ، فمن البديهي أن هذا التأثير الحضاري لم يكن ليتم إلا بالاحتكاك والاختلاط بكل الوسائل المعروفة ، بحيث أننا نستطيع القول بأن العنصر العربي الممثل في القبائل الهلالية يشكل منذ دخوله الجزائر طبقة متميزة من طبقات المجتمع الحمادي لها شخصيتها الثقافية والاجتماعية المتميزة من لغة وعادات وفكر ،

---

(١) موجز التاريخ العام للجزائر ، الكعاك ٢٨٦ .

(٢) الاستبصار ١٧٢ .

(٣) الاستبصار ١٢٨ .

(٤) بنو هلال ثلاثة فروع أصلية : نهيك ، عبد مناف ، ربيعة ، ومن نهيك أبو ربيعة ، وعبد الله ، ومن أبو ربيعة (الإثبج ورياح وزغبة) وهي القبائل التي استوطنت الجزائر الحمادية ، راجع (الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ص ٧٥) ، دكتور عبد الحميد يونس .

(٥) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٨٠ ، والإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، د. حسن محمود ج ١ ص ١٧٤ .

ويعتبر دخول هؤلاء الهلاليين ـ في الحقيقة ـ فتحاً اجتماعياً جنسياً[1]، نجح أصحابه في فرض عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم على البربر بعد بضعة أجيال[2].

وفي المجتمع الحمادي كانت هناك طوائف أخرى لاجئة إليه لجوء الاستقرار والاندماج ، فعندما ضعف سلطان المسلمين في الأندلس وصقلية ومالطة وغيرهما من الأماكن التي تعرضت لعمليات إبادة وإزعاج من جانب الزحف الصليبي كان الحماديون هم الملجأ الذي يأوي إليه هؤلاء[3] ، وقد استقر الأندلسيون بالسواحل ـ بخاصة ـ كما رأينا في المعتصم بن صمادح ، حين اختار « تنس » مقراً لإقامته ، فإن تنس في الحقيقة كانت مقراً لكثير من النازحين الأندلسيين ، ولهم بها صلة كبيرة[4]. ولم تخل بجاية من العنصر الأسباني ، بل إنه احتل فيها مكانة مرموقة إلى جانب البربر البيجاويين[5]، لا سيما أهل ميورقة ، ممن وترت دنياه وأخراه[6] .

وفي حقبة أخرى من هذا العصر الذي نؤرخ له تفشت ظاهرة الرقيق بتأثير القرصنة التي تبادلها المسلمون والمسيحيون ، ونتيجة الحروب الكثيرة القائمة بين الإسلام والنصرانية « وكان العرب يصفون جميع الرقيق الجرماني والصقلي والسلافي بلفظة صقلي ، وربما جاءت هذه اللفظة من كلمة – اسكلاف – بمعنى عبد »[7].
ولا شك أن طوائف كثيرة من طوائف الروم والزنوج ، وغيرها من الطوائف

---

(١) موجز التاريخ العام للجزائر ٢٨٦ .
(٢) انظر : حضارة العرب ٣١٧ ، وقد ذكر لوبون أن العرب نجحوا في فرض دينهم أيضاً . ولا شك أن ذلك لا وجود له ، فالإسلام دخل هذه البلاد قبل ذلك بأربعة قرون ، فضلاً عن أن « أسلوب الفرض » لا معنى له .
(٣) انظر موجز التاريخ العام للجزائر ٢٨٨ .
(٤) انظر كتاب الجغرافيا للمغربي ص ١٤٢ .
(٥) Les Poteries et faiences de Bougie — Georges Marçais, P: 3.
(٦) انظر الاستبصار ص ١٣٠ .
(٧) تاريخ غزوات العرب ص ٢١١ .

التي أطلق عليها هذا المصطلح ، قد عاشوا في المجتمع الحمادي واستقروا فيه كعبيد أو أجراء[1].

وبالإضافة إلى هؤلاء الصقالية كانت هناك جالية مسيحية ، يبدو أنها ذات امتداد تاريخي في المغرب ، وتحرص المراجع المسيحية على تعميق أصالة هذه الجالية ونعتها بالبربرية ، ونسبة كثير من الأعمال إليها ، فهم يذهبون إلى أن الأمراء الحماديين « استقبلوا في فترة من المحتمل أن تكون متوافقة مع إنشاء القلعة جالية كبيرة العدد من المسيحيين البربر الذين جاءوا يعمرون عاصمتهم الجديدة والذين ظلوا يقطنونها وقتاً طويلاً بعدَ إنشاء بجاية »[2].

ومن المؤكد أن ثمة طائفة مسيحية كانت « تعامل معاملة كريمة »[3]، عاشت في رحاب الدولة الحمادية ، بدليل بناء كنيسة العذراء ، التي وردت في غير موضع[4] بطريقة توحي بصدق الرواية . إذ لا يعقل بناء كنيسة دون وجود من يؤمها ، لكننا نشك في التأثير الحضاري الذي حاول الكتاب الغربيون رسمه بطريقة مكبرة ، لدرجة أن « ماس لاتري » يزعم بأن الفاعلين الأول للقلعة ، إنما هم مسيحيون ، وبأن مهندساً يدعى « بونياش » هو الذي قام بإنشاء جزء من استحكامات القلعة ، بل نراه يذهب إلى القول بأنه « خلال العصر الوسيط الإسلامي كله كان حكام الشرق يستعينون في كل الأحوال تقريباً بالمهندسين المسيحيين لوضع التصميمات لاستحكامات منشآتهم الحربية »[5].

إن هذا القول في رأينا ـ نوع من المبالغة والمغالطة ـ في هذا العصر الذي

---

(١) المغرب العربي ، رابح بونار ٢١٥ .

(٢) (نقلا من ماس لاتري) La Kalaa Des Beni Hammad — De Beylie, P: 20.
وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 2, P: 679.

(٣) Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 2. P: 679.

(٤) Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 2, P: 679.
Le passé de L'Afrique du Nord, les siècles Obscures — F. Gautier, P: 372.

(٥) نقلا عن : La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 20,21.

يسميه « لاتري » العصر الوسيط الإسلامي ـ وهي تسمية خاطئة ـ بالنسبة لدورة الحضارة الإسلامية ـ كان العكس هو الصحيح ، فإن الحواضر والجامعات الإسلاميـة كانت هي مركـز الأستاذيـة للمسلمين ، وكـانت المصـدر في كل الفنون والعلوم تقريباً لأوربا النصرانية ، وكانت القاهرة وبجاية وقرطبة وبغداد وبلرم على رأس هذه الحواضر ، وستثبت دور بجاية فيما بعد . وقد أثبت الالتحام ـ بين المسيحيين والمسلمين ـ الذي تم في القرنين السادس والسابع للهجرة مدى عمق التخلف بين علماء وأطباء صلاح الدين الأيوبي وبين الأخيرين من المسيحيين .

وعلى أية حال ، فلا شك أن هناك جاليةً مسيحية عاشت في ظلال الحماديين تأثرت بالمجتمع الحمادي ، وكذلك أثرت فيه بقدر ما تأخذ الأقلية من المجتمع ، وبقدر ما تستطيع أن تعطي .

٢ – العادات الاجتماعية :

لقد عاشت هذه الطوائف ـ وربما غيرها ـ حياة مستقرة حافلة بالعطاء العمراني والحضاري ، وقد نجح الحماديون في فتح كل النوافذ دون أن يفقدوا أنفسهم ، وأرسوا سياسة التسامح والحرية أساساً يقوم عليه البناء الاجتماعي كله . ولا شك أنه بدون هذه السياسة ما كان يمكن أن تسير حياة مجتمع يضم بين جوانبه كل هذه العناصر ، بكل ما تضمه بين جوانبها من مطامح وتيارات .

ويلخص « بروفنسال » هذه السياسة التي قام عليها البناء الداخلي للمجتمع الحمـادي حين يتحدث عن بجاية في هذا العصر ، فيرى أنها كان « يسودها قدر من الحرية في العادات ، دون أن تبلغ مبلغ الأمر الجائز المصرح به »[1]. وربما كانت أخبار المهدي بن تومرت ـ على الرغم من بعض مبالغات البيذق وابن القطان أهم مصدر يطلعنا على الحالة الاجتماعية القائمة على الحرية ـ التي

---

(١) الإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال ص ٢٧٠ ولعله يقصد بحرية العادات إمكانية التحلل منها وإن كان التعبير أدبياً أكثر منه علمياً .

اقتربت من الفوضى في بعض الأحايين – فعندما دخل ابن تومرت بجاية سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) – «لقي بها الصبيان في زي النساء بالضفائر والأضراس والزينة وطواقي الخزّ وألفى الأرذال قد فتنوا بذلك وأنهكوا ... ثم حضر عيداً فرأى من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكحلين ما لا يحل»[١].

وعندما حاول ابن تومرت تغيير هذا المنكر، وتسبب في إحداث هرج استطال فيه الشر، وسلبت النساء حليها، سأل العزيز عن سبب ذلك فعلم أنه بسبب الفقيه السوسي «ابن تومرت»، فلم يفعل سوى أن أمر بجمع الطلبة لمناظرته. واجتمعوا به في دار أحدهم بعد أن احتفلوا في إعداد المطاعم والمشارب، وناظرهم المهدي ـ الذي كان قد رفض الذهاب إليهم أول الأمر ـ فغلبهم[٢].

ولئن كانت هذه الحالة التي وردت عن البيذق وابن القطان دالة بوضوح على نوع من الحرية الاجتماعية التي يتمتع بها المجتمع الحمادي، فإنها تدلنا كذلك على نوع الحرية التي تمتعت بها المرأة، فقد كانت تختلط بالرجال، وتسفر عن وجهها، بل إن بعض الرجال يتشبهون بها، فيلبسون الأقراط الزرارية ولباس الفتوحات[٣]. وقد ظهرت بتأثير هذه الحرية القريبة من الفوضى ـ لا سيما في النصف الأخير من عمر الدولة ـ كثير من المنكرات الصريحة كالخمور[٤] والتبذل الجنسي[٥].

وفي مجتمع الحماديين تمتعت طائفة الفقهاء بمكانة اجتماعية طيبة، بيد أن هذه المكانة لم تصل إلى المكانة التي تمتع بها الفقهاء في مجتمع المرابطين المجاور للدولة. ولقد كانت المدن الحمادية زاخرة بالمناسبات والأعياد ذات الصبغة الدينية[٦]، كما أن الإيمان بالأولياء كان ظاهرة منتشرة لا سيما في بجاية التي

---

(١) أخبار المهدي بن تومرت ٥٢، نظم الجمان ٤١، ٤٢، والدر المكنون ١٩٩.
(٢) نظم الجمان ٤١.
(٣) أخبار المهدي ٥٢.
(٤) انظر أخبار المهدي ٥٣.
(٥) انظر نظم الجمان ١٦٠، ١٦١.
(٦) انظر كتالوج بجاية ص ٤٢.

أطلق عليها زماناً طويلاً « مكة الصغيرة » لكثرة الأولياء بها[1]، ويقال إن عدد الأولياء ببجاية مائة إلا واحداً[2].

لقد كانت التجارة إحدى الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ، فثمة أسواق داخلية في المدن ، وهناك أسواق كبرى في المدن الرئيسية كبجاية وقسنطينة ، وبونة ، ومما لا شك فيه أن طبقة التجار كانت إحدى الطوائف التي تكون منها هذا المجتمع . والحركة التجارية الواسعة التي تدلنا عليها الحياة الاقتصادية دليل على مكانة جيدة لهذه الطبقة .

وإلى جانب هذه الطوائف وجدت طوائف مذهبية متداخلة معها .. فمن سُنة مالكية وأحناف إلى شيعة ـ كبعض كتامة ـ إلى مسيحيين ، إلى خارجين أباضية ، إلى يهود[3].

إن التسامح في المجتمع الحمادي لم يكن دينياً وحسب بحيث يسمح لأبناء الطوائف المذهبية بالحياة في أمن . ولم يكن هذا التسامح يسمح بالحياة لكل الأجناس المختلفة الأصل والانتماء فحسب بل كان يسمح كذلك بالتجاوز في الاستعمالات والتقاليد[4]، باعتبار بجاية مدينة متوسطية « بحر أبيض » تتفاعل مع كثير من العادات والتقاليد المحيطة بها .

ولا شك أن أعياد الحماديين كانت الأيام التي تحمل أكثر من غيرها صوراً متعددة من التحلل والخروج عن المألوف . ويبدو أن الاحتفالات في الأعياد ، أو في المعارض ، أو غير ذلك ـ كانت تحظى من الحماديين بفائق عناية ، ويدلنا على ذلك أن قصر « أميمون » في بجاية كان يضم قاعة تستغل في مثل هذه الاحتفالات . ويرجح أن الأمراء الحماديين كانوا يفتتحون الاحتفالات الشعبية

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦ .
(٢) المكان السابق نفسه .
(٣) تاريخ الجزائر للهلالي ٢١٨/٢ وتاريخ الجزائر العام ٣٨٣/١ .
(٤) كتالوج بجاية ص ٥٨ .

والمعارض التي يغلب عليها التبادل التجاري[1]. ويرجع عثمان الكعاك هذه المظاهر إلى « هجرة الأندلسيين والصقليين إلى الجزائر ، واستقرارهم بالسواحل ، وحملهم معهم عناصر المدنية ، كالصنائع الرقيقة وأسباب الرخاء في العيش والميل إلى الترف والظواهر المزخرفة ، فأخذ البربر بها عملاً بناموس الانقياد والتقليد »[2].

وربما كان للمرابطين أبناء عمومتهم ، تأثير كبير في نشر هذه العادات ، فمن المعروف أن المرأة المرابطية ـ لا سيما بعد مرحلة يوسف بن تاشفين ـ قد ظهرت في المجتمع المرابطي تشارك في الحياة العامة ، وتتمتع بحرية ومساواة لم تكن مألوفة في ذلك العصر[3].

والذي لا شك فيه أن العادات البربرية عموماً كانت ذات تأثير كبير في المجتمع الحمادي ، وذلك كالمغالاة في المهور والأثاث ، كما رأينا في زواج الناصر والمنصور والعزيز ، وكالمغالاة في المظاهر الخارجية ، فقد كان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبية يغالون في ثمنها ، فتصل العمامة منها إلى خمسمائة دينار أو ستمائة ، وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتي تيجانا ، ولهذه العمائم صناع متفرغون لذلك يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين أو أكثر[4]. ومنها المغالاة في الكرم وحب الفقراء ، وتعظيم العلماء ، وحب الأولياء والإيمان بخوارقهم[5]، وقد كان في بجاية الحمادية عدد لا بأس به من الأولياء الصالحين والمتكلمين حتى عرفت باسم « مكة الصغيرة »[6].

لقد نجح الحماديون في أن يوفروا الأمن والهدوء لمجتمعهم ، وجنبوه كثيراً من المشاكل التي أودى بعضها بقبائل قريبة لهم ، واستطاعوا أن يوازنوا بين كل

---

(١) انظر كتالوج بجاية ٤٠ ، ٤٢ ، وانظر : الإسلام في المغرب والأندلس ٨٧ .

(٢) موجز التاريخ العام للجزائر ٢٨٨ .

(٣) قيام دولة المرابطين ٤١٥ .

(٤) الاستبصار ١٢٩ .

(٥) انظر موجز التاريخ العام للكعاك ٢٨٨ .

(٦) Le passé de L'Afrique du Nord (Les Siècles Obscures) F. Gautier, P: 374.

العناصر ، وأن يحتفظوا بهذا التوازن إلى آخر أيامهم ، فأصبح المجتمع الحمادي - في فترة تاريخية إسلامية قلقة ملأى بالأحداث - من أكثر المجتمعات رفاهية وعلماً ورخاء وأمناً[1] .

(١) هذه هي الجزائر للمدني ص ٥٩ .

الفصل الرّابع

الحيــاة الثقـافيّـة

١ – التكوين الثقافي للدولة
٢ – الحالة التعليمية
٣ – العقائد والمذاهب
٤ – العلوم النقلية
٥ – العلوم العقلية
٦ – أثر الحضارة الحمادية

١ - التكوين الثقافي للدولة :

كانت الدولة الحمادية مملكة بربرية ، بل هي أول دولة بربرية مستقلة بالجزائر الإسلامية .

ومن البديهي أن العنصر البربري بكل خلفيته الثقافية يمثل واحداً من أبرز المكونات الثقافية للدولة .

على أنه لا يمكن - مع وجود هذا العنصر - إهمال الخلفيات الثقافية العربية التي استقرت في المغرب كله ، منذ الفتح العربي ، وعلى امتداد الدولتين اللتين حكمتا الجزائر قبل العنصر البربري الصنهاجي : دولة بني رستم في تيهارت ودولة الفاطميين في المهدية[1] .

بالإضافة إلى الجهد الذي بذله البربر أنفسهم في تعلم العربية وعلوم الدين ، حتى إن القرن الرابع الهجري ، لم يكد يبزغ ، حتى صار كثير من البرابرة يزاحمون العرب في لغة الضاد ، وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب في قواعد الأصول وتفاريع الفقه ومبادئ علم الكلام[2] .

لقد كان الطابع العربي قد بدأ يغلب على الثقافة منذ مطلع القرن الرابع الهجري وقد ساعد على ذلك أن الثقافة العربية جزء من الإسلام الذي هو عقيدة الأمة ، وأن تاريخ الأمة منذ أربعة قرون هو تاريخ هذه الثقافة ، وأن المغرب محاط من كل جوانبه بثقافات عربية ، إنْ في الأندلس ، وإنْ في المشرق ، مما يجعلنا نطمئن إلى أن الثقافة العربية الإسلامية هي الثقافة الأمّ في الدولة الحمادية وهي مناط عناية الدولة واتجاهها الرسمي .

---

(١) انظر كتاب الجزائر للمدني ٧٨ ، ٦٩ ، المغرب العربي ، بونار ٢١٦ .

(٢) تاريخ الحضارة المغربية : عبد العزيز بن عبد الله ج ٢ ص ٢٢ .

ولقد حظيت العربية باحترام البربر ـ على وجه العموم ـ واعتبروها لسان الأدب والعلم ، وعنوان الثقافة ، فانبلج ـ في العصر الحمادي ـ عهد جديد « أصبحت به اللغة العربية ربة المنزل وصاحبة الأمر والنهي على القرائح والعقول »[1].

وعند منتصف القرن الخامس الهجري حدث ما هو معروف من زحف القبائل العربية على المغرب ، ومهما يكن من الآثار السلبية التي خلفتها هذه القبائل في الحياة السياسية والاقتصادية للمغرب العربي ـ فضلاً عن الأثر الثقافي السيئ الذي تركته هذه الحملة بالنسبة للزيريين ، فإنها لم تنجح في أن تحدث آثارها تلك في الجزائر الحمادية ، بل إنها ـ إلى حد كبير ـ كانت أكبر عامل في تعريب الثقافة الجزائرية والمغربية ، فقد « أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال في اللسان البربري الذي كان طاغياً على اللسان العربي في الأرياف والمدن أيضاً ، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاحتكاك »[2] ، وعمل الحماديون من جانبهم على نشر العربية وعلى تعليم القبائل[3].

وقد بدأ بهذا دور جديد في الآداب الجزائرية يسميه الكعاك « الدور المدرسي » ، وهو دور وضع حجره الأساسيّ بنو حماد في القرن الخامس ، حين بذلوا جهوداً ضخمة في سبيل تعريب البلاد والسير في خطى واسعة فيها معتمدين على وجود العربية السابق[4] ، وقد ظل هذا الاتجاه يختمر في القرن السادس ، وهو يمتاز بإتيانه كآخر الأدوار المدرسية الأخرى ، ولذا فقد جاء خلاصة للأدب العربي وزبدة للعقول[5]. ويبدو أنه بعد هذا الدور بدأت الجزائر تدخل في عداد الدول المعربة فعلاً ، والتي لا تتعامل مع الثقافة العربية كثقافة تعليم ، بل ثقافة حياة ومعايشة[6].

---

(١) بلاغة العرب في الجزائر : الكعاك ٢٩ .

(٢) المغرب العربي ، رابح بونار ص ٢٨٣ ، وانظر تاريخ الحضارة المغربية ص ٢٢ .

(٣) كتاب الجزائر : المدني ٢٧ .

(٤) موجز التاريخ العام للجزائر ٢٨٠ .

(٥) بلاغة العرب ٢٩ ، وانظر كتاب الجزائر للمدني ٧٩ .

(٦) يرى بروكلمان ود. حسن محمود أن الهلاليين قضوا على الحركة الثقافية في بلاد المغرب =

ومن عناصر التكوين الثقافي التي لا يمكن تجاهلها في هذا الطور زحف مذهب مالك بدءاً من مدرسة القيروان ، وانتشاراً في القسم الغربي للعالم الإسلامي كله ، بما فيه الأندلس ، وعبوره إلى غرب إفريقية حيث لا يزال المذهب الغالب في هذه البلاد[1].

كما أنَّ احتكاك الجزائر بالأندلس وإفريقية وهجرة بعض الأندلسيين والأفارقة والصقليين وغيرهم إليها ، وإعانتهم للحركة الثقافية فيها بما حملوه من علوم وآداب[2]، كل هذه العناصر قد كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية الحمادية ، وساعدت على إبرازها في صورة خاصة ، كما ساعدت على رقيها وازدهارها .

وقد انتشرت في هذا العصر ظاهرة التنافس الثقافي ، وكان السباق قائماً بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس ، وبين عواصمها المختلفة : المهدية وبجاية ومراكش وفاس وسبتة وبلرم وبغداد والقاهرة[3]، وبرزت كل مدينة بلون من العلوم غلب عليها واشتهرت به ، فالمهدية عاصمة البحوث الكيماوية ، وصقلية عاصمة نقل العلوم العربية إلى اللاتينية ، وبجاية عاصمة الرياضيات ، ومنها أخذ الأوربيون الأرقام العربية والجبر والمقابلة وهندسة أوقليدس[4].

وساعد على نجاح هذا التنافس بالنسبة للحماديين رعايتهم وتشجيعهم للعلماء والمفكرين ، فقد كانوا يؤثرون العلماء على سائر الطبقات ، ويقدمونهم في الدولة ويجودون عليهم بالعطاء جوداً حاتمياً[5]. وكان الناصر بن علناس أطول الملوك

= (انحلال الإمبراطورية الإسلامية ١٨٥/٢) ، (الإسلام والثقافة العربية في إفريقية جـ ١ ص ١٧٤) وربما كانا يعنيان ما أصاب دولة بني زيري بعد خراب القيروان ، لكن بالنسبة للحماديين كانت هذه بداية فترة رقي الدولة في كل أبعاد الحياة فيها .

(١) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ١٦٨/١ .

(٢) المغرب العربي ٢٨٣ ، بونار ، وكتاب الجزائر للمدني ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) مراكز الثقافة للكعاك ١٦ .

(٤) مراكز الثقافة للكعاك ١٦ .

(٥) انظر بلاغة العرب ٢٦ .

الحماديين باعاً في هذا المضمار ، فقد كان يؤمه الأدباء ويقصده الشعراء ، فيغدق صلاته عليهم[1]. وكان الأمير المنصور يكتب ويشعر[2]، ويشجع الأدباء والشعراء، وكان يحيى فصيح اللسان والقلم مليح العبارة[3].

وكانت حركة الانتقال المتاحة بين العواصم الإسلامية ، والتي غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية ، من أبرز العوامل في إذكاء روح النشاط الثقافي ، وهي ظاهرة عامة في العالم الإسلامي كله في هذه العصور بدرجاتٍ متفاوتة ، ولربما كانت في عالمي الأندلس والمغرب على نحو يفوق المشرق ، لشعور المشارقة بأنهم الأصل الذي يسعى إليه ، وأيضاً لشعور المغاربة بمكانة المشارقة أهل الرسالة والرسول ـ عليه الصلاة والسلام .

لقد كانت حدود الأقاليم غير ذات موضوع ، وهي لم تمثل حاجزاً أو فاصلاً بين الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء[4]، بل كانت الأفكار في العالم الإسلامي متصلة[5]، تعكس تقارباً ثقافياً يعتبر خصيصة كبرى من خصائص الحضارة الإسلامية في عصور الازدهار .

وفي الموسوعات العلمية لهذه القرون تأكيد واضح لبروز هذه الظاهرة ودورها الإيجابي في خلق وحدة فكرية في العالم الإسلامي كله ، فابن بسام يفرد القسم الرابع من مجلد الذخيرة الأول لمن هاجر إلى الجزيرة « الأندلس » من الآفاق ، وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق ، ويشتمل هذا القسم على تراجم لهؤلاء الرحالة الشعراء في القرن الخامس الهجري ، وحتى وفاة ابن بسام سنة ٥٤٢ هـ (قريباً من سقوط الحماديين) .

والمقري صاحب نفح الطيب يورد لنا نحواً من مائتين وخمسين ترجمة لمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق من العلماء والأدباء والفقهاء ، وقريباً من خمس

---

(١) انظر أعمال الأعلام ٩٦/٣ ، كتالوج بجاية ٥٨ ، والمغرب العربي لبونار ٢٨٢ .
(٢) أعمال الأعلام ٩٧/٣ .
(٣) أعمال الأعلام ٩٩/٣ .
(٤) العربية : يوهان فك ١٦٨ .
(٥) بلاغة العرب للكعاك ٣١ .

وسبعين ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الأندلس . وفي كتاب الصلة لأبي القاسم خلف بـه عبد الملك الشهير بـابن بشكـوال المتـوفى سنة ٥٧٨ ، نلحـظ نفس الظاهرة ، فأكثرية المترجم لهم رحلوا إلى المشرق ، وكثير من المشارقة زاروا الأندلس ، كان يلحقهم ابن بشكوال بأعلامه تحت اسم « الغرباء » .

وفي التكملة لابن الأبار ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للصفدي ، وفي جذوة المقتبس للحميدي ، وفي غيرها من المصادر ، نستطيع التأكد من هذه الظاهرة على نحو واضح .

ويذكر ناصر خسرو أنه رأى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) وهو بمصر بعثة للبحث عن الآثار الفرعونية (جماعات من المطالبين) قادته من المغرب والشام[١]. كما أن المشاهير كانوا يتبوأون مركزهم على امتداد العالم الإسلامي كله ، وناصر خسرو يذكر لنا أن أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأن أبا العلاء المعري أديب عصرهم بلا منازع[٢]. وحين يورد لنا المقري حياة الأزدي الحميدي صاحب جذوة المقتبس ـ المذكور آنفاً ـ يخيل إلينا أننا أمام مواطن عالمي ، فقد عاش وطلب العلم في كل من الأندلس ومصر ودمشق ومكة وواسط وبغداد وغيرها[٣] .

وقد أكّد « جوتيه » ما أبرزه « بيليه » في حفرياته سنة ١٩٠٨ م من وجود الطابع الشرقي العراقي في الهندسة المعمارية الحمادية ، والطابع الفارسي في زخرفة الأواني ، فهذه العناصر الفنية الشرقية التي أبرزتها حفريات « بيليه » ، لم تظهر من قبل في المغرب ، ولم تشاهد إلا فيما بين النهرين (دجلة والفرات) وفي بلاد فارس ، وقد تلقتها بجاية ، ثم نقلتها بدورها إلى الآثار الإسلامية المعاصرة في صقلية[٤] .

---

(١) سفرنامة ٦٩ .
(٢) سفرنامة ١١ .
(٣) نفح الطيب ٣١٤/٢ .
(٤) كتالوج بجاية ٢٦ .

ونفس الشيء في أدب بجاية الحمادية ، يتحدث عنه « جوتيه » ، و « بيليه » على أنه أدب وافد من الشرق أو من أسبانيا[1]. فنحن أمام ظاهرة يمكن أن نسميها بالوحدة الحضارية على الرغم من التفكك السياسي ...

لقد كان ثمة اتجاهان متغايران ... اتجاه الحضارة الذي يصنعه العلماء الذين يعيشون فوق أرض الحضارة الإسلامية كلها ، واتجاه السياسة الذي يتجه إلى التمزق والتناطح .

وأمام هذا العرض الذي جعل من هذه الخصيصة سمة عامة من سمات الثقافة الإسلامية في هذه العصور ، تبدو المبالغة في استنتاج بعض الدارسين المعاصرين أن الأدب المغربي أدب طارئ لا يمثل حياة الأمة ، وإنما هو عدة آداب لدول وطوائف حملها إلى المغرب من وفد عليه من أهل العلم والأدب[2]. وهو استنتاج نرجح أنه اعتمد فيه على رأي ابن خلدون في أدب المغاربة[3].

ولا شك عندنا في أن أدباء المغرب كالأندلسيين والمشارقة ـ مع وجود تفاوت ـ التحموا بالآخرين في العالم الإسلامي ، وتأثروا وأثروا ، وقد نبغ منهم كثيرون سنتعرض لهم عند حديثنا عن نواحي الفكر بالتفصيل ، وهم في هذه الحقبة منتشرون كغيرهم ، وكثير منهم مغاربة الأصل ، ولست أميل إلى إطلاق مثل هذه الأحكام العامة ـ على أمة من الأمم .

وأياً كان الأمر فهذا الانفتاح ، وهذه الرحلات الممتدة عبر العالم الإسلامي ، هي رافد خصب من روافد تكوين الثقافة الحمادية .

٢ - الحالة التعليمية :

تتجلى لنا القلعة في الدور الأول من أدوار الدولة ، وبجاية في الدور الثاني ـ والأخير ـ من أدوارها . تتجلى لنا كل من هاتين العاصمتين معقل العلوم ومصدر النهضة العلمية ، بإشعاعاتها المتنوعة .

---

(١) Le passé de L'Afrique du Nord, Les Siècles Obscures, F. Gautier, P: 374.

(٢) ابن حمديس الصقلي ٣١٣ ، رسالة ماجستير بدار العلوم للدكتور سعد شلبي .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ٨٦١/٣ ، ٩٨٨ ، المغرب العربي لبونار ص ٢٩٠ .

وقد اعتمدت هذه النهضة بالدرجة الأولى على الناحية التعليمية ، فعندما اختطّ حماد القلعة استكثر فيها من المساجد والفنادق .

وبديهي أن المسجد كان يلعب دوراً تعليمياً ، ولم يكن ثمة مسجد في مدينة خالياً من المدرسين[1] ، وقد عرف في المغرب العربي (المسيد) وهو ملحق كان يفرد للناحية التعليمية بالمسجد ، وقد تطور هذا المسيد في القرن الخامس الهجري فاستقل بنفسه عن المسجد ، وصار عالماً بذاته من حيث البناء والمقصد[2] ، وهذا التطور لم يمنع المسجد من أن يبقى محل تعليم ، إلا أنه ارتفع طبقة ، فصار بمثابة دار للتعليم الثانوي أو للتعليم العالي .

وإلى جانب المسيد والمسجد وجدت « الزاوية » ، وكانت الزوايا كثيرة جداً بالجزائر ، بين كبيرة وصغيرة ، وهي عبارة عن مجموعة من المباني الفاخرة الكثيرة يتوسطها ضريح الشيخ المؤسس ، وهو قبة كبيرة مفروشة بالزرابي مملوءة بالمباخر والمجامر والأعلام[3]

وكانت الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الابتدائي ، ويبدو أنها قريبة من عمل « المسيد » وإن كانت تتمتع بنوع من الملكية الخاصة ـ في تصورنا ـ .

وكانت القلعة عامرة بهذه الكتاتيب التي تعلم الصبيان[4] ، ومن معلميها البارزين « أبو حفص العديري »[5].

ويبدو أن ما عرف في بلدان المغرب باسم « الشريعة » كان يقوم أحياناً مقام الكتاب « خيمة مدرسية عند البدو »[6] إلى جانب كونه مصلى كبيراً تقام فيه الأعياد ، وربما صلوات الجمع ، ومن المحتمل أن « الشريعة » كانت محل تعليم البدوي في مقابل « المسيد » الذي كان محل تعليم الحضري ، وهي تنتقل

---

(١) كتاب الجزائر للمدني ص ٨١ ، وكتالوج بجاية ٥٨ .

(٢) مراكز الثقافة للكعاك ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) نفس المكان السابق .

(٤) كتاب الجزائر ص ٨١ للمدني .

(٥) انظر : ابن حمديس الصقلي « رسالة ماجستير بدار العلوم » ص ٢٢٢ .

(٦) الإسلام في المغرب والأندلس ٨٩ (حاشية) ، ليفي بروفنسال .

بانتقال الحي وفق ضرورات الانتجاع ، أو دواعي تزاحم القبائل ، ويتعلم فيها الأحداث من ذكور وإناث .

وفي المدن الكبرى ، ولا سيما بجاية ، كان يوجد لون من التعليم الجامعي ، وقد أنشأ الناصر في بجاية « معهد سيدي التواتي » الذي كان يحتوي على ثلاثة آلاف طالب ، وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية ، وخلال مؤتمر علمي ألقت تلميذة من هذه الجامعة محاضرةً دامت ثلاثة أيام حول بروج الشمس أمام مجموعة من العلماء الأجانب ... فقد كان مرخصاً للفتيات ، ليس فقط بالتعليم ، ولكن بتقديم أطروحات باسم الجامعة [1].

ولقد عرف علماء الجزائر يومئذ منزلة الاختصاص ، فكانوا يجتهدون في التخصص في العلوم والتبريز فيها [2]، كما عرفت المكتبات العامة ، وكان بجامع المنار بالقلعة مكتبة مليئة بالكتب المحمولة من أقطار المغرب ، والمنقولة عن تدريس أساتذة الجامع [3]. وخلال حكم العزيز كان يحاضر في جامعة سيدي التواني هذه علماء من أسبانيا ومن إفريقيا والشرق [4].

لقد ازدهرت الحياة التعليمية ازدهاراً كبيراً ، تدلنا عليه هذه المكانة العلمية التي احتلتها بجاية بحيث أصبحت كعبة الشعراء ومقصد طلاب العلم ، فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلي وأبو الفضل بن النحوي من العلماء ، وغيرهما ممن غصت بهم العاصمة الحمادية ، وقد برز الفقهاء والعلماء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم ــ ببجاية والقلعة وأشير وطبنة والزاب والمسيلة بروزاً لا عهد للجزائر به [5]. وقد اعتذر الغبريني صاحب « عنوان الدراية في علماء المائة السابعة ببجاية » بعد أن أورد مجموعة من علماء أواخر المائة السادسة بقوله :

---

(١) انظر كتالوج بجاية ٥٦ ، ٥٨ بإشراف د. بوريبة عميد كلية الآداب بالجزائر .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر العام ٣٨٤/١ .
(٣) كتالوج بجاية ٣١ .
(٤) كتالوج بجاية ٦٧ .
(٥) تاريخ الجزائر للميلي ٢١٧/٢ ، وانظر المغرب العربي لبونار ٢٦٤ .

« وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم جلال وكمال ، ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم » ، ويتابع الغبريني شهادته ، وقد مضى من قول الشيخ أبي علي المسيلي قوله : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتياً ما منهم من يعرفني ، وإذا كان المفتون تسعين ، فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركه ... لقد كان الناس على اجتهاد ، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يراد »(1). وقد أورد الغبريني ما ينيف على مائة وثلاثين ترجمة : ولا شك في تصورنا أن هذا الثراء الفكري الذي شهدته العاصمة الحمادية على عهد الموحدين كان يرتفع فوق الطوابق الحمادية القوية الأساس .

لقد حدد الأستاذ الكعاك العصر الذهبي لإيناع العلوم بالجزائر بأنه العصر الذي يبتدئ من أوائل القرن الخامس الهجري ، ويأخذ في التدلي منذ مطالع السنوات الأولى من القرن السابع(2)ـ وليس هذا العصر سوى الفترة المتألقة التي عاشتها الجزائر في حماية الدولة الحمادية .

٣ – العقائد والمذاهب :

كان المغربان الأدنى والأوسط ـ خلال فترة كبيرة من عمر الدولة الحمادية ـ يخضعان رسمياً للنفوذ الشيعي ، وكانت صنهاجة قد أصبحت خليفة للفاطميين في حكمهما ، بعد أن أسدت إليهم خدمات جليلة في سبيل تثبيت ملكهم ومذهبهم في المغرب .

لكن ، مع هذه العلاقة السياسية ، لم ينجح الفاطميون ، على الرغم من وسائلهم القوية والمتنوعة ، في أن يكسبوا عقول الناس وعواطفهم نحو التعاليم الشيعية ، وكان لذلك أثره في وجود انفصام بين الولاءين السياسي والمذهبي في الجزائر الحمادية ، ويترجم عن هذه الحقيقة « بروفنسال » حين يذكر أنه « منذ القرن التاسع انتهى الأمر بالمغرب الإسلامي كله ، ويشمل شمالي إفريقية والأندلس ،

---

(١) عنوان الدراية ص ٣٢ .

(٢) بلاغة العرب للكعاك ص ٥٧ .

إلى إيثار مذهب مالك بن أنس بعد محاولات قام بها الأحناف لنشر مذهبهم ، وأخرى قام بها الفاطميون ـ أصحاب النفوذ السياسي ـ لبثّ الدعوة الشيعية »[1].

وإذا صح تحديد « بروفنسال » بالقرن التاسع ، فهذا يعني أن الدعوة الشيعية لم تكن طيلة وجودها بالجزائر إلا ستاراً سياسياً استعانت به صنهاجة ضد خصومها في المغرب ... وهو الأمر الذي نميل إليه ونرجحه .

وعندما قطع حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية دعوة الفاطميين وأظهر السُّنَّة[2] ، لم يلق أية مقاومة في هذا الشأن ، بل إنه كان يتقرب بهذه القطيعة إلى نفوس الشعب الجزائري ، وقد سار القائد بن حماد الذي ولي الأمر بعد أبيه سنة ٤١٩ هـ على نفس النهج الذي اختطَّه أبوه في الخروج على طاعة الفاطميين[3]، وقد سار الحماديون بعامة على نفس الطريق ـ وتبعهم الزيريون[4]ـ فلم يهتموا يوماً بالمذهب الشيعي ، وإن استغلوه سياسياً ، وأما على المستوى الفكري الشعبي ، فكان المذهب المالكي هو المذهب السائد لدى المغاربة ، بل إنه كان بالنسبة إلى كثير منهم أكثر من مذهب « كان مذهباً وعقيدة ووطنية »[5].

ومع ذلك فلا يوجد لدينا ما يقطع بأن الجزائر الحمادية ، كانت تخلو من بعض دعاة الشيعة ومعتنقي أفكارها والموالين للفاطميين ، بل هناك احتمال وجود هؤلاء يعيشون وسط المجتمع الحمادي ـ كبعض كتامة من سكان جبل بجاية[6]ـ الذين كان باستطاعتهم العيش في حرية أكثر من استطاعتهم العيش وسط الزيريين أو المرابطين ، نظراً للتسامح الذي عرف به الحماديون .

والأمر نفسه يقال بالنسبة للنحل الدينية الأخرى المسيحية واليهودية التي

---

(١) الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٤٩ .

(٢) التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي جـ ٤ ط ١ ص ١٩٧ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ .

(٣) المغرب الكبير جـ ٢ ص ٦٨٤ ، الدار القومية ١٩٦٦ .

(٤) البيان المغرب لابن عذاري جـ١ ص ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ .

(٥) قيام دولة المرابطين ٩٠ .

(٦) تاريخ الجزائر العام للجيلالي ١/٣٨٣ .

كانت موجودة في المجتمع ، يعيش أهلها حياتهم الدينية دون أية ضغوط خارجية[1]، بل يتمتعون بحماية الدولة ورعايتها ، كما ذكرنا من قبل .

٤ – العلوم النقلية :

اهتم الحماديون بعلوم الدين اهتماماً بارزاً ، ومع توطيد دعائم الدولة الحمادية نستطيع القول بأن المذهب المالكي كان يتصدر المذاهب بل والعقائد في المغرب العربي ، على المستوى الشعبي ــ على الأقل ــ ويلقى من المسئولين كل رعاية ظاهرة وخفية ، فأصبح هذا المذهب ــ بلا منازع ــ مجال نشاط « الفروع » في البلاد ، ومصدر الأحكام والتشريع .

ولقيت علوم القرآن والسنة من تفسير وقراءات وحديث وفقه وتصوف ، اهتمام الدولة والشعب ، وحفلت بها المجامع والمعاهد الدينية . وقد أسس الحماديون المساجد والزوايا ... فكانت المجال الخصب لازدهار هذه العلوم كلها ، ونجح العصر الحمادي في أن يقدم ــ في مجال العلوم الشرعية ــ عديداً من العلماء في سائر الفروع .

ومن الجدير بالانتباه أن انتصار المذهب المالكي قد أضفى لوناً من الثبات الفكري والعاطفي في الدولة[2]، وتحقق على المستوى العقائدي نوع من الوحدة لم يتوفر لبلدان المشرق المعاصرة التي كان الصراع قائماً فيها بين السنة والروافض .

وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع وفقاً لمدرسة الحديث التي كان إمامها « مالك » إمام أهل الحديث بالمدينة ، وكانت كتب المالكية الشهيرة كموطأ الإمام مالك ، والتلقين لعبد الوهاب البغدادي ، والواضحة لابن حبيب والعتيبة للعتبي[3]و « كالأسدية » التي جمعها أسد بن الفرات[4] أثناء تلمذته على « ابن القاسم » إمام المالكية بمصر ، و « المدوّنة »

---

(١) كتالوج بجاية ص ٥٦ .

(٢) انظر الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٤٩ وابن حمديس للدكتور سعد شلبي ص ١٦٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٠٢٢/٣ .

(٤) الحلة السيراء ٣٨١/٢ .

أو المختلطة التي جمعها في فقه المالكية أبو سعيد سنون بن سعيد[1]، ولقيت من المغاربة أكبر اهتمام ... كانت هذه الكتب المرجع الأصلي للفقه المالكي الذي تدور حوله سائر الاجتهادات .

ولم يقف المغاربة عند حد الاتباع « بل ظهر بينهم بإفريقية طائفة من أعلام الفقه مجتهدون في المذهب ألّفوا فيه وأوضحوا مسائله ، كابن أشرس ، والكتامي والبرادعي وغيرهم[2]، ومن هؤلاء من كان ينتقد مدونة سحنون »[3].

ومن الظواهر الجديرة بالذكر ـ كذلك ـ أن هذه العلوم التي تسمى بالعلوم النقلية ، كانت مختلطة باعتبارها علوم عقيدة ، ولذا فقد كان التخصص نادراً فيها ، وكان العلماء والفقهاء على دراية وعلم بأكثرها ، مع جواز أن يشتهر عالم بفرع أكثر من شهرته في الفروع الأخرى .

وبالإضافة إلى الثبات الفكري الذي أضفاه إلى حد كبير مذهب مالك ، فإن المغاربة لم يكونوا ميالين كثيراً إلى اللجج والجدال ، وبالتالي لم يحظ علم الكلام من اهتمامهم بالمكانة التي حظي بها في الشرق ، أو المكانة التي حظي بها علم الفروع أو القراءات أو التفسير . وكان جمهور مفسري المغرب يسيرون على المأثور عن النبي عليه السلام ، وصحابته ـ وفق اتجاه الإمام مالك ـ متجنبين طريق التأويل والعقل الذي التزمه المعتزلة والشيعة[4].

ولقد وجد في المدن الحمادية الكبرى كبجاية والقلعة والجزائر وتاهرت وبونة علماء أجلاء يقصدهم طالبو العلم من الأندلس ومن البلاد المغربية الأخرى . وكانت لبعضهم شهرة على امتداد العالم الإسلامي ، كما أن بعضاً من هؤلاء قد رحلوا إلى بلدان أخرى في العالم الإسلامي ، وكانت لهم شهرة بها .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ١٠٢٣/٣ ، وانظر قيام دولة المرابطين ٩١، ٩٢ .

(٢) الديباج المذهب لابن فرحون ، طبع مصر ١٣٥١ ص ١١٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) المغرب العربي لبونار ص ٢٦٨ .

(٤) الدولة الموحدية بالمغرب ص ٢٩٦ .

ومن أبرز هؤلاء العلماء المشهورين مروان بن علي الأسدي المعروف بالبوني ـ نسبة إلى مدينة بونة ـ التي استقر بها بعد رحلة طويلة في العالم الإسلامي ، وعقد بها مجالس علمه ، ووفد إليه طالبو العلم من سائر بلاد الأندلس والمغرب ، وقد حدث عنه أبو القاسم حاتم وأبو عمرو بن الحذاء ، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى والعفاف ، وقد ألف كتاباً في شرح الموطأ ، كما كان فذاً في الحديث أيضاً ، ومات في حدود سنة ٤٤٠ هـ[1].

ومن هؤلاء العلماء ، موسى بن حماد الصنهاجي الذي كان فقيهاً حافظاً من جلة القضاة ، وكان راوية لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي وغيره ، وقد توفي سنة ٥٣٥ بمراكش[2]. ومن هؤلاء موسى بن حجاج بن أبي بكر الأشيري من أشير . وكانت إقامته بتدلس من عمل بجاية وعني بالرواية ثم انتقل إلى مدينة الجزائر ـ من عمل بجاية[3] وأمَّ بها صلاة الفريضة ، وحدث وأخذ عنه إلى أن توفي بتدلس سنة ٥٨٩ هـ . ومن هؤلاء الفقهاء إبراهيم بن حماد من أهل قلعة بني حماد ، وكان راوية لأبي علي الصرفي ، وحدث عنه ابن الرمامة[4]. ومن هؤلاء حجاج بن يوسف الهواري من نواحي بجاية ترك ذكراً وعلماً إلى أن مات سنة ٥٧٢ هـ[5]، وأبو بكر ابن عتيق من أهل القلعة ، المتوفى سنة ٥٥٣ هـ[6]، وعبد الله بن محمد بن عيسى التاهرتي الذي ولع بالرواية ومعرفة الحديث[7]،

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣٤٥ ، وترتيب المدارك للقاضي عياض ٧١٩/٣ ، والصلة لابن بشكوال ، طبع الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦ القسم الثاني ٦١٦ ، وجذوة المقتبس للحميدي ترجمة رقم ٧٩٨ ، وبغية الملتمس للضبي ، تصوير مكتبة المثنى ص ٤٤٦ .

(٢) الصلة ٦١٤/٢ .

(٣) التكملة لابن الأبار ٦٩٠/٢ (مكتبة الخانجي ١٩٥٦) .

(٤) التكملة ١٧٤/١ .

(٥) التكملة ٢٧٩/١ .

(٦) التكملة ٤٤٨/٢ .

(٧) التكملة ٧١٩/٢ .

وعبد الله بن يحيى العبدري من أهل القلعة ، وكان محدثاً وفقيهاً بجامع القلعة إلى أن توفي سنة ٥١٩ هـ[١].

ومن هؤلاء البارزين محمد بن عيسى بن محمد الغزاري تلميذ بجاية الذي عني بالمسائل[٢]، وسعيد بن عثمان وأحمد بن واضح اللذان وليا قضاء بجاية والفتوى بها[٣].

ومن هؤلاء كذلك ، أحمد بن خصيب بن أحمد الأنصاري القرطبي الأصل الذي استقر آخر عمره بالقلعة الحمادية ، وتوفي بها في حدود سنة ٤٥٠ هـ ، وقد أخذ عن أبي الحسن علي بن أبي طالب أكثر روايته وتواليفه ـ كما أخذ عن غيره[٤]. ومن فقهاء الدولة عبد الله بن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان ، أصله من تاهرت ، وكان له شعر ديني في مناسك الحج[٥].

ومن الفقهاء الذين أقاموا بالدولة وعاشوا في ظلالها ، عمر بن عبد الله بن زاهر ، الذي استوطن بونة ، وروى عن شيوخ عصره كأبي عمران الفاسي الفقيه ، وأبي عبد الملك مروان البوني ـ الذي تحدثنا عنه ـ وأبي القاسم إسماعيل بن يربوع السبتي وغيرهم ، وقد توفي بعد سنة ٤٤٠ هـ[٦]. ومنهم أبو عبد الله بن الكلاعي ، الذي تتلمذ عليه أبو بكر بن العربي قاضي إشبيلية[٧]. وأبو بكر محمد بن الحسين المتوفي سنة ٥٣٧ هـ ، الذي لجأ إلى بجاية واستوطنها ، هارباً من صاحب المغرب ـ ابن تاشفين ـ وكان محدثاً ببجاية ، وله بها تلاميذ يأخذون عنه[٨]، ومنهم أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز المولود بتاهرت ، وقد حدث

---

(١) التكملة ٢/١٥ .
(٢) ترتيب المدارك ص ٣/٤٤٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٤٥ .
(٤) الصلة لابن بشكوال ١/٥٩ .
(٥) الصلة ١/٢٩٩ .
(٦) الصلة ٢/٣٩٨ .
(٧) نفح الطيب للمقري ٢/٢٣٤ .
(٨) نفح الطيب ٢/٣٥٤ ، ٣٣٥ .

بكتاب صريح السنة للطبري ، وفضائل الجهاد ، والتبصير عن الدينوري عن الطبري[1].

ومن أبرز المتخصصين في العلوم الدينية بفروعها المختلفة « يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل النحوي » ـ الذي كان شاعراً دينياً كذلك ـ وكان بمثابة مدرسة لها اتجاهها في النظر إلى الأمور الدينية ، ونجح في تكوين تلاميذ ينشرون اتجاهه في المغرب ، وكان اتجاهه امتداداً للإمام الغزالي الذي كانت كتبه تحرق في دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين ... فقد ركز على علوم العقيدة والتصوف أكثر من التركيز على الفروع ـ الذي كان اتجاه المرابطين الرسمي ـ وكان يقول عن الإحياء : « وددت أني لم أنظر في عمري سواه » ، وكان يلقي دروسه في القلعة وتخرج على يديه بها القاضي « أبو عمران موسى الصنهاجي وأبو عبد الله محمد بن الدماسة وأبو بكر بن مخلوف ومحمد بن مخلوف وغيرهم »[2] .

ومن مبرزي هذه العلوم محمد بن علي بن جعفر المعروف بابن الرمامة ، تلميذ ابن النحوي ـ المولود بالقلعة سنة ٤٧٨ هـ والمتلقي بها دروسه صبياً وشاباً ، وصاحب كتاب « تسهيل المطلب في تحصيل المذهب » ، وكتاب « التقصي عن فوائد التقصي » ، وكتاب « التبيين في شرح التلقين » وغيرها[3]. وقد روى عنه كثيرون وكان فقيهاً شافعياً محباً للإمام أبي حامد الغزالي كأستاذه ابن النحوي .

ومن هؤلاء كذلك حسن بن محمد المسيلي المتوفي سنة ٤٣١ هـ[4].

ويعتبر أبو القاسم يوسف البكري المولود ببسكرة سنة ٤٠٣ هـ من أبرز علماء القراءات في المغرب كله ، وقد قال عنه إمام القراء ابن الجزري : لا أعلم أحداً في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته ، ولاقى من لقي من الشيوخ ، وقد ترك آثاراً

---

(١) جذوة المقتبس للحميدي ص ١٣٢ .

(٢) انظر البستان لابن مريم ص ٢٩٩ وما بعدها .

(٣) التكملة لابن الأبار ٦٧٦/٢ .

(٤) المغرب العربي لرابح بونار ص ٢٦٧ .

كثيرة نعرف منها كتاب « الكامل في القراءات » وكتابي « الوجيز » و « الهادي »[1].

وكما كان البكري إماماً في القراءات ، كان أبو محمد عبد الله الأشيري المتوفى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) إماماً مبرزاً في الحديث ، يتسابق الناس إلى الأخذ عنه ، والتشرف بالانتساب إليه ، وقد خدم دولة الموحدين بعد سقوط الحماديين ، ومن أشهر كتبه : تهذيب الاشتقاق لأبي العباس المبرد[2].

ولا نشك في أن هناك كثيرين غير هؤلاء وُجدوا في القلعة وبجاية وبونة وغيرها من مدن الحماديين ، وكانت لهم جهودهم في حقل العلوم الدينية على اختلاف فروعها .

بيد أن من الملاحظ أن كثيراً من هؤلاء كانوا مقلين في الإنتاج الفكري المدوَّن ، يعتمدون على تكوين التلاميذ ، والتعليم الشفهي . ويكتفي كثير منهم بالرواية عن غيره ، ولعل هذا هو الذي جعل من الصعوبة بمكان تتبع كل أبعاد وصور العلوم النقلية والنظرية عموماً ـ في الحقبة التي عاشتها الدولة ، وإن كنا لم نعدم ـ كما ذكرنا ـ كتباً لبعضهم .

٥ – العلوم العقلية :

أ ـ الأدب واللغة :

تصدرت علوم اللغة والأدب مجالات النشاط العقلي في دولة الحماديين . وكان الأدب ـ نثراً وشعراً ـ مناط عناية واحترام كل الطبقات ، وقد اشتغلوا جميعاً به : الملوك والوزراء ورجال الدولة والعلماء والطبقتان العليا والسفلى[3] ، وكانت العربية الفصحى المصقلة بلسان العرب النازحين لغة الثقافة والفكر ، وإن كان من الضروري أن تكون اللهجات الإقليمية قد أكسبتها لوناً محلياً ذا طابع خاص[4] ، أما البربرية فلم تزل تماماً من الوجود ، بل بقيت معروفة متداولة ،

---

(١) المغرب العربي لبونار ص ٢٦٨ والمجتمع المغربي ص ٣٠٤ .
(٢) تاريخ الجزائر العام ٣٩٩/١ والمغرب العربي ٢٧٢ .
(٣) بلاغة العرب للكعاك ص ٣١ .
(٤) انظر العربية ليوهان فك ص ١٦٧ .

ويبدو أن جزءاً كبيراً منها كان يسيطر على لغة البلاط[1] الذي لم ينس أنه بلاط بربري يحكم شعباً وبلاداً بربرية ، ومن المؤكد أنها لعبت دوراً في الحياة الاجتماعية ، إذ كانت الوعاء الذي حمل الأدب العامي ، الذي كان هذا العصر من عصوره الذهبية بالمغرب والأندلس[2] . لكن ـ مع ذلك ـ نجحت العربية في أن تكون اللغة الحية القوية السهلة المطواعة للتعبير عن الفكر العلمي ، وفرضت نفسها بحيث أصبحت لغة السياسة والتخاطب الأدبي[3] .

وبهذه العربية الفصحى قدَّمت الجزائر الحمادية مجموعة كبيرة من الكتَّاب والشعراء واللغويين ، وأسهمت في تفتيق مواهب وفدت إليها واستظلت بظلها ، فمن أدبائها أبو عبد الله الكاتب محمد الكاتب المعروف بابن دفرير ـ أحد كتاب الدولة الحمادية على عهد يحيى ـ وكان كاتب يحيى أثناء سقوط الدولة ، وقد ذكر له العماد الأصفهاني رسالة عن يحيى حين سقوط الدولة يستنجد ببعض أمراء العرب بتلك الولاية يقول فيها « كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسر ، رضي بالقسم وتسليماً بالقدر ، وتعويلاً على جزائه الذي يجزي به من شكر . ونصلي على النبي محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر ، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار من خان في دولتنا وضيع ، استفزَّ أهل موالاتنا الشنآن ، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران ، فأتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا ينصرون ... إلى آخر الرسالة »[4].

ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمي[5] ، وقد أورد له العماد رسالة إلى أحد أتباع الحماديين يبشره فيها برضى الدولة عنه ، وبتثبيتها

---

(١) البربر للكعاك ص ١٠٢ .

(٢) بلاغة العرب للكعاك ص ٣١ .

(٣) تاريخ العرب حتى (مطول) جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٤) خريدة القصر ، قسم شعراء المغرب بتحقيق المرزوقي وآخرين ١٨٠/١ .

(٥) ذكره العماد الأصفهاني ونقله عنه بونار (العالمي) والصحيح في اسمه (القالمي) ـ بالقاف ـ هكذا ورد في مجموع رسائل موحدية (ص هـ) ، والمعجب للمراكشي صفحات ٢٦٦، ٢٦٧، ٣١٧ وهو نسبة إلى مدينة قالم .

إياه خلفاً عن سابقيه من أسرته الموالية للدولة ، ومنها قوله : « ولما كنت في مضمار سلفك جارياً ، ولنا موالياً ، وفي قضاء طاعتنا متباهياً . رأينا أن نثبت مبانيك ونؤكد أواخيك ، ونؤكد لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك .... إلى آخر الرسالة »[1] .

ويرجح الأستاذ بونار أن ابن القالمي كان حياً في النصف الأول من القرن السادس الهجري أي على عهد العزيز ويحيى[2] . وهو ترجيح نوافقه عليه ، لأن ابن القالمي خدم الموحدين ، وكان من أبرز كتاب عبد المؤمن بن علي[3] ، وعندما مات خلفه في الكتابة لدى عبد المؤمن أبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية ، وقد توفي ابن محشوة هذا سنة ٥٩٨[4].

ومن شعراء العصر الحمادي المبرزين أبو حفص عمر بن فلفول الذي كان كاتب العزيز وابنه يحيى بن العزيز الحمادي ، وله اليد الطولى في الإنشاء الدال على إبداعه ، وقد أورد له العماد الأصفهاني شعراً رواه له عبد الله بن العزيز الحمادي الذي لجأ إلى صقلية[5]، ومنه قوله :

وقـالوا نـأى عنك الحبيب فما الذي ... تـراه إذا بان الحبيب المواصـل
فـإن أنت أحببت التصبّر بعـده ... ولم تستطع صبراً فـما أنت فـاعل
فـإن الهـوى مهمـا تمكّن في الحشا ... وحـل شغاف القلب ليس يُزايـل

ومن أشهر من قدمتهم الدولة علي بن الزيتوني الشاعر ، اعتبره العماد شاعر المغرب الأوسط وأديبه وألمعيه وأريبه . كان صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وقد سار شعره غناءً ، ومن شعره قوله :

لا آكـل المركـاز دهـري ولـو ... تقطفـه كفي بـروض الجنـان

---

(١) الخريدة ١٨١/١ .
(٢) المغرب العربي ٣٣١ .
(٣) المعجب ٢٢٦ ، ٢٦٧ ، ٣١٦ ، ٣١٧ .
(٤) المعجب للمراكشي ٣١٧ ، ومجموع رسائل موحدية ص (و) .
(٥) خريدة القصر ١٧٩/١ .

لأنـــه أشبه فيمـــا يـــــرى   أصـابع المصلوب بعـد الثمـــان

وقد ذكر له العماد أشعاراً أخرى[1]. ومن الشعراء كذلك إبراهيم بن الهازي[2]، وعلي بن الطبيب (الشاعر الطبيب)[3]، ويوسف بن المبارك من موالي بني حماد ، وله في مدائحهم من الشعر ما انسحب عليه ذيل حماد افتخاراً[4] كقوله في بني حماد :

هنـاكـم النصر ونيـل النجـاح   في يومكـم هذا بسحر الرمـاح
فـأنتم الصيد الكـرام الألـى   شادوا العـلا بالنـائـل المسماح
مـا منكـم إلا همامـاً حـوى   مناقبـاً جلى ومجـداً صـراح
لا تـرهبون الدهـر أعداءكـم   وتمنعـون العرض من أن يبـاح
وتبذلـون الرفـد يـوم النـدى   وتسعرون الحرب يـوم الكفـاح

ومن الشعراء كذلك ابن أبي المليح الطبيب ... الكاتب الشاعر الطبيب[5]، وعلي بن مكوك الطيبي[6]، وحماد بن علي الملقب بالبين[7]، ومحمد بن البين[8].

ومن كتاب الحماديين وشعرائهم علي بن أبي الرجال المكنى بأبي الحسن من أشراف مدينة تاهرت ، وإن كان قد نسب إلى القيروان لأنه عاش مدة في بلاط المعزّ ومات بتونس سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م)[9]، ومثله ابن الربيب أبو علي الحسين ابن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي ، كان أديباً متقدماً خبيراً باللغة ناثراً شاعراً ، لكنه رحل إلى القيروان ومات بها سنة ٤٣٠ هـ ، وكان يلقب بالقاضي

---

(١) الخريدة ١/١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) الخريدة ١/١٨٢ .
(٣) الخريدة ١/١٨٢ ، ١٨٣ .
(٤) الخريدة ١/١٨٣ .
(٥) الخريدة ١/١٨٣ .
(٦) الخريدة ١/١٨٤ .
(٧) الخريدة ١/١٨٤ ، ١٨٥ .
(٨) الخريدة ١/١٨٥ ، ١٨٦ .
(٩) المغرب العربي لبونار ص ٢٩٨ .

التيهرتي[١]، لكنه ــ كسابقه ــ غلبت عليه النسبة القيروانية[٢].

ومن أعلام الجزائر المشهورين في هذا العصر يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بابن النحوي من قلعة بني حماد ، وكان عارفاً بأصول الدين والفقه ، ويميل إلى النظر والاجتهاد ، وقد ذكرناه مع الأدباء هنا ، لأن له شعراً دينياً كثيراً ، وهو مؤلف قصيدة :

اشتدي أزمة تنفرجي ... قد آذن ليلك بالبلج

وله غيرها كثير من الشعر الديني[٣].

ويعتبر يوسف الورجلاني المولود بورقلة سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) من أبرز أدباء العهد الحمادي ، وقد أخذ العلم عن شيوخ بلده ، وارتحل إلى الأندلس والمشرق ، وأخذ عن أعلامهما ، ثم عاد إلى بلده واعتكف نحو سبعة أعوام ، يكتب بمنزله ، وقد لقب بالجاحظ لكثرة إنتاجه في علوم كثيرة ، وقد ترك كتباً جليلة أهمها : تفسير القرآن في نحو سبعة أجزاء ، وفتوح المغرب ، والعدل والإنصاف في أصول الفقه في ثلاثة أجزاء ، والقصيدة الحجازية في (٣٥٠) بيتاً ، وكتاب مروج الذهب في الفلسفة ، وكتاب ترتيب مسند الربيع بن حبيب ، وكتاب الدليل لأهل العقول الذي يشبه أن يكون دائرة معارف صغيرة[٤] وقد طبع هذا الأخير سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م)[٥].

ومن الشعراء البارزين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم من قلعة بني حماد ، وقد تجول في بلاد المشرق ، وله شعر جيد أورد العماد الأصفهاني نماذج منه ، وفي بعضه مدح لكرامة بن المنصور بن الناصر بن علناس[٦].

---

(١) المغرب العربي لبونار ص ٣٠٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨٢ .
(٣) البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم ص ٢٩٩ .
(٤) تاريخ الجزائر العام ١١٦/١ .
(٥) المجتمع المغربي للدكتور العدوي ص ٣٠٥ .
(٦) الخريدة صفحات ٣٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥١ .

ومن شعره قوله :

وحاكية بالماء لوى اضطرابه	قواما وحسنا حين يبدو ويوبص[1]
قضيب لجين ألمع الصقل متنه	وأخلصه في السك من قبل مخلص
كسامي قليلا ثم عاد كأنه	جمان - حواليها - على الماء يرقص
تضايق اهنان السماء كأنها	لها بين هاتيك النجوم تلصص
كأن نوالاً من عين « كرامة »	يمد به إذ لا نرى الماء ينقص

وله أشعار أخرى أوردها العماد الأصفهاني .

ومن هؤلاء الشعراء أبو محمد عبد الله بن سلامة ، وأصله من بجاية ورحل إلى مصر[2]، وابن رشيق المسيلي القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وأصله من المسيلة وبها تلقى دراسته الأولى وتعلم صناعة « الصباغة » عن أبيه ، وهي صناعة كانت شائعة في عصره ، وارتحل إلى القيروان ، وله آثار كثيرة تزيد على الثلاثين مؤلفاً ما بين كتب ورسائل ، وأشهرها كتابه العمدة[3].

ومن الشعراء الذين ارتبطوا بالدولة الحمادية ، على الرغم من أنهم لم يعاصروها ، الشاعر الحمادي محمد بن علي بن حماد ، فقد قرأ بالقلعة ثم ببجاية ، وتوفي سنة ٦٢٨ هـ ، تاركاً لنا رصيداً من الشعر في رثاء الدولة الحمادية[4]، كان الرثاء الوحيد الذي وصلنا للدولة ، وقد خلد في آثارها ، ووقف عند كثير من أمجادها وأشاد بعظمائها . ولا غرو فهو سليل هذه الأسرة وبقية من أمجادها الرائعة .

وفي الدراسات اللغوية نبغ في هذه الفترة الحسن بن علي التيهرتي المتوفى سنة ٥٠١ هـ[5]، والجزولي الذي كان أستاذاً لابن معطي الذي أشاد بسبقه ابن مالك

(١) يوبص : يظهر .
(٢) الخريدة ٣٤٣ .
(٣) انظر المغرب العربي ص ٣٠٤ وما بعدها .
(٤) انظر عنوان الدراية للغبريني ١٢٨ وما بعدها ، وانظر أعمال الأعلام ٩٤/٣ (وقد أورد له بعض شعره) ، وانظر : بلاغة العرب للكعاك ص ٤١ .
(٥) المغرب العربي لبونار ٢٧٧ .

في ألفيته[1] حين قال عنه :

وهــو بسبــق حائــز تفضيــلا مستوجــب ثنــائي الجميــلا

ومن اللغويين كذلك أبو الطاهر عمارة بن يحيى من بجاية[2].

ولا شك في وجود كثيرين غير هؤلاء ، لم يتح لهم أن يكتب التاريخ عنهم[3]، أو أنهم لكثرة رحلاتهم طلباً للعلم قد اندثرت معالمهم في بلاد الغربة .

ومن النماذج النثرية والشعرية التي قدمناها يمكننا الحكم على أدب الجزائر في هذه الفترة ، بأنه أدب تقليدي يلتزم السجع في النثر ، والديباجة التقليدية في الشعر ... من رصانة لفظية إلى محسنات بديعية إلى موضوعات تكاد تكون هي نفسها المعروفة في المشرق ، ويغلب على أكثرها المدح في الشعر والكتابة الديوانية في النثر .

وحسب المغاربة في هذه الفترة أن يتتلمذوا على فكر إخوانهم في المشرق ، هؤلاء الذين نزل القرآن بلغتهم ، وكان النبي العربي عليه السلام منهم ، ولا ينقص هذا من مكانتهم في الحضارة الإسلامية شيئاً .

ب – التاريخ والجغرافيا :

لم تحظ علوم التاريخ والجغرافيا بعناية كبيرة كتلك العناية التي أولوها لعلوم الدين واللغة . ذلك أن فترة الحماديين ، كانت فترة تركيز على العربية والإسلام باعتبارهما الأساس الذي تقوم عليه عملية تعريب المغرب . ولربما كانت دراسة التاريخ ، لا سيما التاريخ البربري ، عملاً أحسَّ البربر بحرج منه إزاء إقبالهم على الحضارة الجديدة التي أحبوها ممثلة في دينها ولغتها . أما الفلسفة ، فلم أجد فيما رجعت إليه من مصادر أثراً ذا بال لها ، وتفسير ذلك فيما أرى بغض البربر للنواحي العقلية كرد فعل للتطرف الجدلي الذي عانوا منه كثيراً طيلة خضوعهم للفاطميين .

كما أن مذهب مالك الذي ساد المغرب يعتمد على المأثور بالدرجة الأولى ، وكان لمنهجه هذا تأثير على الناحية الفلسفية .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٦ .

(٢) عنوان الدراية للغبريني ص ٢٣ .

(٣) انظر المغرب العربي لبونار ص ٢٨٨ .

وقد وصلتنا أسماء بعض الأعلام الذين اهتموا بالتاريخ ، كأبي محمد القلعي الذي كان يدرس بالجامع بحاضرة بجاية [1]، ومحمد بن ميمون حفيد ميمون قاضي القلعة [2]. ويوسف الورجلاني المولود سنة ٥٠٠ هـ وصاحب كتاب فتوح المغرب [3].

ويحكي ابن الأبار أن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي ـ الأمير الحمادي الثامن ـ قد ألف له حماد بن إبراهيم ابن أبي يوسف المخزومي كتاباً في التاريخ [4].

ومن المؤرخين الذين ارتبطوا بالدولة وانتسبوا إليها « أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي » مؤلف أكبر كتاب في التاريخ الصنهاجي « النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة » [5] و « كتاب أخبار ملوك بني عبيد » [6] و « كتاب الإعلام بفوائد الأحكام » [7].

ومع أننا لم نقع على ما يؤكد نشاط الحماديين في مجال الجغرافيا ، إلا أن هناك أكثر من قرينة تؤكد ضرورة اهتمام الحماديين بهذا العلم ، فلقد كان كثير من المغاربة يرحلون إلى المشرق في رحلات علمية ، فضلاً عن رحلة الحج ـ الذي هو ركن من أركان الإسلام ـ وعن صلاتهم التجارية بالأندلس والمشرق ، ما يوجب ضرورة الاهتمام بالجغرافيا .

ولقد فتح معزّ الدين الفاطمي مصر بجيش مغربي ، ومن الثابت أن هذا الجيش قد استقرَّ بمصر وكوّن عنصراً من العناصر الموجودة بالمجتمع المصري « وكان هذا من الأسباب القوية التي حملت المغاربة على هذه الرحلة إلى المشرق » [8]، ولعل في

---

(١) بلاغة العرب للكعاك ص ٢٨ .

(٢) المكان السابق نفسه .

(٣) المجتمع المغربي للدكتور العدوي ٣٠٥ .

(٤) انظر التكملة ١٢٧/١ .

(٥) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٨٣ ، وانظر أعمال الأعلام ٩٤/٣ ، ٩٥ (حاشية) ، وانظر المكتبة الصقلية لاماري ٣١٧ .

(٦) مجلة المجاهد السياسي عدد ١٩٧٠/١١/٢٢ تقال عن تراثنا الماضي والحاضر .

(٧) بلاغة العرب ص ٢٦ ، ومقال مجلة المجاهد السابق .

(٨) الدولة الموحدية بالمغرب ٣٥٤ .

شهرة ابن حوقل والبكري والإدريسي وغيرهم من جغرافيي ورحالة هذا العصر ما يؤكد هذا .

ج - العلوم التجريبية :

كان لهذه العلوم دورها وأهميتها في العصر الحمادي ، باعتبارها ضرورة من الضرورات ، لتحقيق التقدم والرفاهية اللذين انصبَّ جل اهتمام الحماديين عليهما .

ومن الملحوظ أن هذه العلوم لم يكن أصحابها منفصلين انفصالاً تاماً عن العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، على الرغم من وجود ظاهرة التخصص في هذا العصر . ولهذا فنحن نجد كثيراً من أقطاب هذه العلوم يشتهرون ـ إلى جانب شهرتهم في هذه العلوم ـ بالبروز في نواح أخرى كالشعر والفقه والنحو وما إلى ذلك .

وقد عرف في هذا العصر كثير من المهتمين بهذه الدراسات ، كابن أبي المليح الطبيب ، الذي كان طبيباً ماهراً مشهوراً[1]، وابن النباش البجائي المتوفى في أواخر القرن الخامس ، الذي كان طبيباً ، مواظباً على علاج المرضى ، ملماً بالعلوم الطبيعية ، ومشاركاً في سائر العلوم الفلسفية[2]، وعمر بن البيدوخ أبو جعفر القلعي ، الذي كان خبيراً في الأدوية المركبة والمفردة وعارفاً بالأمراض وعلاجها ، وقد ترك كثيراً من الكتب مثل « حواش على كتاب القانون » لابن سينا ، وشرح الفضول لأبوقراط في « أرجوزة » ، وذخيرة الألباب في الباءة . وكان القلعي من مواليد القلعة لكنه طوف في الآفاق ومات بدمشق سنة ٥٧٥ هـ[3].

ومن هؤلاء البارزين محمد بن أبي بكر المنصور القلعي ، الذي نبغ في الطب والرياضيات والحساب وعلم الفرائض[4].

ويحدثنا الإدريسي عن وجود مجموعة من النباتات المنتفع بها في صناعة الطب بجبل مسيون ـ شمال بجاية ـ مثل الحضن ، والسقولوفند ، وديون ، والبرماريس ،

---

(١) الخريدة ١٨٤ .
(٢) المغرب العربي لبونار ص ٢٧٧ .
(٣) المغرب العربي ص ٢٨٠ .
(٤) بلاغة العرب للكعاك ٢٩ .

والقنطوريون والزراوند ، والقسطون ، والأفسنتين ، وغير ذلك من الحشائش[1]. وهذا يوحي بوجود اهتمام بعلوم الصيدلة وبالطب في دولة الحماديين ، كما يحدثنا عن وجود نبات يسمى الفوليون يشربه أهل القلعة تحصناً به من لسع العقارب طول العام[2].

ومما لا شك فيه أن حركة البناء والتعمير التي عرف بها الحماديون قد احتاجت إلى كثير من المهندسين ، وكانت ـ بإبداعها ـ خير شاهد على تقدمهم في الهندسة ، لا سيما الهندسة المعمارية ، « فقد كان من الطبيعي أن يميل الأمراء الحماديون إلى تلك الأبهة وتلك العظمة ، وقد أقاموا الدليل على أن الإفراط والإعجاز في الهندسة المعمارية في الجزائر لم يكن أبداً وليد جهلهم بالتقنينات أو عدم حذاقتهم ، فقلعتهم ، التي هي من إبداع سكان البلاد ، كانت في طليعة التقدم التقني والفني في القرن الحادي عشر »[3].

وقد اشتهر في علم الفلك علي بن أبي الرجال التاهرتي المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، وقد عرف ابن أبي الرجال بآثاره العلمية الكثيرة لا سيما كتاب « البارع في أحكام النجوم » الذي نقل إلى الأسبانية واللاتينية ، وكتاب « أرجوزة في الأحكام الفلكية »[4].

والشيء الذي نميل إليه أن هناك كثيرين غير هؤلاء اهتموا بهذه الدراسات التجريبية ، وأن يد الإهمال والنسيان ، وإيثار العلوم العربية والإسلامية ، والغربة والرحلة ، والقلق الذي كان من مميزات العصر ... هذه العوامل كلها قد دثرت كثيراً من جهودهم في كثير من فروع العلم .

د – الفنون والعمارة :

كان للحياة الهادئة والمترفة التي حققها الحماديون لأنفسهم منذ الناصر ابن

---

(١) صفة المغرب ٩٠ .

(٢) صفة المغرب ٨٩ .

(٣) كتالوج بجاية ، الفن المعماري الجزائري ٣٢ .

(٤) المغرب العربي ٢٩٨ ، ومجلة الأصالة عدد ٦ يناير ١٩٧٢ ، مقال لبونار ص ١٢١ عن علي بن أبي الرجال .

علناس أثرها في إبداع المجتمع الحمادي في كثير من الفنون .

وإذا كان الإبداع الفني نتيجة من نتائج ازدهار المجتمع ورخائه وخلوه من المشاكل الخارجية والداخلية المهددة لحياته ، إذا كان هذا فإن السياسة الحمادية التي قامت ـ إلى حد كبير ـ على أساس البناء الداخلي ، وتوطيد العلاقات السلمية بشتى السبل مع الجهات الخارجية ، كانت أبرز عامل في الازدهار الفني الذي تمتعت به دولة بني حماد في أكثر من نصف عمرها .

وحيث كان المجتمع الحمادي مفتوحاً يتلقى كل الباحثين عن مرفأ آمن ، فقد استطاعت الفنون الحمادية أن تأخذ وتعطي ، وأن تتبادل التأثير والتأثر مع الأندلس ومع المشرق العربي ، محتفظة لنفسها بخصائص مستقلة ، وبحق التصدير في كثير من نواحي الإبداع الفني ـ وبخاصة فن الهندسة المعمارية والزخرفة ـ . « إن شهرة بني حماد قد ذاعت حتى طارت إلى الأندلس ، ولقد شاع إيواؤهم للمغلوبين على أمرهم والمطرودين »[1] .

ولئن كان المنصور الحمادي ـ كما يقول الدكتور سعد شلبي ـ قد جعل بلاطه أندلسياً تشبه فيه صاحبه بملوك الأندلس ، فعاش عيش المترف المولع بالنساء[2]، فإن الأندلس كذلك قد اقتبست من إفريقية ـ والمغرب ـ أوضاعاً من الأدب ، وأصنافاً من الفن وطرائق من الغناء العربي[3]« إلى جانب أن ثمة طرائق من التعبير الزخرفي قد ظهرت في القلعة قبل ظهورها في حوض البحر الأبيض المتوسط بزمن طويل »[4]ـ مما سنفصله فيما بعد .

ومن البديهي أن بجاية التي تمصرت بخراب القيروان ، قد ورثت جزءاً كبيراً من حضارة تونس ـ بخاصة ـ[5] وقد أملت عليها الظروف أن تقوم بالعبء الذي

---

(١) دكتور سعد شلبي ، ابن حمديس الصقلي ١٦٩ .
(٢) المكان السابق .
(٣) الورقات : الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ٢/٢٢٥ .
(٤) كتالوج بجاية ٥١ .
(٥) انظر الورقات للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ٢/٢٢٦ .

كان مطروحاً عليها وعلى القيروان ... فأصبحت العاصمة الحضارية للمغربين الأوسط والأدنى .

لقد سارت الموسيقى والغناء شوطاً بعيداً في ظلال الحماديين « ولقد أصبح الملوك والأمراء الحماديون يعنون بالمغنين وأرباب الفن ، فيستخدمونهم بقصورهم ويجلسون إليهم »[١]. وأغلب الظن أن هذه الموسيقى متأثرة إلى حد كبير بالموسيقى الأندلسية ، إذ كان الأندلسيون ــ هم سادة هذا الفن ــ في الجناح الغربي من العالم الإسلامي ، وربما كانت هناك تأثيرات شرقية كذلك ، ولا نظن أن الحماديين قد جاءوا فيه بجديد « وقد حذت حذو الأغنية العربية أغنية محلية شعبية تغنَّى بها البدو والبربر في جبالهم عدا ما كان من الأناشيد الحماسية التي ابتكرها العرب الهلاليون »[٢] الذين أصبحوا عنصراً ثقافياً من عناصر الثقافة الحمادية .

وكان الخط والحفر والرسم والنقش والنحت والزخرفة من الفنون التي عني بها الحماديون ، وقد تطورت هذه الفنون الحمادية مع تطور الدولة ، وارتبطت كذلك بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والحضارية للمجتمع الحمادي ، فثمة خلاف بين فن القلعة وفن بجاية ، « فنحن لا نستطيع أن نجد في بجاية فناً متجانساً ، كذلك الذي وجد في القلعة ، فالخزف والصيني الذي وجد في القلعة للأمراء الصنهاجيين ، كان متجانساً بطريقة جلية ، ومردّ ذلك التجانس إلى أن المدينة قد نشأت ونمت وفقدت كل أهميتها السياسية ، وتقريباً كل نموها وكل نشاطها العسكري ، في أقل من قرن ، ولم تنهض بعد ذلك أبداً ، أما بجاية فعلى العكس من ذلك ، كانت موجودة من قبل أن يستوطنها الأمراء الحماديون ، وتواتر عليها من بعدهم حكام كثيرون وأجناس عديدة ، وقد كانت بحكم موقعها كميناء بحري على اتصالات مستمرة بعالم البحر الأبيض ، فليس غريباً إذن أن تكون قطع الخزف والصيني التي عثر عليها في بجاية تنتمي إلى أصول عديدة »[٣].

---

(١) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ٢٩١ وانظر : تاريخ الجزائر للهلالي ٢/٢١٢ .

(٢) موجز التاريخ للكعاك ٢٩١ .

(٣) Les poteries et Faiences de Bougie — George Marçais, P: 7 (Braham-étiteur Constantine) 1916.

لقد خلف الحماديون نماذج متعددة متنوعة من فنونهم الصناعية ، كالرخام والخشب المنحوت الرائع ، والرسوم الزخرفية ، والبرونز والزجاج والخزف والصيني ، والمخطوطات الزخرفية[1] .

وبالنظر إلى صورة الحجر الحمادي الذي كان معلقاً على واجهة أحد القبور في بجاية ، والموجود في متحف بجاية الحديث[2]، نجد نمطاً من الخط الحمادي يدلنا على أن ذلك الخط كان قريباً من الخط الكوفي المشتبك المشهور في العصر الحمادي كله[3]، وثمة خطوط أخرى اكتشفت في حفريات القلعة وبجاية ، سواء تلك التي اكتشفت على حجارات القبور أو على أقواس الأبواب[4]، وكلها خطوط كوفية ، وبالمقارنة بين هذه الخطوط يتبين لنا أن ثمة تطوراً هائلاً بين كتابات القلعة ذات المظهر البسيط ، وبين تلك الأخرى التي عثر عليها في بجاية[5]، مما يؤكد التطور الحضاري الذي بدأ بعهد بجاية والناصر في الدولة .

ومن الأجزاء التي وجدت أثناء الحفريات يتبين أن هناك فناً زخرفياً أنيقاً ومليئاً بالأصالة[6]. في السقوف المجصصة على هيئة مربعات ، وفي البلاط ذي الأشكال المختلفة ، وفي التحف المذهبة أو المفضضة أو الدنان والأكواز والصحاف والأواني والأوعية والمحابر والمصابيح وزجاجات العطور ، وفي القصور على وجه الخصوص في كل ذلك برز فن الزخرفة الحمادي[7]، كفن متقدم ذي ملامح إسلامية عربية وبربرية ، يدل على تقدم كبير في هذا الفن ، وفي غيره من الفنون

---

(١) Mèlanges D'histoire et d'archeologie de L'Occident Musulmane — Georges Marçais P: 20, 1957.

(٢) كتالوج بجاية (٢١) (صورة الحجر) وانظر ص (٣١) صورة أخرى .

(٣) انظر مجلة الأصالة عدد نوفمبر ١٩٧١ ص ٩٧ ، وتاريخ الجزائر للجيلالي ٣٩١/١ .

(٤) انظر كتالوج بجاية ٦٣ .

(٥) المكان السابق نفسه .

(٦) انظر كتالوج المساجد في الجزائر ص ٨ ، طبع مدريد ١٩٧٠ بإشراف الدكتور رشيد بورويبة .

(٧) انظر كتالوج بجاية ٦٢ ، وانظر كتالوج المساجد في الجزائر ٨،٩ .

المتعلقة به كالرسم والنحت والحفر والنقش[1].

لقد عرف الحماديون فن هندسة تخطيط المدن ، وكانت مساحة بجاية تقدر على هذا العهد بمائة وخمسين هكتاراً أي ١٥٠,٠٠٠ متر مربع ، وتجزأ إلى ٢١ حياً مشتملة على ٧٣ مسجداً وتضم من السكان ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ نسمة[2].

وفضلاً عن الشروط التي كان البربر يوفرونها في الموقع الذي يختارونه لبناء مدنهم ، من ضرورة توفر مياه الشرب ، وكثرة العيون الجارية ، وإشراف المدينة على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد[3] ، ومراعاة أن يوفر المكان للعاصمة قدراً من الحماية الذاتية ... فضلاً عن ذلك فقد كانوا يراعون في تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة ، ويستحسن أن تكون العيون في الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقي وإدخال المياه إلى المنازل[4] .

ومن الملاحظ في تخطيطات الحماديين للمدن اهتمامهم بتخصيص أماكن للأسواق ، واهتمامهم بالبساتين المحيطة بالقصور ، والحدائق العامة[5] ، فضلاً عن الجداول والأنهار التي كانت تخترق المدينة[6]. ويبدو أن أحياء أرستقراطية خاصة كانت تقام في داخل المدينة تسكنها الطبقة الحاكمة وأتباعها ، ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية ، كما أن مدن

---

(١) انظر كتالوج بجاية صفحات ٢٢، ٣٥، ٤٧، ٥١ (نماذج من فن الزخرفة والتصوير والرسم والنحت) ، وانظر الصفحات المرفقة بكتاب بيليه
La Kalaa Des Beni Hammad, P: After 86.

(٢) كتالوج بجاية ص ٨ ، وانظر : تاريخ الجزائر العام ٣٨٧/١ .

(٣) مجلة الأصالة ، عدد ذي الحجة ١٣٩١ ، مقال الأستاذ عبد القادر الحليمي بجامعة الجزائر عن « أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر » ص ٨٠ .

(٤) المكان السابق نفسه .

(٥) انظر موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٦٢ .

(٦) لا زال هذا الطابع موجوداً في المدن الجزائرية ، ارتفاعاً ، وتوفيراً للبساتين ، والجداول الصغرى .

الحماديين لم تكن تخلو من الفنادق والمساجد الضخمة ودور العلم وأماكن للحفلات والمعارض ، وغيرها من مستلزمات المدن المتقدمة .

لقد كان الفن المعماري أو الهندسة المعمارية أشهر ما عرف من نواحي التقدم الحمادي ، فعبر كثير من القصور والمساجد التي أبدعت الحضارة الحمادية في تشييدها ، أثبتت الحفريات التي قام بها « بلاتش وبيليه وفولفان » والحفريات الجزائرية ، مدى التقدم الذي أحرزه الحماديون في هذا الفن .

لقد جرت حفريات في القلعة ، وما زالت تتابع حتى الآن . وقد أدت إلى ظهور الأساسات المحددة بدقة معالم الآثار ومكان وجودها[1]. وفي قلب العاصمة الحمادية القديمة (القلعة) لم يرد ذكر أقل من ثلاثة قصور وجامع ، ولا زالت الحفريات فيها بعيدة عن الانتهاء ، ومساحة هذه القصور تدعو للإعجاب ، فهي لا تقل عن ٢٥٠ متراً طولاً و ١٦٠ متراً عرضاً ، وهي المساحة الخارجية لقصر البحر ... وأما الجامع فهو مكون من مئذنة واقفة شامخة ، وبناء كبير مستطيل حوالي ٦٦ م × ٥٤ م ومحاط بأسوار خارجية ، لم يبق منها إلا الأساس ، ويوجد في أول المدخل الجانبي ساحة (فناء) به صهاريج ، والأعمدة المقامة بيضاوية الشكل من الرخام الأبيض ، مقامة على أوتاد مسلحة ، مثبتة بالأرض[2].

وكان قصر البحر الذي تعاون الناصر والمنصور في إنشائه ، أبرز القصور الحمادية في القلعة ، وكان يمتاز بتخطيطه الذي أصبح فيما بعد مثالاً يحتذيه المعماريون في صقلية وغرناطة وغيرهما ، وكان يمثل مدينة سكنية أرستقراطية يقيم بها الجهاز الحاكم ، وقد أطلق عليه قصر الخلافة وقصر الحكومة أو دار الإمارة ... ونرجح أنه أطلق عليه قصر الملك والقصر الكبير كذلك ، وكان يضم في مقدمته الشرقية « الحامية ومكتب الحاجب ودار العدل أو القضاء » . ويوازي هذه البناية بناية أخرى للاستقبالات الرسمية تشتمل على قاعات ، وبداخل القصر بركة كبرى لها من الطول ما يناهز ستين متراً في عرض ١٥ متراً تحيط بها القاعات

---

(١) كتالوج بجاية ٢٤ ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 2, P: 680.

(٢) La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 77.

والرواقات[1]، وتلعب بهذه البركة الزوارق ، والقصر مليء بالرخام والسواري التي يعجز عنها الوصف[2]ويتبع هذا القصر الأمامي الشرقي منزل الأمراء ومقام حريمهم ... وكان يشتمل على بيوت عديدة وقاعات كثيرة مزينة بنقوش جميلة ومزخرفة بالفسيفساء[3]. وقد حظي قصر البحر أو دار البحر بوجه خاص ـ بعناية كبيرة في حفريات بيليه[4] ، والحفريات المعاصرة[5]. وقد ورد تخطيطه العام ومساحته والمميزات الخاصة بموقعه المائي الهائل ، وإن كان لم يبق من كل ذلك إلا الأطلال والصومعة التي لا تزال قائمة [6].

وكان برج المنار الذي نرجح أن الناصر بدأ في إنشائه ثم أكمله المنصور ، وهو يسمى قصر المنار أو قصر الإشارات ... كان هذا البرج واحداً من أبرز معالم الإبداع الهندسي الحمادي في القلعة ... وهو أشهر ما بقي من آثارهم في عاصمتهم الأولى . وكانت حيطان هذا البرج ، مثلها مثل حيطان مئذنته ، مصنوعة إلى الداخل من صخور كثيفة (حجارة غير منحوتة متشابكة) . وأما من الخارج فحجارة منحوتة على غرار قصور بلاد ما بين النهرين ـ تحفظ في نفس الوقت أجران الحجارة الداخلية من الحت والتآكل بعامل الزمن[7]، وتساعدها على ذلك الكوّات الموجودة في الحيطان ، والتي تبدأ من أساس البناء ، وتنتهي قرب القمة[8]. ومن الثابت أن البرج كان مغطى بقبةٍ لم تزل آثارها ظاهرة[9].

وإلى جانب قصر البحر والمنار ، وجدت في القلعة قصور أخرى كثيرة

---

(١) أخذنا الوصف عن موجز التاريخ للكعاك ٢٩٦ .

(٢) الاستبصار ١٦٨ .

(٣) موجز التاريخ للكعاك ٢٩٦ .

(٤) La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 60,61,62.

(٥) انظر كتالوج بجاية ص ٢٦ .

(٦) انظر كتالوج الفن المعماري الجزائري ص ٣٠ .

(٧) كتالوج بجاية ص ٥٠ ، وانظر كتالوج الفن المعماري الجزائري ص ٣٠ .

(٨) كتالوج بجاية ص ٤٥ ، ٥٠ .

(٩) كتالوج بجاية ٤٤ .

أقيمت منذ استقر حماد بالقلعة ، ومن بينها القصر المنسوب إلى حماد نفسه « قصر حماد »[1] ، والقصران المنسوبان إلى المنصور « قصر السلام »[2]، و « قصر الكوكب »[3] .

ومن المحتمل أن عديداً من القصور قد أقيمت في فترة تصدّر القلعة كعاصمة أولى على عهد القائد بن حماد ، وبلكين ، وإن لم نعثر على معلومات عنها .

وفي بجاية ـ على نحو أقوى وأعمق ـ ازدهرت حركة التقدم العمراني ، وقد كان للناصر والمنصور الأثر الكبير في تحقيق هذا الازدهار . ويعتبر قصر اللؤلؤة الذي أنشأه الناصر من أعجب قصور الدنيا[4] في عصره ، وقد بني حوالي سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م)[5]، ويبدو أن قصر اللؤلؤة هذا كان أكثر من قصر يضمها سور ، على غرار « دار البحر » في القلعة ، لأن صاحب الاستبصار يتحدث عنه على أنه « موضع به قصور ، لم ير الراؤون أحسن منها بناءً ، ولا أنزه موضعاً فيها طاقات مشرفة على البحر ، عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية ، والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها ، وقد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد ، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة ، وصورت فيها الصور الحسنة ، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزهاً وجمالاً »[6] .

كما بنى المنصور قصر بلاّرة ، نسبة إلى عروسه بلارة بنت تميم بن المعز[7] وقصر العروسين[8] .

---

(١) انظر قصيدة ابن حماد (أعمال الأعلام ٣/٩٥) في رثاء الحماديين .

(٢) انظر : Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 2, P: 680.

(٣) موجز التاريخ للكعاك ، وانظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ١/٣٨٧ .

(٤) العبر ٦/٣٥٧ وقد ذكر أن المنصور هو بانيه ، والصحيح أنه الناصر ويحتمل أن المنصور قد أضاف بعض التحسينات ، وانظر : Encyclopedia of Islam, Vol. 2, Part 3, P: 863.

(٥) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢/٢١٣ .

(٦) الاستبصار ١٣٠ .

(٧) انظر البيان المغرب ، ابن عذاري ١/٤٣٠ ، وانظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي ١/٣٧٢.

(٨) انظر أعمال الأعلام ٣/٩٥ (قصيدة ابن حماد) .

أما ابنه وخليفته المنصور ، فقد كان ـ كما يصفه ابن خلدون « مولعاً بالبناء ، وهو الذي حضَّر ملك بني حماد ، وتأنَّق في اختطاط المباني والمصانع ، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين »[1] ... وقد ذكرنا مآثره المعمارية في القلعة التي اهتم بها على الرغم من أنه نقل العاصمة السياسية إلى بجاية ، واستقر بها ، وكانت له مآثر في بجاية من أبرزها قصره الذي وصفه ابن حمديس الصقلي ، وتحدث عن ساحاته المرخمة وتربه المحصب بالدر ، وأضوائه التي تحول ليله نهاراً ، وأُسوده التي يخرج الماء من أفواهها على جانبي الأحواض ، وثمراته البديعة ، وأشجاره الذهبية الساحرة ، وصهاريجه وأبوابه المصفحة المزخرفة وسقفه ذي النضرة السماوية[2] ، ويبدو أن هذا القصر كان ينسب إلى المنصور ، وأنه سوى قصوره الأخرى المقامة ببجاية ، وهي قصور الخلاص والنجمة والميمون[3]. وقد حاولت من تتبع أوصاف هذه القصور ومن تتبع الأوصاف التي ذكرها ابن حمديس أن أصل إلى أنه أحد هذه القصور ، لكن لم توجد أية قرائن جازمة ـ من ناحية الأوصاف ـ تُرجِّح أحدها ، على الرغم من ورود بعض الأبيات في قصيدة ابن حمديس تُرجِّح أنه قصر النجمة .. كقوله :

فلك من الأفلاك إلا أنه ... حقر البدور فأطلع المنصورا

أبصرته فرأيت أبدع منظر ... ثم انثنيت بناظري محسورا

وعلى الرغم من وصف « كتالوج بجاية » له نقلاً عن « مخطوط البجاوي » بأنه قصر مشرق يشبه إشراق الشمس مرسلة حزمها الضوئية ، وأنه كان ذا أبواب تسعة كل واحد منها بمصراعين من الخشب المحفور بإتقان[4] ، وهي أوصاف وردت ـ على نحو ما ـ في قصيدة ابن حمديس[5] ـ لكنها أوصاف ليست جازمة في تحديد أنه قصر النجمة ، ومن المحتمل وجودها في قصوره كلها .

(١) العبر ٣٥٨/٦ .

(٢) انظر ديوان ابن حمديس الصقلي ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ص ٥٤٥ (وسترد كاملة في الملحق) .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٣٥١ ، وكتالوج بجاية ص ٤٠، ٦٦ .

(٤) كتالوج بجاية ٣٣ .

(٥) قال ابن حمديس :

=

وقد ابتنى المنصور في بجاية مسجداً زينته منارة ارتفاعها ستون قدماً وبواجهته سبع عشرة باكية[1].

وقد أنشأ يحيى « قصر النزهة » بأعلى جبل عيوف بجيجل تجاه البحر والمدينة ، لكن النورمان حطموه سنة ٣٨ هـ ، حين هاجموا المدينة[2]. ومن آثار الحماديين الإسلامية الباقية منبر الجامع الكبير بعاصمة الجزائر (جزائر بني مزغنة) وقد نُقش عليه بالخط الكوفي تاريخه هكذا « سنة تسعين وأربعمائة »[3].

بيد أن أكبر الآثار المعمارية الإسلامية التي خلفها الحماديون ، والتي لا زالت معالمها باقية إلى اليوم شاهدة على ما بلغه الحماديون من رقي في هذا الفن ... هذا الأثر هو « الجامع الكبير بقسنطينة » وليس ثمة شك - بعد البحث الدقيق الذي أجراه الدكتور « رشيد بورويبة » في أطروحته للماجستير سنة ١٩٦٠ م - في أن هذا الجامع ينتمي إلى بني حماد ... فقد اكتشف الدكتور ثلاث كتابات داخل المحراب ، تنفي الاحتمالات التي لجأ إليها « شاربو » ، « ميريس » من أن هذا البناء تم في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي[4] ، في الكتابة الأولى الموجودة داخل المحراب بالخط الكوفي : « هذا عمل محمد بن بو علي سنة ثلاثين وخمسمائة » ، والكتابة الأخرى كتب تاريخها بالحروف وهو سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وهاتان الكتابتان الموجودتان داخل المحراب هما المنسوبتان إلى الجامع الكبير بقسنطينة[5].

= وكأنما للشمس فيه ليقة ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا

وقال :

ومصفح الأبواب تبرا نظروا ... بالنقش بين شكوله تنظيرا

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة بجاية ٣٥١/٣ .

(٢) تاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٨٧/١ .

(٣) تاريخ الجزائر العام ٣٩٠/١ ، ٣٩١ .

(٤) مجلة الأصالة (جزء مترجم خاص بالجامع الكبير بقسنطينة من أطروحة الدكتور بورويبة) وقام بالترجمة دكتور حنفي بن عيسى) عدد رقم ٥ ، نوفمبر ١٩٧١ ص ٨٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٩ .

ومن المؤكد أن ترميمات وإضافات قد وقعت على امتداد تاريخ الجامع منذ إنشائه ، لكن مع ذلك بقي الجداران الشمالي والجنوبي[1]وكثير من السواري والأقواس ـ فضلاً عن المحراب والمئذنة والنقوش[2]... بقيت على حالها ، دالة على نسبتها للحماديين . « إن هذا المسجد ـ كما يلخص الدكتور بورويبة دراسته ـ بِقُبَّة محرابه المضلعة التي لها طابع أصيل ، رغم تأثرها بالفن المعماري الفاطمي بمصر ، وبإطار محرابه المزين بآيات من القرآن الكريم منقوشة ومتداخلة على شكل قرط ، وبزجاج نوافذه المحفوفة بأقواس ذات فصوص مزينة بالحلية ، وبمتكآته التي بلغت في دقة صنعها الغاية القصوى ، وبأبوابه التي تذكرنا بزخرفتها بباب جامع سيدي عقبة .

إن الجامع الكبير بقسنطينة ـ بكل هذا ـ لهو من أهم المنجزات الباقية من الفن المعماري الحمادي »[3] .

٦ – **أثر الحضارة الحمادية :**

من الطبيعي أن تتباين أحوال الأمم بين القوة والضعف ، ومن الطبيعي ـ كذلك ـ أن تخطئ الأمم وتصيب عبر تاريخها ، سواء في سياستها الداخلية أو الخارجية ...

وهكذا كانت دولة بني حماد في التاريخ ... تباينت قوة وضعفاً ، واعتورها الصواب والخطأ . بيد أن الحقيقة التي تتجلى عند النظرة الشاملة ، أن دولة الحماديين كانت صفحة من ألمع صفحات الحضارة الجزائرية الإسلامية .

لقد كان للدولة الحمادية علاقات اقتصادية وثقافية بعديد من دول المغرب وإفريقية والمشرق والمدن الإيطالية[4]... وقد صدرت الدولة الصوف والزيت

(١) المرجع السابق ص ٩٠ .
(٢) انظر المرجع السابق ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٩ .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية (بجاية) .

والجلود والشمع وعديداً من المحصولات إلى هذه البلاد[1].

كما كان للفنون التي ازدهرت في عهد الدولة ـ لا سيما الفن المعماري ـ تأثير كبير ، وكثير من خصائص الفن المعماري لم تظهر في المغرب ، قبل ظهورها في دولة الحماديين[2].

ومن الحماديين تعلمت أوربا أشياء كثيرة ، فقد كان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية في الجزائر ، فتعلموا من مصانعها صنع الشمع ، ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوربا ، ولا يزال يسمى الشمع عندهم « بوجي » (Bougie) وهو اسم بجاية في لغتهم[3]، وقد كانت بجاية تصدر النحل ـ الذي يصنع منه شمع النحل ـ إلى إيطاليا ، حيث توجد مصانع للشموع ، التي كانت من أبرز وسائل الإضاءة في ذلك العصر[4].

إن نوع المرسى العربي هو النموذج الذي ساد بإيطاليا وصقلية وغيرهما ، وقد كان مرسى بجاية ـ إلى جانب مراسي مغربية أخرى بالطبع ـ هي النماذج التي احتذاها الأوربيون .

ويرى « مارسيه » في كتابه عن « الفن والزخرفة في بجاية » أن بجاية التي ورثت عن قلعة حماد صناعة مزدهرة ، وطوّرتها على امتداد تاريخها بفضل اتصال البربر بالأسبان ، كان لفنّها طابعه وأسلوبه الخاص ووحداته الزخرفية المنفصلة التي لعب التربيع (الزخرفة على شكل مربعات) من بينها دوراً هاماً . وقد صدرت منتجات بجاية خصوصاً إلى مدن إيطاليا .

ومن ثم فإنها تستحق عموماً أن تحفظ لها مكانتها الجديرة بالاحترام في تاريخ فن الخزف والصيني الإسلامي في المغرب[5].

---

(١) المرجع السابق ٣٥٣/٣ .

(٢) انظر كتالوج بجاية ٢٦ ، ٥٦ .

(٣) كتالوج بجاية ص ١٠ ، ١٢ ، وانظر الجيلالي : تاريخ الجزائر ٣٨٤/١ (نقلا عن سنيويس في تاريخ الحضارة) .

(٤) كتالوج بجاية ١٤ .

(٥) Les Poteries et faiences de Bougie — Georges Marçais, P: 31.

وبثقة كبيرة يحدثنا « بيليه » ، وهو يسجل نتائج حفرياته سنة ١٩٠٨ م ، حول تأثير المدينة الحمادية فيقول : « وقد ثبت نتيجة لأعمالي ، ولما أعلنه السيد ديولافوا ـ في حفرياته ـ أن العقود المدببة المعقودة على هيئة نصف قبة ، والمقرنصات والفخار ذا البريق المعدني وألواح الخزف المنقوشة بزخارف على هيئة صلبان ونجوم ثمانية الأطراف ، ومسطّحات الجصّ المنحوتة والمنقوشة ... ثبت أن كل ذلك قد وجد في القلعة قبل وجوده في قصر الحمراء بثلاثة قرون ، ويمكن القول بأنه كان النموذج الأول الذي احتُذي »[1].

وكانت القصور الحمادية روائع هندسية وفنية يُضرب بها المثل ، وتُحتذى في كثير من البلدان ... وعلى غرارها ظهرت في « بلرم » بصقلية قصور مشابهة كقصري زيزة وكوبة الشديدي الشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب وأميمون[2] ، ويؤكد أبو محمد التيجاني ـ في رحلته ـ وهو يصف قصور « قابس » المتشابهة الأسماء مع قصور الحماديين ... يؤكد « التيجاني » أن هذه القصور « قد وافقت قابس فيها ، القلعة المعروفة بقلعة بني حماد ، واشتملت على معالم تسمى ـ في القلعة ـ بجميع ذلك »[3] :

« وكان روجر الثاني (١١٣٠–١١٥٤ م) يرتدي الملابس العربية ، ويطرز رداءه بحروف عربية ، وينقش على سقف كنيسته التي بناها في « بلرم » نقوشاً كوفية »[4] .

فإذا لاحظنا أن الحضارة الحمادية كانت أرقى الحضارات المغربية في النصف الأول من القرن السادس ، وأن النقوش الكوفية كانت الأسلوب الحمادي المستعمل في مساجد وقصور وقبور بجاية ، كان لنا أن نستنتج أن الحماديين هم أصحاب هذا التأثير الحضاري بدرجة كبيرة .

---

(١) La Kalaa Des Beni Hammad, De Beylie, P: 3.

(٢) المغرب العربي ، بونار ٢١٧ (نقلاً عن مارسيه) .

(٣) رحلة التيجاني ، المطبعة الرسمية بتونس ١٩٥٨ ص ١١٥ .

(٤) الإسلام في حوض البحر الأبيض للدكتور علي حسني الخربوطلي ١٢٧٠ .

لقد تركت الحضارة الحمادية آثارها في غير مجال[1] وكانت القلعة ، ثم بجاية ، مرفأً آمناً تتلقى الباحثين عن المعرفة ، وفيها لقي ابن حمديس الصقلي كل ترحيب وتكريم ، ومدح المنصور بن الناصر وأخرج روائعه في وصف قصوره[2]ـ ووفد « ابن فكاه القيرواني » إلى الناصر ، ومدحه بقصيدته التي مطلعها :

قـالت سعـاد وقد زمت ركائبنـا ... مهـلاً عليك فـأنت الرائح الغادي

فقلت تـالله لا أنفـك ذا سفـر ... تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي

حتى أقبِّل تـرب العـزّ منتـصراً ... بـالناصر بن علناس بـن حمـاد[3]

ووفد الشاعر أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي إلى القلعة ومدح بلكين ابن حماد[4] ، ووفد أبو الحسن علي بن محمد الأشوني الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٧ هـ فنزل مدينة الجزائر[5] ، ووفد كثيرون غير هؤلاء[6]ـ في شتى المجالات ـ بلغوا حداً من الكثرة استسقى منه ابن خلدون – ومن وافقه – حكمه على أدب المغاربة بأنه أدب طارئ[7] ، وهو حكم يتجاهل الأدباء المغاربة الأصليين النازحين ، ويتجاهل معطيات الحماديين[8] ، ودولاً مغربية أخرى كثيرة ، ويتجاهل طبيعة العصر في النقلة والارتحال .

ومن الجلي أن الموحدين قد ورثوا الدولة الحمادية وهي في أوج تألقها الحضاري ، ومن السهل على المرء الاقتناع بأن العلماء والمفكرين الذين ظهروا

---

(١) انظر الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض للكعاك ، صفحات ٢٩، ٣٢، ٣٣، وانظر : مراكز الثقافة ١٢٩ .

(٢) انظر ابن حمديس الصقلي : رسالة ماجستير ، دكتور سعد شلبي صفحات ٤٢ ، ٢٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وانظر ديوان ابن حمديس ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ١٣ ، ٤٣٩ ، ٥٤٥ .

(٣) انظر أعمال الأعلام ٩٦/٣ ، وابن حمديس ، د. سعد شلبي ص ٤٢ ، ٢٢٠ .

(٤) المغرب في حلى المغرب ، تحقيق د. شوقي ضيف ١٢٨/١ ، ١٣ .

(٥) المغرب العربي ، بونار ٣٣١ .

(٦) قلائد العقبان ٢٨٧ (لجوء ابن اللجانة) .

(٧) انظر المقدمة ٩٨٨/٣ وانظر د. سعد شلبي : ابن حمديس ص ٢١٣ .

(٨) انظر المغرب العربي ٢٩١ .

على امتداد القرن السادس الهجري في الجزائر كانوا تلامذة للحضارة الحمادية ، وقد ذهب الدكتور « عبد الله علام » إلى هذا في رسالته ، فذكر أن نهضة بجاية – على عهد الموحدين « ليست من مآثر الموحدين وحدهم ، فقد كانت ذات شهرة فائقة على عهد بني حماد »[1] ، وإذا كانت الأرقام العربية وعلم الجبر والمقابلة قد انتشرا[2] في إيطاليا عبر « ليونارد فنشي » المولود سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) فإن « ليونارد فينشي » هذا كان من تلامذة الحضارة الحمادية ببجاية[3].

وإذا كان الغبريني قد جمع في كتابه « عنوان الدراية » أكثر من مائة ترجمة لعلماء وأدباء عاشوا في بجاية في نهاية القرن السادس والقرن السابع ، فليس من المبالغة القول بأن لغالب هؤلاء امتداداً ثقافياً حمادياً ، وأنهم دليل ناصع على تلك النهضة العلمية التي رعاها الحماديون في بجاية .

وفي ظل سياسة واضحة المعالم ، تقوم على التسامح بين كل الملل ، والبحث عن الأصلح وتشجيعه من أي طائفة ، واستيعاب العناصر الطارئة تحت أي ضغط ، وتحويل بجاية إلى « مكة الصغيرة » التي يحج إليها كل المهددين والباحثين عن الحياة والمجد ... في ظل هذه السياسة قدَّم الحماديون الكثير للحضارة العربية والإسلامية .

وفي ظل السياسة التي اعتبرت من أكبر مآثر الحماديين ، وهي سياسة ترويض القبائل العربية وتوظيفها في صنع الحضارة العربية ، والتي اقتبسها الموحدون على نحو أقوى ، في ظل هذه السياسة حمى الحماديون الحضارة المغربية من الدمار الكامل ، وكانوا الوريث لحضارة القيروان التي فرض عليها الأعراب الدمار والتشتت ، وكان في الإمكان ـ لولا السياسة الحمادية ـ أن يلقى المغرب الأوسط ـ ثم المغرب كله ـ المصير نفسه .

---

(١) الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ص ٢٨٦ .

(٢) كان أول من أدخلهما إلى أوربا البابا سليفسترا (٩٩٩ – ١٠٠٣) ، تعلمهما بفاس (نقلا عن الجيلالي : تاريخ الجزائر ٣٨٤/١) .

(٣) انظر الهلالي الميلي : تاريخ الجزائر ٢٢٦/٢ ، والجيلالي : تاريخ الجزائر ٣٨٤/١ ، والكعاك الحضارة : العربية ١١٣ .

وعبر عديد من المعوقات والمخاطر ، أدت الحضارة الحمادية دورها على امتداد القرنين الخامس والسادس للهجرة ، وقد ظهرت هذه الحضارة خلالهما – كما يحدثنا جورج مارسيه – « تحت تأثير المشرق ، وآثارها لا نظير لها في عصرها ببقية وطن البربر ...

وهي – بظهورها هذا – شاهد قوي على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة بالجزائر »[1] .

وقد طويت صفحة هذه الدولة ، كما طويت صفحات من قبلها ومن بعدها ، ولله عاقبة الأمور ...

اللهم اغفر لنا التقصير ، وجنِّبنا الزلل ... وانفع بعملنا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ... « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

العجوزة : جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ
أبريل ١٩٧٨ م

د . عبد الحليم عويس

(١) نقلا عن تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢١٣/٢ ، والمغرب العربي رابح بونار ٢١٧ .

الـملاحق

ملحق رقم (١)

حكام الدولة الحمادية والدول المعاصرة لها

أ ـ أمراء بني حماد (في الجزائر) :

١ – حماد بن بلكين — ت ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) .
٢ – القائد بن حماد — ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) .
٣ – محسن بن القائد — ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) .
٤ – بلكين بن محمد بن حماد — ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) .
٥ – الناصر بن علناس — ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) .
٦ – المنصور بن الناصر — ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) .
٧ – باديس بن المنصور — ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) .
٨ – العزيز بن المنصور — ٥١٥ هـ (١١٢١ م) .
٩ – يحيى بن العزيز — ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) .

ب ـ بنو زيري (في تونس) :

١ – باديس بن المنصور — ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) .
٢ – المعز بن باديس — ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) .
٣ – تميم بن المعز — ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) .
٤ – يحيى بن تميم — ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) .
٥ – علي بن يحيى — ٥١٥ هـ (١١٢١ م) .
٦ – الحسن بن علي — ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) .

ج ـ المرابطون (في المغرب الأقصى) :

١ – يوسف بن تاشفين — ٥٠٠ هـ (١١٠٧ م) .

٢ – علي بن يوسف ٥٣٧ هـ (١١٤٣ م) .
٣ – تاشفين ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) .
٤ – إبراهيم ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) .
٥ – إسحاق بن علي ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) .

د ـ الفاطميون (في القاهرة) :
١ – الحاكم بأمر الله
(المنصور أبوعلي) ت ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) .
٢ – الظاهر (علي أبو الحسن) ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ م) .
٣ – المستنصر (معد أبو تميم) ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .
٤ – المستعلي (أحمد أبو القاسم) ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) .
٥ – الآمر (المنصور أبو علي) ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) .
٦ – الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون) ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .
٧ – الظافر (إسماعيل أبو المنصور) ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) .

هـ ـ العباسيون (في بغداد) :
١ – القادر (أبو العباس أحمد) ٤١٢ هـ (١٠٣١ م) .
٢ – القائم (أبو جعفر عبد الله) ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) .
٣ – المقتدي (أبو العباس عبد الله) ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .
٤ – المستظهر (أبو العباس أحمد) ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .
٥ – المسترشد (أبو منصور فضل) ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) .
٦ – الراشد (أبو جعفر منصور) ٥٣٠ هـ (١١٣٦ م) .
٧ – المقتفى (أبو عبد الله محمد) ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

و ـ أسر أندلسية عاصرت الدولة :
١ – أمويون بقرطبة إلى ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) .
٢ – بنو حمود في مالقة ٤٠٧–٤٤٩ هـ (١٠١٦–١٠٥٧ م) .

٣ – بنو حمود في الجزيرة ٤٣١–٤٥٠ هـ (١٠٣٩–١١٥٨ م).
٤ – بنو عباد في أشبيلية ٤١٤–٤٨٤ هـ (١٠٢٣–١٠٩١ م).
٥ – بنو زيري في غرناطة ٤٠٣–٤٨٣ هـ (١٠١٢–١٠٩٠ م).
٦ – بني الأفطس في بطلبوس ٤١٨–٤٨٧ هـ (١٠٢٧–١٠٩٤ م).
٧ – بنو صمادح في المرية ٤٣٣–٤٨٤ هـ (١٠٤١–١٠٩١ م).
٨ – بنو جهور في قرطبة ٤٢٢–٤٦١ هـ (١٠٣١–١٠٦٨ م).
٩ – بنو ذي النون في طليطلة ٤٠٠–٤٧٨ هـ (١٠٠٩–١٠٨٥ م).
١٠ – بنو عامر في بلنسية ٤١٢–٤٧٨ هـ (١٢٠١–١٠٨٥ م).
١١ – بنو تجين وبنو هود في سرقسطة ٤١٠–٥٣٦ هـ (١٠١٩–١١٤١ م).
١٢ – وقد تقلبت أحوال كثير من المدن الأندلسية بين عديد من الأسر بحيث يصعب ذكرها.

ملحق رقم (٢)

قصيدة*

قال ابن حمديس الصقلي يصف داراً بناها المنصور بن علناس ببجاية :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي   أضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو أنك قد كحلت بنوره   أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه   فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي الصبيح مع المليح بذكره   وسما ففاق خورنقا وسديرا
ولو أن بالألوان قوبل حسنه   ما كان شيء عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الألى   رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
[illegible]مضت على الروم الدهور وما بنوا   لملوكهم شبهاً له ونظيرا
[illegible] [illegible]رتنا الفردوس حين أريتنا   غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيّدوا أعمالهم   ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هُدوا الصراط وكفرت   حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الأفلاك إلا أنه   حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر   ثم انثنيت بناظري محسورا
وظننت أني حالم في جنة   لما رأيت الملك فيه كبيرا
وإذا الولائد فتحت أبوابه   جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت [illegible] حلقاتهن ضراغم   فغرت بها أفواهها تكسيرا
فكأنم [illegible] لبدت لتهصر عندها   من لم يكن بدخوله مأمورا
تجر[illegible] [illegible]خواطر مطلقات أعنّةٍ   فيه فتكبو عن مداه قصورا
[illegible]ـمّم الساحات تحسب أنه   فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربة   مسكاً تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الإصباح منه إذا انقضى   صبحاً على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة   تركت خرير الماء فيه زئيرا

---

* ديوان ابن حمديس الصقلي تحقيق : إحسان عباس ص ٥٤٥ .

فكأنما غشي النضار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلورا

أسد كأن سكونها متحرك في ... النض لو وجدت هناك مثيرا

وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا

وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا

فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا

وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسجورا

شجرية ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النهي تأثيرا

قد صولجت أغصانها فكأنما ... قنصت لهن من الفضاء طيورا

وكأنما تأبى لواقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا

من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا

خرس تعد من الفصاح فإن شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا

وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا

وتريك في الصهريج موقع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا

ضحكت محاسنه إليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا

ومصفح الأبواب تبراً نظروا ... بالنقش بين شكوله تنظيرا

تبدو مسامير النضار كما علت فلك ... النهود من الحسان صدورا

خلعت عليه غلائلاً ورسية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً في السماء نضيرا

وعجبت من خطاف عسجده التي ... حامت لتبني في ذراه وكورا

وضعت به صناعة أقلامها ... فأرتك كل طريده تصويرا

وكأنما للشمس فيه لقية ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا

وكأنما للازورد محرم ... بالخط في ورق السماء سطورا

وكأنما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا

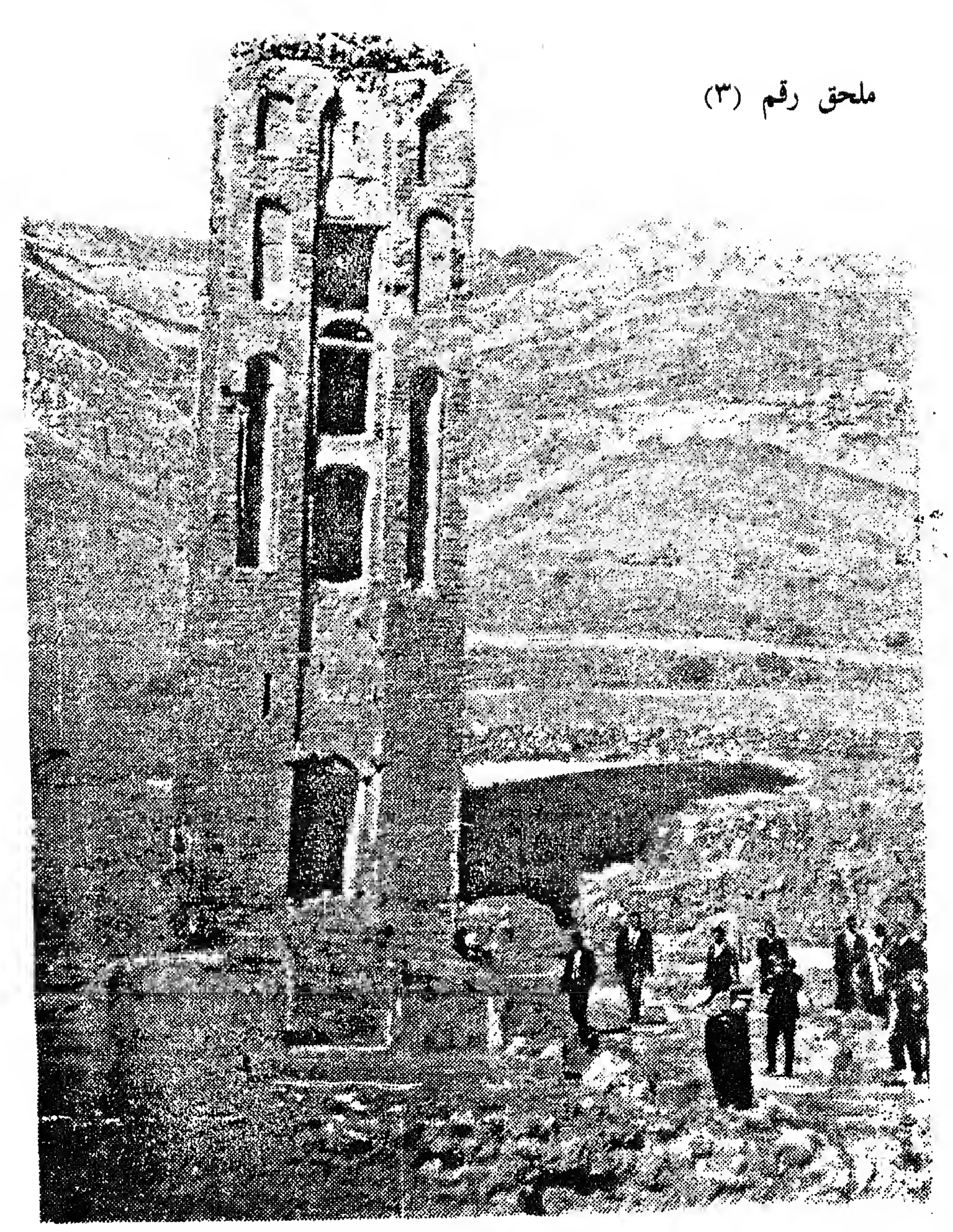
يا مالك الأرض الذي أضحى له ... ملك السماء على العداة نصيرا

كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا

فعمرتها وملكت كل رئاسة ... منها ودمرت العدا تدميرا

* * *

ملحق رقم (٣)



رحلة إلى قلعة بني حماد – المجاهد السياسي ٤٧٩
(٢٦ أكتوبر ١٩٦٩)

المـراجع العـربيّة

١ – ابن حمديس الصقلي (د. سعد شلبي) رسالة ماجستير بدار العلوم (في تاريخ الأدب) .

٢ – إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (لأحمد بن أبي الضياف) ـ من علماء القرن الثالث عشر ـ تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار ـ الجزء الأول تونس ١٩٦٣ .

٣ – اتعاظ الحنفا ـ الجزء الثاني (للإمام تقي الدين أحمد المقريزي ت ٨٤٥ هـ) تحقيق د . محمد حلمي أحمد ـ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٠ .

٤ – أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط (د . حسين مؤنس) بحث نشر في المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ – القاهرة ١٩٥٤ م .

٥ – الإحاطة في أخبار غرناطة – (لسان الدين بن الخطيب : ت ٧٧٦ هـ) – المجلد الأول – دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م . (تحقيق محمد عبد الله عنان) .

٦ – أخبار الدول المنقطعة (جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ .

٧ – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض جـ ١ – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ م – تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

٨ – الاستبصار في عجائب الأمصار – وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب – لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري – نشر وتعليق د . سعد زغلول عبد الحميد – مطبعة جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٨ .

٩ – الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري – الشهير بالسلاوي : ت ١٣١٥ هـ) – تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري – دار الكتاب – الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

١٠ – الإسلام (هنري ماسيه) – ترجمة بهيج شعبان – منشورات دار عويدات – بيروت .

١١ – الإسلام في حوض البحر المتوسط (د . علي حسني الخربوطلي) – دار العلم للملايين – بيروت .

١٢ – الإسلام في المغرب والأندلس (ليفي بروفنسال) – ترجمة د . السيد عبد العزيز سالم – نشر مكتبة النهضة المصرية – سلسلة الألف كتاب سنة ١٩٥٦ م .

١٣ – الإسلام والثقافة العربية جـ ١ (الجزء الأول) (د . حسن أحمد محمود) – دار النهضة المصرية ١٩٦٣ م .

١٤ – إشبيلية في القرن الخامس الهجري (د . صلاح خالص) – دار الثقافة – بيروت ١٩٦٥ م .

١٥ – إغاثة الأمة للمقريزي (تقي الدين أحمد) قام على نشره : محمد مصطفى زيادة – جمال الدين محمد الشيال – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ م – القاهرة .

١٦ – بجاية (كتالوج) سلسلة الفن والثقافة – نشر وزارة الأخبار الجزائرية إشراف د . بورويبة – مدريد ١٩٧٠ م .

١٧ – البداية والنهاية (للحافظ بن كثير الدمشقي : ت ٧٧٤ هـ) مكتبة المعارف – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .

١٨ – البربر (عثمان الكعاك) – مطبعة الترقي – تونس .

١٩ – البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (لأبي عبد الله محمد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني) – تحقيق ومراجعة محمد بن أبي شنب – المطبعة الثعالبية – الجزائر ١٩٠٨ م .

٢٠ – بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي : ت ٥٩٩ هـ) – تصوير مكتبة المثنى ببغداد – عن طبعة مجريط ١٨٨٤ م .

٢١ – بلاغة العرب في الجزائر (عثمان الكعاك) – نشر مكتبة العرب بتونس .

٢٢ – البيان المغرب (ابن عذارى المراكشي) – كان حياً سنة ٧١٢ هـ – مكتبة صادر – بيروت – مطبعة المناهل ١٩٥٠ م .

٢٣ – تاريخ الأسطول العربي (محمد ياسين الحمودي) – مطبعة الترقي بدمشق .

٢٤ – تاريخ الإسلام السياسي (د . حسن ابراهيم حسن) ج ٤ الطبعة الأولى – مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٣ م .

٢٥ – التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية – الجزء الرابع (د . أحمد شلبي) – مكتبة نهضة مصر (الطبعة الأولى والثالثة) .

٢٦ – التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية – الجزء السادس (د . أحمد شلبي) – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الأولى ١٩٧٢ م .

٢٧ – تاريخ التمدن الإسلامي (جورجي زيدان) – المجلد الثاني – طبعة دار الهلال – تعليق د . حسين مؤنس .

٢٨ – تاريخ الجزائر العام ج ١ (عبد الرحمن الجيلالي) – منشورات دار الحياة – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٦٥ .

٢٩ – تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ – مبارك الهلالي الميلي – مكتبة النهضة الجزائرية ١٩٦٣ م .

٣٠ – تاريخ الحضارة المغربية (عبد العزيز بن عبد الله) – طبع دار السلمي – الدار البيضاء ١٩٦٢ .

٣١ – تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي المتوفي ٩١١ هـ – بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢ م .

٣٢ – تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب (د . حسن إبراهيم) – الطبعة الثانية ١٩٥٨ – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة .

٣٣ – تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (للفقيه أبي عبد الله محمد إبراهيم اللولوي) المعروف بالزركشي – طبع الدولة التونسية ١٢٨٩ هـ .

٣٤ – تاريخ الشعوب الإسلامية (الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها) كارل بروكلمان – ترجمة د . نبيه فارس ، ومنير بعلبكي – نشر دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٤٩ م .

٣٥ – تاريخ العرب (مطول) (د . فيليب حتي وآخرين) – ج ٢ – طبع ونشر دار الكشاف – بيروت ١٩٥١ م .

٣٦ – تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (الأمير شكيب أرسلان) – مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٥٢ هـ .

٣٧ – تاريخ قسنطينة – ميكروفيلم – الجامعة العربية – تاريخ ١٤٥٧ – تأليف الشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار .

٣٨ – تاريخ مختصر الدول (للملطي المعروف بابن العبري : ت ١٢٨٦ م) – الطبعة الأولى ١٩٥٨ – المطبعة الكاثوليكية – بيروت .

٣٩ – تاريخ المغرب العربي (د . سعد زغلول عبد الحميد من الفتح العربي حتى قيام دول الأغالبة والرستميون والأدارسة) ج ١ – دار المعارف ١٩٦٥ م .

٤٠ – تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين – السفر الثاني (عبد الملك بن صاحب الصلاة ت : ٥٩٤) – تحقيق عبد الهادي التازي – نشر دار الأندلس – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٦٤ .

٤١ – تاريخ الموحدين (لأبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق ت : القرن السادس الهجري) الشهير : بأخبار المهدي بن تومرت – نشر ليفي بروفنسال – طبع باريس ١٩٢٨ م .

٤٢ – التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار (لابن غبوش ت : القرن ١٢ هـ) – تصحيح الطاهر أحمد الزاوي – مكتبة النور ، طرابلس – الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

٤٣ – ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك – ج ٣ – القاضي عياض (أبو الفضل عياض موسى بن عياض ت : ٥٤٩ هـ (١١٤٩ م) – تحقيق أحمد بكير محمود – منشورات مكتبة الحياة – بيروت ١٩٦٧ .
٤٤ – تعريف الخلف برجال السلف (لأبي القاسم الحفناوي) جزءان – طبع مطبعة بير الشرقية بالجزائر .
٤٥ – تقويم البلدان(لعماد الدين إسماعيل بن عبد الملك الأفضل نور الدين علي ابن جمال الدين صاحب حماة ت : ٧٣٢ هـ) – عناية رينود والبارون – طبع باريس ١٨٤٠ .
٤٦ – التكملة لكتاب الصلة لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي (ابن الأبار ت : ٦٥٩ هـ) – مكتبة الخانجي بمصر ١٩٥٦ .
٤٧ – جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (أبي عبد الله محمد الحميدي الشهير بالحميدي ت : ٤٨٨ هـ) – الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ .
٤٨ – الجزائر في مرآة التاريخ د . عبد الله شريط ، ومحمد الميلي – مطبعة البعث بقسنطينة ١٩٦٥ .
٤٩ – جمهرة أنساب العرب (لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت : ٤٥٦) – سلسلة ذخائر العرب – نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٢ – تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
٥٠ – الحاكم بأمر الله (محمد عبد الله عنان). – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ١ – ١٩٥٩ م .
٥١ – حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين (د . راشد البراوي) ج ١ – نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ – الطبعة الأولى .
٥٢ – حضارة العرب – غوستاف لوبون ط ٢ – القاهرة ١٩٤٨ .
٥٣ – الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض (عثمان الكعاك) – منشورات معهد الدراسات العربية – طبع لجنة البيان العربي .
٥٤ – الحلة السيراء (لابن الأبار) – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – تعليق د . حسين مؤنس ط ١ – ١٩٦٣ .

٥٥ – الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية (د . محمد ضياء الدين الريس) – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الثانية ١٩٦١ .

٥٦ – خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب) للعماد الأصفهاني ت : ٥٩٧ هـ – تحقيق محمد المرزوقي ، محمد العروسي ، والجيلالي ابن الحاج يحيى – الدار التونسية للنشر ١٩٦٦ م .

٥٧ – الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – الجزء الثاني – المقريزي – توفي ٨٤٥ هـ – مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤ .

٥٨ – دائرة المعارف الإسلامية – الطبعة الثانية ١٩٣٤ – ترجمة د . محمد الفندي وآخرين .

٥٩ – الدر المكنون في مآثر الماضين من القرون (لياسين بن خير الله المعروف بالخطيب العمري ت : بعد سنة ١٨١٧ م) – نسخة مصورة عن نسخة بمكتبة المتحف البريطاني (٨٤٠ ورقة – الكتابة على وجه واحد) مكتبة الكويت المركزية .

٦٠ – الدعوة إلى الإسلام (سير توماس أرنولد) – الطبعة الثانية ١٩٥٧ – مكتبة النهضة المصرية .

٦١ – دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي – مطبعة لجنة التأليف والطباعة والنشر – الطبعة الأولى ١٩٦٠ .

٦٢ – الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية (محمد عبد الله عنان) – الطبعة الأولى – مطبعة مصر ١٩٥٨ .

٦٣ – الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي (د . عبد الله علي علام) – طبع دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .

٦٤ – الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المدني – انتهى من تأليفه سنة ٧٦١ هـ – مطبعة عباس بن عبد السلام بالفحامين بمصر ١٣٥١ هـ .

٦٥ – ديوان ابن حمديس (ت : ٥٢٧ هـ) – تحقيق د : إحسان عباس – دار صادر – بيروت ١٩٦٠ م .

٦٦ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (لأبي الحسن علي بن بسام ت : ٥٤٢) - المجلدات ١ ، ٢ ، ٤ من القسم الأول - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

٦٧ - رحلة التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني) - تقديم حسن حسني عبد الوهاب - مطبعة الرسمية - تونس ١٩٥٨ (قام بها بين سنوات ٧٠٦ ، ٧٠٨) .

٦٨ - رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية لأبي عبد الله محمد بن العبدري الحيحي (بدأ رحلته سنة ٦٨٨ هـ) - تحقيق وتقديم محمد الفاسي - طبع وزارة الدولة للشئون الثقافية - الرباط ١٩٦٨ .

٦٩ - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم - تأليف أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي - قام على نشره د . حسين مؤنس - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ - ط . أولى .

٧٠ - السجلات المستنصرية - تقديم وتحقيق د . عبد المنعم ماجد - دار الفكر العربي ١٩٥٤ - مطبعة الاعتماد .

٧١ - سفر نامة (ناصر خسرو علوي ت : ٤٧١ هـ) - ترجمة د . يحيى الخشاب - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .

٧٢ - سياسة الفاطميين الخارجية (د . محمد جمال الدين سرور) - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٧ .

٧٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب (عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ) - نشر مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ .

٧٤ - صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي) توفي ٥٤٨ هـ - طبع ليدن ١٨٦٣ .

٧٥ - الصلة لابن بشكوال (أبي القاسم خلف بن عبد الملك ت : ٥٧٨ هـ) - طبعة الدار المصرية للترجمة والنشر ١٩٦٦ .

٧٦ – صورة الأرض لابن حوقل (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) – منشورات مكتبة الحياة – بيروت .
٧٧ – طبقات سلاطين الإسلام (ستان لي بولي) – ترجمة مكي الظاهر الكعبري – دار منشورات البطري .
٧٨ – ظهر الإسلام (الجزء الرابع) – أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الثانية ١٩٥٩ م .
٧٩ – العبر : في أخبار العرب والعجم والبربر (عبد الرحمن بن خلدون ت : ٨٠٨) – الجزء السادس – منشور دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨ .
٨٠ – العرب تاريخ موجز – فيليب حتي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الرابعة ١٩٦٨ .
٨١ – العرب والعروبة من القرن الثالث حتى الرابع عشر الهجري – الجزء الثالث – محمد عزه دروزة – طبع دار اليقظة العربية بدمشق ١٩٦٠ .
٨٢ – العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب – يوهان فك – ترجمة د . عبد الحليم النجار – طبع مطبعة دار الكتاب العربي ١٩٥١ – القاهرة – نشر مكتبة الخانجي بمصر .
٨٣ – عصر المرابطين والموحدين – القسمان الأول والثاني (محمد عبد الله عنان) – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .
٨٤ – عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (لأبي العباس الغبريني ت : ٧١٤ هـ) – المطبعة الثعالبية بالجزائر ١٣٢٨ هـ .
٨٥ – فتح العرب للمغرب (د . حسين مؤنس) – نشر مكتبة الآداب بالجماميز – الطبعة الأولى ١٩٤٧ .
٨٦ – فتح مصر والمغرب (القسم التاريخي) لابن عبد الحكم ٢٥٧ هـ – تحقيق عبد المنعم عامر – طبع ونشر لجنة البيان العربي .
٨٧ – فتوح البلدان (لأحمد بن يحيى البلاذرى ت : ٢٧٩ هـ) – تحقيق صلاح الدين المنجد – دار النهضة المصرية ١٩٥٧ .
٨٨ – الفن المعماري الجزائري – نشر وزارة الأخبار الجزائرية – إشراف د . بورويبة – مطبعة التاميرا مدريد ١٩٧٠ .

٨٩ – الفنون الإسلامية والوظائف (ثلاثة أجزاء) – د . حسن الباشا – نشر دار النهضة العربية ٦٥–١٩٦٦

٩٠ – في التاريخ العباسي والأندلسي (د . أحمد مختار العبادي) – دار النهضة العربية ١٩٧١ .

٩١ – قادة فتح المغرب العربي (محمود شيت خطاب) – الطبعة الأولى ١٩٦٦ – نشر دار الفتح للطباعة والنشر .

٩٢ – القاموس الإسلامي – المجلد الثاني – أحمد عطية الله – نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ .

٩٣ – قلائد العقيان (الفتح ابن خلكان ت : ٩٢٩ هـ) – نسخة مصورة عن طبعة باريس – تقديم محمد العناني – المكتبة العتيقة – تونس ١٩٦٨ .

٩٤ – القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (أرشيبارد لويس– ترجمة أحمد محمد عيسى) – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .

٩٥ – قيام دولة المرابطين (د . حسن أحمد محمود) – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ .

٩٦ – الكامل في التاريخ للشيخ عز الدين أبي الحسن المعروف بابن الأثير ت : ٦٣٠ هـ – دار صادر – بيروت ١٩٦٧ .

٩٧ – كتاب الجزائر (أحمد توفيق المدني) – طبع دار المعارف – طبعة ثانية ١٩٦٣ .

٩٨ – كنز الدرر – الجزء السادس (لأبي بكر بن عبد الله الدواداري) – تحقيق صلاح الدين المنجد – القاهرة ١٩٦١ .

٩٩ – اللمحة البدرية في الدولة المصرية – نسخة مصورة من نسخة بالاسكوريال – بالأندلس – الجامعة العربية ٢٤٧٣ تاريخ .

١٠٠ – مآثر الإنافة في معالم الخلافة – الجزء الأول – للقلقشندي – تحقيق عبد الستار فراج – مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٤ .

١٠١ – مجاهد العامري – كليليا سارنللي تشركو – رسالة ماجستير – الطبعة الأولى .

١٠٢ – المجتمع المغربي : د . إبراهيم أحمد العدوي – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

١٠٣ – مجمل تاريخ الأدب التونسي من فجر الفتح العربي لإفريقية إلى العصر الحاضر – حسن حسني عبد الوهاب – الطبعة الثالثة – نشر مكتبة المنار بتونس .

١٠٤ – مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية – اعتنى بإصدارها « لافي بروفنسال » – مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية – المطبعة الاقتصادية ١٩٤١ .

١٠٥ – محاضرات في مراكز الثقافة – في المغرب العربي (عثمان الكعاك) – طبع معهد الدراسات العربية – بجامعة الدول العربية ١٩٥٧ .

١٠٦ – مختصر كتاب البلدان (للهمذاني المعروف بابن الفقيه) كان حياً في القرن الثالث الهجري) – طبع ليدن ١٣٠٢ .

١٠٧ – مذكرات الأمير عبد الله (٤٦٩–٤٨٣) آخر ملوك بني زيري بغرناطة – المسماة بكتاب التبيان – تحقيق ليفي بروفنسال – دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .

١٠٨ – محاضر الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لصفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق البغدادي ت : ٧٣٩ – مختصر معجم البلدان لياقوت تحقيق علي محمد البجاوي – طبع عيسى البابي الحلبي ١٩٥٥ .

١٠٩ – مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) للرحالة أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت : ٣٤٦ هـ – ضبط يوسف أسعد داغر – نشر دار الأندلس – بيروت – طبعة أولى ١٩٦٦ .

١١٠ – المساجد في الجزائر (كتالوج) سلسلة الفن والثقافة – نشر وزارة الأخبار – إشراف بورويبة – مدريد – أسبانيا ١٩٧٠ .

١١١ – المسالك والممالك (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارس الإصطخرى المعروف بالكرخي ت : النصف الأول من القرن الرابع الهجري) – تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني – مراجعة شفيق غبريال – القاهرة – وزارة الإرشاد ١٩٦١ .

١١٢ – المسلمون في أوربا في العصور الوسطى – تأليف د . إبراهيم علي طرخان – سلسلة الألف كتاب – طبع ونشر مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ .

١١٣ – المشترك وضعاً والمفترق صقعاً لياقوت الحموي ت : ٦٢٦ هـ – تصوير مكتبة المثنى عن طبعة فرديناند ويستفلد جوتينجان ١٨٤٦ .

١١٤ – معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان – صنفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ ت : ٦٩٦ هـ – تكملة وتعليق أبو الفضل التنوخي ٨٣٩ هـ – تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح ج ١ – نشر مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٨ .

١١٥ – المعجب في تلخيص أخبار المغرب – عبد الواحد المراكشي ت ٦٤٧ – تحقيق سعيد العريان – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٣ .

١١٦ – معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج ١ للمستشرق زامباور – ترجمة وإخراج د . زكي محمد حسن ، وحسن أحمد محمود – القاهرة ١٩٥١ . – مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ .

١١٧ – معجم البلدان لياقوت الحموي – دار صادر – بيروت ١٩٥٥ .

١١٨ – المعز لدين الله الفاطمي د . حسن إبراهيم وطه شرف – الطبعة الثانية – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ .

١١٩ – المغرب الإسلامي – منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم لقبال موسى – أستاذ مساعد بجامعة الجزائر – طبعة أولى – مطبعة البعث بقسنطينة ١٩٦٩ .

١٢٠ – المغرب العربي تاريخه وحضارته – رابح بونار – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر ١٩٦٨ .

١٢١ – المغرب في بداية العصور الحديثة د . صلاح العقاد – طبع معهد الدراسات العربية .

١٢٢ – المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب – جزء من كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري ت : ٤٨٧ هـ – نشر دي سلان (الجزائر ١٨٥٧) .

١٢٣ – المغرب الكبير ج ٢ – د . السيد عبد العزيز سالم – الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦ .

١٢٤ – المغرب في حلى المغرب لابن سعيد – د . شوقي ضيف – الجزء الأول – طبع دار المعارف بمصر ١٠٥٣ .

١٢٥ – مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت : ٨٠٨ هـ) – تحقيق د . علي عبد الواحد وافي – طبع لجنة البيان العربي – الطبعة الأولى ١٩٥٨ .

١٢٦ – المكتبة الصقلية ميخائيل أماري – طبعة بالأوفست لمكتبة المثنى ببغداد ، لصاحبها قاسم الرجب عن طبعة ليبزج ١٩٥٧ .

١٢٧ – المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن دينار (مات في آخر القرن الثاني عشر) – تحقيق محمد شمام – المكتبة العتيقة ١٣٨٧ هـ .

١٢٨ – موجز التاريخ العام للجزائر (عثمان الكعاك) – نشر مكتبة العرب بتونس ١٩٢٥ .

١٢٩ – موسوعة تاريخ العالم ج ٢ – أصدرها وليام لانجر – أشرف على الترجمة د . محمد مصطفى زيادة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ .

١٣٠ – النجوم الزاهرة – جمال الدين أبو المحاسن – يوسف بن تقزي بردى ت : ٨٧٤ هـ – نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (ج ٥) .

١٣١ – نخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الأكفاني بعناية الأب أنستاس كرملي – المطبعة العصرية ١٩٣٩ م .

١٣٢ – نظم الجمان لأبي الحسن المشهور بابن القطان ت : ٦٧٠ تقريباً – الجزء ٦ من الكتاب – منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس – تحقيق د . محمود علي مكي .

١٣٣ – نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (د. عبد المنعم ماجد) – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣ .

١٣٤ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – أجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ لأحمد بن محمد المقري ت : ١٠٤١ هـ – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة بمصر – الطبعة الأولى ١٩٤٩ .

١٣٥ – النقود العربية وعلم النميات – نشر الأب أنستاس الكرملي – المطبعة العصرية – القاهرة ١٩٣٩ .

١٣٦ – نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد النويري (الجزء ٢٢) – مخطوط بدار الكتب المصرية .
١٣٧ – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي – تحقيق إبراهيم الأبياري – الشركة العربية للطباعة والنشر – الطبعة الأولى ١٩٥٩ .
١٣٨ – الهلالية في الأدب والتاريخ – د . عبد الحميد يونس – طبع جامعة القاهرة ١٩٥٦ .
١٣٩ – ورقات عن الحضارة العربية في تونس – القسم الأول – حسن حسني عبد الوهاب – مكتبة المنار – تونس – ١٩٦٥ .
١٤٠ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان ت : ٦٨١ – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – الطبعة الأولى ١٩٤٨ – مكتبة النهضة المصرية .

الدوريات

١ – مجلة الأصالة (الجزائر) :
أعداد : نوفمبر ١٩٧١
ذي الحجة ١٣٩١
يناير ١٩٧٢
٢ – المجاهد السياسي – (مجلة أسبوعية جزائرية) :
أعداد : ١٩٦٣/٤/١٤ .
١٩٦٩/١٠/٢٦ .
١٩٦٩/١١/١ .
١٩٧٠/١١/٢٢ .

* * *

المـراجع الأجنبية

1 — Encyclopedia of Islam.

2 — La Berberie Musulmane et L'orient au moyen-âge — George Marçais (Aubier Editions Mognaine—Paris 1946).

3 — La Kalaa des Beni Hammad—Une Capitale Berbere De L'Afrique du Nord — Au XI^{e} Siecle — Paris Ernest Lerous, Éditeur, 1909 — General L'De Beylie.

4 — Le passé de L'Afrique du Nord, Les siecles obscures, S. F. Gautier, Payot (Paris) 1937.

5 — Les poteries et faiences de Bougie — Georges Marçais — (Braham — étiteur — constantine 1916.)

6 — Manuel d'art Musulmane L'architecture, Tom I — (Tunisie — Algerie — Maroc — Espagne — Sicile) Tom I — Georges Marçais.
Editions Auguste Picard — Paris 1926.

7 — Mèlanges d'histoire et d'archeologie de L'occident Musulmane — Georges Marçais.
Tom I (Articles et Conférences) Alger 1957.

8 — Relation et Commerce de L'Afrique septentrionale ou Magreb avec les nations Chretiennes — Le Comte de Mas Latrie.

فهـرس المحتويات

الصفحة

إهداء ٥
كلمة تقدير ٦
المقدمة ٧
تمهيد ١٥
المغرب الإسلامي إلى قيام الدول البربرية المستقلة ١٥
١ – البربر ومواطنهم بالمغرب ١٧
٢ – خصائص البربر ٢٥
٣ – الجزائر الإسلامية ٣٢
٤ – ظهور الدول البربرية المستقلة ٣٨

الباب الأول
قيام الدولة الحمادية

الفصل الأول : حماد وجهوده في تأسيس الدولة ٤٥
١ – مدخل ٤٧
٢ – نسب حماد ٤٨
٣ – شخصية حماد ٥١
٤ – دور التبعية في حياة حماد ٥٤
٥ – العقد السياسي بين حماد وباديس ٥٦
٦ – الدور العملي في بناء الدولة ٦٢
٧ – الصلح وإعلان قيام الدولة ٦٩
٨ – تقييم هذا الدور الحمادي ٧١

الصفحة

الفصل الثاني : حدود الدولة الحمادية وتطورها ٧٥

١ – مدخل ٧٧

٢ – الملامح العامة لحدود الدولة ٧٩

٣ – مرحلة أشير ٨٦

٤ – مرحلة القلعة ٨٩

٥ – مرحلة بجاية ٩٩

الباب الثاني
تاريخ الدولة وسياستها

الفصل الأول : التاريخ السياسي للدولة ١٠٧

١ – مدخل ١٠٩

٢ – دور الصراع المغربي ١١٢

أ – حماد وبداية عهد الاستقلال ١١٢

ب – القائد وبداية الصراع المغربي ١١٤

جـ – محسن بن القائد ١١٨

د – بلقين والقوى الجديدة في المغرب ١٢٠

٣ – دور الاستقرار النسبي ١٢٤

أ – الناصر وبداية عهد الاستقرار ١٢٤

ب – المنصور واستمرار سياسة الناصر ١٣٨

جـ – باديس بن المنصور ١٤٧

د – العزيز قمة عهد الاستقرار ١٤٨

٤ – الدور الأخير ١٥٣

أ – يحيى وبداية الاضمحلال ١٥٣

الفصل الثاني : السياسة الخارجية للدولة ١٦٥

١ – الحماديون والفاطميون ١٦٧

الصفحة

٢ – الحماديون وبنو زيري ١٧٠
٣ – الحماديون وبنو خراسان ١٧٢
٤ – الحماديون وزناتة ١٧٥
٥ – الحماديون والقبائل العربية ١٧٧
٦ – الحماديون والمرابطون ١٧٩
٧ – الحماديون والأندلسيون ١٨٣
٨ – الحماديون والمسيحيون ١٨٥

الفصل الثالث : سقوط الدولة الحمادية ١٩١

١ – الموحدون في الجزائر ١٩٣
٢ – استسلام يحيى ١٩٧
٣ – عوامل سقوط الدولة ١٩٨

الباب الثالث

حضارة الدولة الحمادية

الفصل الأول : النظام السياسي والإداري والمالي ٢٠٣

١ – النظام السياسي ٢٠٥
٢ – النظام الإداري ٢٠٧
٣ – النظام المالي ٢١١

الفصل الثاني : الحياة الاقتصادية ٢١٧

١ – تطور الحياة الاقتصادية ٢١٩
٢ – الزراعة ٢٢١
٣ – الصناعة ٢٢٤
٤ – التجارة ٢٢٦

الصفحة

الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية ٢٣٣

١ – الطبقات والأجناس ٢٣٥

٢ – العادات الاجتماعية ٢٣٩

الفصل الرابع : الحياة الثقافية ٢٤٥

١ – التكوين الثقافي للدولة ٢٤٧

٢ – الحالة التعليمية ٢٥٢

٣ – العقائد والمذاهب ٢٥٥

٤ – العلوم النقلية ٢٥٧

٥ – العلوم العقلية ٢٦٢

أ – الأدب واللغة ٢٦٢

ب – التاريخ والجغرافيا ٢٦٨

جـ – العلوم التجريبية ٢٧٠

د – الفنون والعمارة ٢٧١

٦ – أثر الحضارة الحمادية ٢٨١

الملاحق ٢٨٧

المراجع العربية ٢٩٣

المراجع الأجنبية ٣٠٧

فهرس المحتويات ٣٠٩

رقم الإيداع ٧١٣٩ / ١٩٩٠

I . S . B . N . 977 - 15 - 0021 - X

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN





دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

٧ ش السراى ـ المنيل ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان ـ مدينة الهدى ت : ٦٨٨٠٧١



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004